

دولة ليبيا
جامعة سبها
كلية الآداب
قسم التاريخ



بحث مقدم لقسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة سبها لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ.

بعنوان

النظام السياسي في الشرق القديم

بين التقبل والعنف

الطالب

النين ولد سيدي محمد

تحت إشراف

د. عبد الحيفظ فضيل الميار

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

جامعة سبها

كلية الآداب / قسم التاريخ

النظام السياسي في الشرق القديم
بين التقبل والعنف
نموذج: العهد السومري 3000 - 2340 ق.م

إعداد الطالب / النين ولد سيدي محمد

إشراف الدكتور/ عبد الحيفظ فضيل الميار

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الإجازة العالية (الماجستير) بقسم التاريخ

(شعبة التاريخ القديم)

بتاريخ: 18 / 3 / 2008

تاريخ المناقشة: 15 / 7 / 2008

العام الجامعي 2007 - 2008

الفصل التمهيدي

مدخل عـام

الفصل الأول

الإيكولوجيا وثنائية التقبل والعنف

الفصل الثانـي

أسس نظام الحكم في الشرق القديم

الفصل الثالث

تطور النظام السياسي في سومر
خلال العهد السومري القديم

المقدمة

حين يكون ذهن المرء مشدوداً إلى البحث في حضارات الشرق القديم تتبادر إليه مسألة تكاد تكون من المسلمات وهي أن كل ما يتعلق بهذه الفترة قد قتل بحثاً وبالتالي يصعب على من يسعى للقيام ببحث تاريخي أصيل أن يتخذ منها ميداناً لدراسته، إلا أن المطلع برؤية ناقدة على الدراسات المتعلقة بالشرق القديم يدرك أن ثمة مجالات لا تزال بحاجة إلى ان تسلط عليها المزيد من الأضواء، خاصة في مجال الفكر السياسي، هذا الفكر الذي ظل في مختلف دول الشرق القديم قانعاً بالأسلوب الملكي الثيوقراطي أو مجبوراً عليه أو هما معاً. وإذا ما نُظر إلى الأطر الجغرافية التي نبتت فوقها أولى المدنيات في الشرق القديم فإنه يُلاحظ مدى التشابه الواضح بين تلك البيئات الجغرافية، رغم وجود بعض نقاط الاختلاف، وتُظهر نظرة أفقية إلى المدى التاريخي الذي ظهرت فيه هذه المدنيات . حسب ما أكدته الاكتشافات الآثارية . مدى التقارب النسبي بين التواريخ الكرونولوجية التي تؤرخ لهذه المدنيات كما تشير إلى درجة التناغم والتناظر بينها(خريطة 1).

فعلى الصعيد الجغرافي يمكن الافتراض بأن توفر التربة الخصبة الصالحة للزراعة شكل عاملاً حاسماً في قيام جميع المدنيات الأولى في الشرق؛ ففي وادي الرافدين قامت أولى المدنيات التي عرفها التاريخ حيث تميزت هذه المنطقة بخصوبة الغرين الذي يغذيه نهرا دجلة والفرات وبمناخها الملائم للزراعة، مما ساعد السكان على خلق مجتمعات زراعية ما فتئت أن تطورت إلى تجمعات قروية معقدة أخذت تشق طريقها بسرعة نحو حياة المدن–الدول مع بداية الألفية الثالثة قبل ميلاد المسيح. السيناريو نفسه يتكرر في مختلف مراكز المدنية في الشرق القديم، ففي الغرب وبالذات في وادي النيل قامت المدنية المصرية موازية لنظيرتها في بلاد الرافدين السالفة الذكر، وإلى الشرق من ذلك قليلاً في ما وراء البحر الأحمر حيث جنوب شبه الجزيرة العربية

مكنت السيول الغزيرة المتأتية من مياه الأمطار من توفير أرض خصبة صالحة للزراعة وهناك بدأت حضارة اليمن تتشكل باكراً، وإلى الشرق من بلاد الرافدين وتحديداً عند تخوم سهل الرافدين في أقصى الجنوب تبدأ بلاد عيلام (إيران) التي قامت فيها مدنية مبكرة لها مميزاتها عن جارتها السومرية، وإلى الشرق من عيلام في المنطقة التي يمكن تحديدها اليوم بالحدود الإيرانية مع أفغانستان قامت مدنية "شرهيسوختا" التي تعود في تاريخها إلى الفترة الواقعة بين 2900 – 1900ق.م وكانت هذه المنطقة تتاخم أسفل مجرى نهر هلمند قبل أن يغير مجراه إلى المجرى الحالي، وإلى الشرق منها قليلاً نجد المدنية الهندية الكبرى تنهض على امتداد حوض نهر السند ابتداءً من حوالي 2500 ق.م بزعامة مدينتي هارابا وموهنجودارو وكذلك على ضفاف نهر الغانج، ومع بداية الألفية الثانية قبل الميلاد وفي أقصى الشرق تمكنت المدنية الصينية من التبلور على ضفاف نهر هوانغ–هو (النهر الأصفر).

لقد كانت هذه الحضارات حضارات نهرية وزراعية بالدرجة الأولى تطورت على أنقاض الثقافات النيوليثية التي انتشرت على نطاق واسع في مختلف أصقاع الشرق القديم من نهر النيل غرباً إلى غاية النهر الأصفر شرقاً. ولا تزال أصول الشعوب التي أنتجت هذه الحضارات غير معروفة سواءً تعلق الأمر بالمصريين الأوائل أو السومريين أو الشعب الدرافيدي صاحب حضارة موهنجودارو وهارابا أو الصينيين الأوائل، وقد تمكنت كل من هذه المدنيات من ابتداع طريقتها الخاصة في الكتابة. إلا أن هذه المميزات مهما ظلت تؤكد على ذاتية كل مدنية من هذه المدنيات واستقلالها بخصوص نشأتها وتطورها التاريخيين، فإنها لا تتناقض وفكرة التأثر والتأثير المتبادلين بين مختلف هذه المدنيات، فقد كانت العلاقات قائمة بينها بفعل وسائل المواصلات سيما المائية منها والتي لا شك أنها أسهمت في الاتصال المبكر بينها عبر حركات التجارة والهجرة والحرب، ومن الطبيعي أن تساعد هذه العوامل في اشتراك هذه المدنيات في الكثير من السمات الثقافية؛ المادية والروحية والسياسية، فعلى المستوى السياسي يلاحظ أن الأسلوب الملكي الثيوقراطي ظل النموذج المحتذى في كل الدول التي قامت في الشرق

القديم فما هي عوامل هذا الانتشار الأفقي والديمومة التاريخية لهذا الأسلوب في إدارة السلطة؟.

والحق يقال فإن النظام السياسي الملكي في الشرق القديم عموماً وفي سومر تحديداً قد تم تناوله بالدراسة من قبل العديد من الكتاب، ويجوز القول أن مفهوم "الاستبداد" يكاد يقترن بالشرق حتى أصبح التاريخ السياسي للشرق وكأنما يعني دراسة "الاستبداد الشرقي"، ورغم أن وجهة النظر الخلدونية المؤسسة على مفاهيم القوة المرتبطة بالعصبية وعلى دور الدين بالإضافة إلى الحتمية الجغرافية كعوامل حاسمة في نشأة النظام السياسي وسيرورته تنطبق أساساً على المجال الذي استقرأ منه ابن خلدون تاريخه "العرب والبربر ومن جاورهم"، فإن نظريته تحوز على قدر كبير من الموثوقية إذا ما حاولنا تعميمها على النظم السياسية التي قامت في الشرق خاصة تلك التي لم يكن ابن خلدون على دراية بها. غير هذا فنكاد لا تصادف دراسة علمية قادرة على تفسير التاريخ السياسي الشرقي تضرب جذورها في عمق الأصالة العلمية المألوفة عند ابن خلدون، فجل الدراسات العربية في هذا المجال عبارة عن مؤلفات سردية الطابع تعتمد على الجانب الكمي وتغلب عليها النزعة العاطفية والأحكام القيمية. وتوضيحاً لذلك نعرض . على سبيل المثال لا الحصر . بعض الدراسات العربية التي تناولت الموضوع السياسي في الحضارات القديمة.

لقد تناول صلاح مصطفى الفوال في كتابه "سوسيولوجية الحضارات القديمة"(1982) بالدراسة الفكر الاجتماعي في مختلف الحضارات القديمة: المصرية والبابلية والهندية والصينية والفارسية والعربية وغيرها، دون أن يتطرق للفكر الاجتماعي السومري، فيما نجده يطنب في دراسة الفكر الاجتماعي المصري، في الوقت ذاته لم يعالج الفوال الإشكال المتعلق بعوامل استمرار النظام الملكي كجزء من البنية الاجتماعية المصرية، لكنه ولدى تناوله للفكر الاجتماعي في الهند نجده يتحدث عن الدور السياسي والاجتماعي للدين في الهند القديمة. تناول الفوال كذلك السوسيولوجية الصينية ووصفها

"بالواقعية التي تتجسد في جمهورية كونفوشيوس الواحدة" ، كما وأن الفوال يذكر أن الحيثيين كانوا قد عرفوا أسلوب الانتخاب في اختيار ملوكهم، إلا أن هذا الانتخاب كان يتم داخل آل البيت الملكي، كما ويشير الفوال إلى أن الملك الحيثي كان هو مصدر التشريع ويجمع بين السلطتين الدينية والزمنية وهو (أي الملك) في نظر الحيثيين لا يموت وإنما يتحول إلى إله. أما في فارس فقد كان الفكر الاجتماعي . على حد رأي الفوال . ذا صبغة دينية واضحة الملامح، وكان الحكم ثيوقراطياً صرفاً، حيث أن الملك يحكم بتفويض من الإله، وهو ما كان يجد تقبلاً عن قناعة من قبل المحكومين. ومن خلال ما قدمه الفوال بشأن النظم السياسية في مختلف حضارات الشرق القديم يلاحظ أن النظام الملكي الثيوقراطي ظل متبعاً في مختلف تلك الدول، إلا أن الفوال لم يقدم تفسيراً لأسباب استمرارية هذا النظام وانتشاره الواسع.

وفي دراسة بعنوان "رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته"(1982) يتناول محمد خليفة حسن أحمد الفكر الديني في الشرق الأدنى محاولاً الربط بين مختلف المراحل التي مر بها الفكر الديني في المنطقة دون أن يتعرض لتأثير التطور الحاصل في ميدان الفكر الديني على الحياة السياسية أو العكس، كما يلاحظ أن محمد خليفة أهمل تماماً التاريخ السومري الذي أثر عميقاً في تطور الفكر الشرقي عموماً.

أما عبد العزيز صالح في كتابه "الشرق الأدنى القديم"(1990) فقد تناول بإسهاب تاريخ الحضارات التي قامت في وادي النيل ووادي الرافدين منذ أقدم العصور، محاولاً تقديم تفسيرات خاصة معتمداً على تأثير البيئة، فبالنسبة لسومر . على سبيل المثال . تتبع عبد العزيز صالح التطورات السياسية فيها من خلال سيادة نظام المدينة–الدولة على مدى فترة طويلة من التاريخ السومري تميزت بالصراعات والحروب التي أدت في نهاية المطاف إلى توحيد البلاد قبل فترة وجيزة من تحول السلطة لصالح الأكاديين، لكن عمله جاء سردياً في معظمه وانصب تركيزه على مراحل تطور شكل الدولة دون التركيز على تطور بنية النظام السياسي نفسه.

ليس هناك من شك في أن الفضل الأكبر يعود إلى العلماء الغربيين في إبراز تاريخ الشرق القديم ونفض التراب عنه عن طريق الأعمال والبحوث الآثارية الميدانية التي أخرجت تلك الحضارات الزاهرة وبقايا ثقافاتها المادية من باطن الأرض، وعن طريق المؤلفات الغزيرة التي كتبوها.

كان مونتسكيو (1689 – 1755م)، على حد ما هو معلوم، قد أشار في كتابه "روح القوانين" إلى العوامل التي تحتم شكل الدولة والتي أجملها في نظرية الحتمية الجغرافية بادعائه أن السيماء الأخلاقية للشعوب وطابع قوانينها وأشكال حكوماتها يحددها المناخ والتربة ومساحة الإقليم. في كل عمل مونتسكيو تنتشر فكرة أن القوانين تؤلف نظاماً، فثمة أشياء عديدة تحكم الناس: المناخ والدين والقوانين والمبادئ الأساسية للحكومة وأمثلة الأشياء الماضية والطبائع والآداب، قد تبدو اللائحة للوهلة الأولى مجرد تعداد، لكن مونتسكيو يدخل معياراً يسمح بتمييز الطريقة التي تؤثر فيها هذه الضغوط المختلفة على الأنواع المتباينة للقوانين. كلما كان التمايز في المجتمع أقل كلما كان الأساس التشكلي (المناخ والبيئة والبنية الديمغرافية) أكثر إلزاماً. كلما كان الناس أكثر تمدناً كلما ازداد استناد قانونية النظام الاجتماعي على القوانين والطبائع والآداب. يميز مونتسكيو التعابير الثلاثة، لكنه يميز أولاً الاثنين الأخيرين عن الأول، إن الصين حيث ينم الانتظام عن طريق الآداب والعبادات والطقوس، تختلف عن إسبارطة حيث الأولوية كانت دائماً للطبائع أي لقواعد السلوك إزاء الآخر. فبعد أن ميز بينها يعود مونتسكيو فيجمع الطبائع والآداب التي يضعها معاً في مواجهة القوانين التي هي "أعراف أقرها المشرع". إن الشعوب الحرة هي التي يحكمها القانون، في حين أن البلدان التي تسيطر فيها الطبائع والآداب تكون عرضة للاستبداد والطغيان، لكن الضبط عن طريق القوانين هو نفسه معقد وموضع خلاف. صحيح أن الحرية السياسية، كما يوحي بذلك مثل إنجلترا، يمكن أن تنتج طبائع وآداباً حرة في نطاق التجارة والحياة الخاصة، ولكن يمكن أن يحصل كذلك كما في إسبارطة وروما، أن لا تكون القوانين إلا اصطناعاً من المشرع الذي يسعى إلى استعادة العادات القديمة، أي إلى استعادة الطبائع والآداب سلطة كانت

قد فقدتها. وبما أن قوانين كل بلد تشكل نظاماً، فإننا نستطيع أن نقارن بين هذه البلدان، يقارن مونتسكيو إنجلترا بروما، والصين بإسبارطة، لكنه يبدي حذره لكي يحدد تحت أية علاقة يقارنها، يمكن لمجتمعين أن يتشابها تحت علاقة ما، في حين أنهما مختلفان تحت علاقة أخرى[1]. وهكذا فإن مونتسكيو يرى بأن المناطق الحارة (الشرق) لا يلائمها سوى نظام الحكم الاستبدادي.

أما هيجل فقد اعتبر الدولة وحدة دراسة التاريخ ونظر إليها على أنها التجسيد الواقعي للروح والحرية، لذلك تعتبر الدولة . في رؤيته . أعلى من الأفراد وليس على الأخيرين تجاهها سوى الطاعة لكونها تنتمي إلى عالم الروح، وتتركز الدولة في سلطة الحاكم الذي يصبح بدوره تعبيراً عن الروح المطلقة ولذلك تغدو أعماله مبررة وغير خاضعة لمعايير الأخلاق. ويرى هيجل أن دول الشرق القديمة ساد فيها الاستبداد والطغيان الذي لا يعبر . حسب رأي هيجل . عن حرية مجموع الأفراد كما هو الحال بالنسبة للدولة البروسية أو بعضهم كما هو الحال عند الإغريق وإنما هي تجسيد لحرية الفرد الواحد.

أما كارل ماركس فقد فسر الحكم الاستبدادي في الشرق استناداً إلى علاقات الإنتاج حيث رأى أن النظام السياسي في الشرق القديم بمثابة استجابة للحاجات الاقتصادية للمشاعات القروية الزراعية وكضرورة للحفاظ على تنظيم شبكة الري الاصطناعي على طول وديان الأنهار، ومراقبة الدورات الزراعية للأرض، وصيانة الطرق وأمنها وتوفير الحماية العسكرية للقرى الزراعية من الغزو الخارجي وغيرها. ويرى ماركس أن المعابد والنصب وسائل يستغلها الحاكم للتعبير عن سيادة سلطته وتكريسها وتمجيد وحدة الأراضي التابعة له.

---

[1] أسامة عبد الرحمن النور وأبو بكر يوسف شلابي، الأنثروبولوجيا العامة، المركز القومي للبحوث والدراسات الإفريقية، ط1، طرابلس– ليبيا، 2001، ص: 123، 124.

وقد كتب العديد من المؤرخين المتخصصين في الحضارات الشرقية أعمالاً يرد هنا عرض للبعض منها. ففي مناقشته لنشأة النظم السياسية في المدنيات الأولى يرى هربرت جورج ولز في كتابه "معالم تاريخ الإنسانية"(1967) أن أولى المدن في التاريخ نشأت أول ما نشأت حول المعابد، وأن النظام السياسي الأول كان نظاماً كهنوتياً، وأن هذا النظام ليس سابقاً فحسب على النظام الملكي بل إن الأخير انبثق عن المؤسسة الكهنوتية. كما أرجع ولز سبب انفصال السلطة الزمنية عن السلطة الدينية إلى قصور السلطة الكهنوتية وعجزها في التصدي للتحديات المتعاظمة مع تطور الدولة، وهو الأمر الذي حدا بالكاهن إلى ضرورة الاستعانة بالزعيم الذي توكل إليه الشؤون السياسية والعسكرية، إلا أن الصراع بدأ ينشب بين هاتين السلطتين. ورغم هذا الانفصال فإن الملكية في الشرق قد ظلت تحرص على التمسك بطابعها الديني. ويلاحظ أن تناول ولز لحضارات الشرق القديم عموماً والحضارة السومرية بصفة خاصة كان تناولاً عابراً وبشكل موغل في التعميم.

وقد اعتبر كل من أندريه إيمار وجانين أوبوايه في كتابهما "تاريخ الحضارات العام"(1993) النظام الملكي أساس الإدارة السياسية في كل من بلاد الرافدين ومصر القديمة، إلا أنه بالنسبة لبلاد الرافدين ربما كان النظام الجمهوري هو المتبع في عهد المدن–الدول. وقد ظلت السلطة الملكية تستند دوماً إلى أساس إلهي، فإذا كان الملك في مصر يرتقي إلى مرتبة الآلهة فإنه في بلاد الرافدين يعتبر نائباً للإله. فالصفة الثيوقراطية للسلطة كانت من القوة إلى درجة أن تعيين الملك كان يتم حسب رغبات الآلهة، على أن هذا الاختيار الإلهي يظل محصوراً ومقيداً بالنظام الوراثي. كان الملك يتولى مختلف الوظائف الدينية والدنيوية في الدولة، وكان النظام السياسي يتبع أسلوب المركزية المطلقة.

ويرى ول ديورانت في "قصة الحضارة"(1973) أن نظام الحكم في سومر كان وثيق الصلة بالدين حيث أن لكل مدينة ملك يسمى "باتيسي" أي الملك الكاهن، وأن

النظام الإقطاعي كان منتشراً وكان وسيلة للحفاظ على النظام الاجتماعي في الدولة، فقد كان الزعماء بعد الحرب يقتطعون مساحات واسعة ويعفونها من الضرائب. وقد عرفت بعض المدن–الدول السومرية بعض القوانين غير المعقدة وغير القاسية. وقد أثرى الكهنة من واردات المعابد، كما أسرفوا في ابتزاز أموال الناس مما دفع بالشعب للانتفاض في بعض الحالات (انتفاضة أوروكاجينا مثلاً). ويلاحظ أن ديورانت لا ينفذ إلى عمق الأحداث التي يتناولها بل يكتفي بذكر المعلومات متبعا أسلوباً سردياً.

أما آرنولد توينبي فيعتبر المدنية السومرية هي أقدم المدنيات، والتي تطورت، في اعتقاده، من مرحلة مجتمع ما قبل المدنية بصورة طبيعية، ويرى أن السلطة في سومر بدأت دينية لدى الجماعات القروية القزمية، وأن العامل الديني كان بمثابة العامل الأهم في نجاح السومريين في شق غرين دجلة والفرات وتطويع المستنقع الغاب، حيث كان لدى السكان إيمان بأن السلطة البشرية تجد الدعم من القوى الغيبية، وأن هذا الاعتقاد استمر في عهد المدن الدول السومرية. ويرى توينبي أن المدن ربما تكون قد نشأت في الأصل حول مراكز العبادة، وأن المعبد كان في البداية . بالإضافة إلى وظيفته الدينية . بمثابة المركز السياسي الذي تدار منه مختلف الوظائف المدنية والإدارية.

أما هنري فرانكفورت في كتابه "فجر الحضارة في الشرق الأدنى"(د.ت) فيرى أن التدين خاصة إنسانية قديمة في بلاد ما بين النهرين فرضتها الظروف الطبيعية وكانت هذه النزعة الدينية عامل التحام سياسي واجتماعي. ويشير فرانكفورت إلى أن سومر كانت قد عرفت أشكالاً متنوعة من الأنظمة السياسية منها الشكل الديمقراطي في ظل المدينة–الدولة، وفي حالات تطور هذا الشكل إلى حكم أوليغارشي (حكم القلة)، لكنه ومع ذلك ظل الحكم الفردي هو السائد. وقد تكرس مفهوم الملكية في رأي فرانكفورت بسبب الحروب وتزايد الأخطار الخارجية التي تتعرض لها المدينة–الدولة في سومر مما استوجب اللجوء إلى الكاهن الحاكم وبالتالي سيادة الحكم الثيوقراطي القائم على مبدأ

الاعتراف بالاختيار الإلهي للحاكم. ويرجع فرانكفورت النظام الملكي إلى فترة متأخرة من عهد المدينة–الدولة، وإن كان الطابع الديني للسلطة . في رأيه . يرجع إلى فترة أقدم.

أما صمويل كريمر فقد توصل في كتابه "من ألواح سومر"(1957) من خلال تعامله مع الوثائق المكتوبة في ألواح سومر إلى أن سومر هي المهد الأول لما يعرف بالنظام الديمقراطي، وأن ظهور هذا النظام يعود إلى بداية تشكل المدنية السومرية في بداية الألفية الثالثة السابقة للميلاد. ويرى كريمر أن أول "برلمان" في التاريخ عقد في سومر في تلك الفترة وأنه تألف من مجلسين؛ مجلس للأعيان (الشيوخ) وآخر للعموم (النواب). ورغم أن كريمر يعتبر من أعلام المتخصصين في الحضارة السومرية فإنه يصعب التسليم بكل التفسيرات والاستنتاجات التي توصل إليها والتي جاء بعضها موغلاً في التنظير وإطلاق الفرضيات.

أهمية الموضوع

تتجسد أهمية دراسة النظام السياسي السومري في نقاط ثلاثة: فهي من جهة تهدف إلى محاولة إبراز النظام السياسي السومري على حقيقته، ومن جهة ثانية تساعد في فهم اللغز السياسي في الشرق عموماً، ومن جهة ثالثة تتجاوز أهمية هذه الدراسة فترة التاريخ القديم إلى الفترات اللاحقة الوسيطة والحديثة حتى المعاصرة إذ يمكن أن تساعد في فهم مسائل حساسة ظلت تؤرق الفكر السياسي الشرقي على مر تاريخه خاصة في منطقتنا العربية.

مجال الدراسة

الدراسة تتناول فترة محددة زمانياً ومكانياً، فمن الناحية المكانية تلك المنطقة المعروفة اصطلاحاً ببلاد سومر التي تقع في أقصى الجنوب من بلاد ما بين النهرين، ومن الناحية الزمانية تتناول الفترة المسماة العهد السومري القديم الممتد من حوالي سنة 3000ق.م تاريخ فجر السلالات السومرية أي بداية عصر المدن–الدول في سومر إلى غاية صعود الأكاديين إلى السيطرة على حساب السومريين حوالي سنة 2340ق.م.

وستنصب الدراسة على مناقشة التاريخ السياسي السومري منذ نشأة النظام السياسي؛ كيف نشأ؟ وكيف تطور؟ مع ربطه بنظائره من النظم السياسية في الشرق القديم في محاولة لإبراز عوامل سيادة الملكية في هذه المدنيات.

أسباب اختيار الموضوع

لأسباب يرد ذكرها فيما يلي وقع الاختيار على النموذج السومري في سبيل معالجة هذا الموضوع:

- أن أول نظام سياسي في الشرق بل وفي العالم ظهر في سومر.

- أن موقع سومر الجغرافي من شأنه أن يبرر اختيارها كنموذج لباقي مناطق الشرق القديم الأخرى.

- أن سومر مرت بمراحل سياسية مختلفة من نظام المدينة–الدولة ملكية كانت أم ديمقراطية إلى الدولة الإمبراطورية.

- محاولة فهم بنية النظم السياسية التي قامت في الشرق القديم عن طريق الآلية التي قام عليها النظام السياسي في سومر.

إشكاليات الدراسة وفرضياتها

الإشكالية الرئيسة التي يهدف البحث إلى معالجتها تتمحور حول محاولة تفسير سيادة النظام الملكي ذي الصبغة الدينية في الشرق القديم. لهذا الهدف ينطلق البحث من فرضية مفادها أن النظام الملكي الذي ظل النموذج المتبع في مختلف الدول التي قامت في الشرق القديم لا يمكن أن يكون كذلك إلا بتوافر عاملين رئيسين هما: عامل التقبل وعامل العنف، والعاملان في الحقيقة وجهان لعملة واحدة أي أنهما مترابطان تماماً، فإذا كان التقبل يرجع في الأساس إلى الدين فإن للعنف بشقيه البيئي والبشري تأثيره في تطور الدين، كما أن لهذين النوعين من العنف أيضاً تأثيرهما القوي والمباشر في تطور النظام السياسي. هذه الإشكالية الرئيسة يمكن تفتيتها إلى إشكاليات فرعية

ثلاثة لعل معالجتها تكون كفيلة بالإتيان على مختلف جوانب الإشكالية الكبرى أعلاه. وهذه الإشكاليات الفرعية هي كالتالي:

– الإشكالية الأولى تتعلق بمحاولة إبراز مدى التأثير الإيكولوجي في ثنائية العنف والتقبل.

– الإشكالية الثانية تهدف إلى معالجة الدور الذي يقوم به الدين في تكريس النظام الملكي في الشرق بواسطة عقيدة التقبل التي يتركها في الضمير الجمعي الشرقي.

– الإشكالية الثالثة تتناول دور العنف البشري في تطور النظام السياسي في الشرق القديم.

تحديد مفهومي العنف والتقبل

يعرف العنف (الإكراه) بأنه استخدام الضغط أو القوة استخداماً غير مشروع أو غير مطابق للقانون من شأنه التأثير على إرادة فرد ما[1]. أما التقبل (القبول) فيعرف بأنه خبرة أو مظهر أو سلوك يتميز باتجاه إيجابي نحو مفهوم أو حكم ما[2]. المصطلحان نستخدمهما هنا كمفهومين اجتماعيين لذلك فلا مناص ونحن نستخدمهما في إطار دراسة الحضارات الشرقية القديمة من الرجوع إلى الظروف الإيكولوجية. فالمدنيات الأولى التي قامت في الشرق القديم كمدنيات زراعية اعتمدت منذ البداية على تقنيات الري والتحكم في مياه الفيضانات والسيول وذلك في مناخات تميل في أغلبها إلى الحرارة لا يمكن أن يتم تناول تاريخ الحياة السياسية فيها دون اعتبار المؤثرات الإيكولوجية، ذلك أن للبيئة الطبيعية انعكاساتها بشكل مزدوج على الاجتماع البشري؛ إذ أن لها تأثيراتها على الإنسان فيزيولوجياً وسيكولوجياً، ومن جهة أخرى فإن لها تأثيراتها في الحركة السوسيولوجية والصيرورة التاريخية للمجتمعات. فالمقصود بالعنف كل من العنف البيئي

---

[1] **أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، *1986*، ص: *424*. مصطفى حجازي، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، فرع لبنان، ط2، بيروت، *1980*، ص: *173*.**

[2] **أحمد زكي بدوي، المرجع السابق، ص: *5*.**

والعنف السياسي، وسواءً تمت ممارسة هذا الأخير بطرق مادية أو بطرق رمزية. أما التقبل فيقصد به التقبل الديني، ذلك أن للإنسان الشرقي موقفه شبه الثابت من الدين إلى درجة يمكن اعتباره العامل المعياري الأول في نظرته لكل الأشياء، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بمسألة السلطة. ورسوخ العقائد الدينية في فكر الإنسان الشرقي القديم يتكئ على تراث طويل تشكل عبر تطورات وئيدة في الحياة الروحية تعود إلى أكثر الفترات بدائية وفي بيئات ميزتها الأساسية الرتابة والانتظام.

المنهج المتبع في الدراسة

المنهج المتبع هو المنهج التاريخي التحليلي، الذي يتطلب الجمع بين عمليتي التركيب والتحليل، ذلك أن هدف الدراسة هو محاولة الإجابة على سؤالين جوهريين: الأول ماذا حدث؟، والثاني لماذا وقع الحدث بالصورة التي وقع عليها؟؛ السؤال الأول يستدعي من الباحث ضرورة امتلاك المواد التاريخية وتجميعها وترتيبها لمحاولة تركيبها، ويستدعي السؤال الثاني اللجوء إلى عملية التحليل للخروج بتفسير محدد للأحداث. لهذا كان الاعتماد على نوعين من المصادر التاريخية: النوع الأول المصادر التاريخية البحتة سواءً كانت مادية كالهياكل والتماثيل والنصب وغيرها، أو كانت كتابية كالنصوص التاريخية والأدبية والأساطير. أما النوع الثاني فيتعلق بالمصادر ذات الطابع التنظيري وتتمثل في مختلف الكتابات التي تناولت المسألة السياسية خاصة في الشرق القديم، على أن يتم عرض النوعين من المصادر للنقد.

صعوبات الدراسة

من أبرز الصعوبات التي اعترضت سبيلنا في إعداد هذا البحث نذكر:

– فقر مكتبتنا العربية سيما في مجال التاريخ القديم.

- صعوبة الحصول وكذلك التعامل مع الوثائق القديمة.

- يضاف إلى ذلك وقوع منطقة الدراسة تحت الاحتلال مما يحول دون إمكانية زيارتها.

بعد هذه المقدمة سيكون تناول الموضوع من خلال فصل تمهيدي وفصول ثلاثة على النحو التالي:

الفصل التمهيدي: مدخل عام: يتم التعرض فيه للمحة تاريخية عن منطق الدراسة (المبحث الأول)، ومدخل في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي قادت إلى ظهور وتبلور النظم السياسية لدى المجتمعات الشرقية القديمة (المبحث الثاني).

الفصل الأول: الإيكولوجيا وثنائية التقبل والعنف: يُكرسه لمحاولة إبراز مدى تأثير الإيكولوجيا في تحديد ملامح النظام السياسي، وذلك من خلال تحديد مفهوم الإيكولوجيا وعناصرها (المبحث الأول)، ثم التعرض للمدارس والاتجاهات الكبرى التي تناولت دور الإيكولوجيا في تطور الفكر الإنساني (المبحث الثاني)، على أن يتم اختبار فرضية دور العنف الإيكولوجي في تطور الحياة الاجتماعية مع التركيز على الجانب السياسي (المبحث الثالث).

الفصل الثاني: أسس نظام الحكم في الشرق القديم: تحاول الدراسة من خلاله تحديد القواعد النظرية والعملية التي شكلت ملامح النظم السياسية في الشرق القديم عن طريق اختبار فرضية التقبل والعنف، ومدى ما يسهم به كل من العامل الديني والعنف البشري في صياغة شكل النظام السياسي، وذلك من خلال التعرض لأهم النماذج الكبرى للدولة في الشرق القديم؛ الملك الإله في مصر (المبحث الأول)، الملك نائب الإله في بلاد الرافدين (المبحث الثاني)، ونماذج أخرى من الصين والهند واليمن (المبحث الثالث).

الفصل الثالث: تطور النظام السياسي في سومر خلال العهد السومري القديم: وهو مخصص لمعالجة النموذج الذي تتركز حوله الدراسة ألا وهو النظام السياسي

السومري خلال العهد السومري القديم، وذلك من خلال معالجة مختلف الإشكاليات المتعلقة بالنشأة (المبحث الأول)، ثم المراحل التطورية للنظام السياسي السومري خلال هذا العهد (المبحث الثاني).

الخاتمة: وهي مكرسة لمحاولة إبراز النتائج المستخلصة بهدف إعطاء تصور شامل عن موضوع الدراسة.

الفصل التمهيدي

مدخـــل عـــام

المبحث الأول

لمحة تاريخية عن سومر (منطقة الدراسة)

سومر الأرض

تقع بلاد سومر في الوادي الأسفل لنهري دجلة والفرات، وإلى جنوبها وغربها يقع الخليج العربي والصحراء العربية، وإلى الشرق منها مرتفعات عيلام، وكانت المنطقة

التي تقع إلى الشمال من سومر تسمى أكاد. ولم يكن هناك فاصل طبيعي بين سومر وأكاد إلا انه من المصطلح عليه أن الجزء الجنوبي من السهل الرسوبي عند رأس الخليج كان يعرف باسم "سومر" أما الجزء الأوسط فبلاد أكاد والجزء الشمالي بلاد آشور (خريطة 2). ومنذ عصر موغل في القدم أطلق أهل الجنوب الرافدي على بلادهم اسم "كلم kalam" (أي الأرض)، كما جاء اسم البلاد بلفظ "كي ان جي ki en gi" وقد حرفت الكلمة إلى "كنجي" وهي تعني "البلاد" أو "الأرض" ويقصد بها "سومر أو شومر Shumer". وقد جاءت في الكتابات الأكادية والبابلية على هيئة "مات شومريم" (بلاد السومريين)[1]. ويلاحظ أنه في عهد دول–المدن قبل ايناتم لم يظهر لقب عام أو تسمية عامة لكل بلاد سومر ذلك أنه كان لكل مدينة كيانها السياسي والاقتصادي فكانت تظهر في ألقاب الحكام وظل الأمر كذلك حتى ظهرت الحاجة إلى استخدام تسمية تتلاءم والحالة السياسية المصاحبة لمحاولات التوحيد التي عرفتها البلاد السومرية قبل أن تعرف التوحيد التام، فقد تلقب الملوك الأواخر من الفترة السومرية القديمة بلقب "ملوك الأرض" كما أطلق الملوك الأوائل لأكاد على أنفسهم "حكام الأنحاء الأربعة" (أي حكام العالم).

وقد استخدم مصطلح "ميزوبوتاميا" (بلاد ما بين النهرين) للدلالة على المنطقة الواقعة ما بين نهري دجلة والفرات حتى حدود بغداد جنوباً، ويذكر أن استخدام ميزوبوتاميا يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد من قبل الكتاب الإغريق، كما ورد في الكتابات العبرية مصطلح "ادام نهرايم" للدلالة على نفس المعنى (أي بلاد ما بين النهرين). ويذهب البعض إلى أن مصطلح "ميزوبوتاميا" قد يعود بأصوله إلى تسميات قديمة وردت في بعض النصوص المسمارية الأكادية على هيئة "بيريت نارم Biritnarim" أو "مات بيرتم mat birtim" أو "بيريتوم Biritum" التي تعني "بين النهرين"[2]، غير أن تسمية ميزوبوتاميا أو بلاد ما بين النهرين ما فتئت أن أصبحت

---

[1] طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1، منشورات دار البيان، بغداد، 1993 ، ص: 9.

[2] هاري ساكز، عظمة بابل: موجز حضارات بلاد الرافدين، ترجمة: عامر سليمان، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، 1979، ص: 23.

تشمل كامل أراضي العراق القديم[1]. وعليه ومن خلال ما تقدم بشان التسمية فلعل تسمية "سومر" تصلح لأن تكون التسمية المناسبة لمنطقة الدراسة.

السومريون

لا يزال أصل السومريين يطرح مشكلة اختلف بشأنها الباحثون إلى درجة أصبحت معها تسمى "المسألة السومرية" كما اختلف حول تاريخ دخولهم بلاد ما بين النهرين أو حتى الجهة الجغرافية التي دخلوا منها إلى هذه البلاد. وتركزت الدراسات التي تناولت هذه المسألة على أساس لغوي وبشري، فمن الناحية اللغوية لا تنتمي اللغة السومرية إلى إحدى العائلات اللغوية الثلاثة: السامية والحامية والهندوروبية، كما أنه لم يتم إثبات اتصال اللغة السومرية باللغات المعروفة الأخرى كالدرافيدية والصينية مثلاً. بيد أن ذلك لم يمنع العلماء من تقديم بعض الافتراضات التي تحاول تلمس مواطن الشبه بين السومريين وبين بعض العناصر الأخرى ولو كان ذلك في المجال الفكري أو المادي.

هناك وجهة نظر ترى أن السومريين ينحدرون من الأقوام التي كانت تقطن العراق في عصور ما قبل التاريخ، وقد عرفوا باسم "السومريين" نسبة إلى الجزء الذي تمركزوا فيه وهو القسم الجنوبي الذي يسمى "سومر"[2]، ولعل في وجهة النظر هذه ما يجعلها تكون أقرب إلى الواقع، إذ يمكن عن طريقها الربط بين الحضارة السومرية التي

---

[1] العرق : حول أصل كلمة "عراق" اختلفت آراء الباحثين فمنهم من رأى أنها ذات أصل عربي بمعنى "الشاطئ" أو "جرف الجبل"، فيما ذهب البعض إلى أنها ذات أصل فارسي بمعني "الساحل" وأن كلاً من "عراق" و"إيران" مشتقتان من أصل واحد "إيراك"، ويرى البعض الآخر أنها قد تكون مشتقة من الجذر الذي اشتقت منه أسماء عدد من المدن العراقية القديمة مثل أوروك ولرك وبذلك تكون تسمية "عراق" ذات أصول عراقية قديمة، وورد في نصوص العهد البابلي الوسيط (الكاشي) ذكر إقليم على هيئة "أريقا". وعموماً فقد شاع استخدام مصطلح "العراق" منذ القرن الخامس والسادس الميلاديين للدلالة في بداية الأمر على الجزء الشمالي من العراق الحديث ثم امتد بعد ذلك ليشملالأجزاء الأخرى. هاري ساكز، المرجع السابق، ص: *24*.

[2] جورج رو، العراق القديم، ترجمة وتعليق: حسين علوان، مراجعة عبد الواحد علي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، بغداد، *1986*، ص: *119*. خزعل الماجدي، متون سومر، الكتاب الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، عمان . الأردن، *1998*، ص: *34*، *35*.

ازدهرت في عصر فجر السلالات وبين أصولها العائدة إلى عصر ما قبل الأسرات، أي أن السومريين استمرار للعُبيديين. ويرى بعض الباحثين أن هناك استمرارية قوية بين ثقافتي جمدة نصر وأوروك، بل وأكثر من ذلك فقد لاحظوا أن هناك بعض الاستمرارية في بعض الأمور بين ثقافة أوروك وثقافة العُبيد الأكثر اختلافاً، يظهر ذلك من طرز المعابد وربما الطقوس، ولكن يبرز الاختلاف هنا حول ما إذا كان طور أوروك يمثل مجيء السومريين وتوغلهم في بلاد متمتعة بحضارة العُبيد الزاهرة أم أنه مجرد دور ضمن حضارة العُبيد ذاتها[1]. وهناك من يرى أنهم جاءوا من المرتفعات الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي من بلاد مابين النهرين من إيران وأرمينيا[2] مع إمكانية استبعاد أرمينيا على أساس أنه من المستعبد أن يهبط المهاجرون منها ويتجاوزون المناطق الصالحة للاستيطان القريبة منها في شمال العراق إلى الأجزاء الجنوبية التي كانت أطرافها لا تزال حينذاك وحشية الطابع، ويدعم فرضية الأصل الجبلي صلة بعض الأرباب السومريين بدنيا المرتفعات. ويقال أحياناً عن السومريين أنهم عندما انحدروا أصلاً من منطقة جبلية رغبوا في مواصلة عبادة آلهتهم على أمكنة عالية، ولذلك كانوا يشيدون لها المعابد في أماكن مرتفعة من السهل[3]. ويذهب صمويل كريمر إلى أن السومريين اندفعوا أصلاً مما وراء القوقاز أو مما وراء بحر قزوين إلى غرب إيران فيما يعاصر أيام العُبيد أو أوائل الوركاء، ونجحوا في اقتباس حضارة بلاد مابين النهرين التي امتدت منها . على حد رأيه . عبر حدود إيران. وفي الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد إلى جنوب العراق وسيطروا عليه تدريجياً خلال فترة من فترات حضارة أوروك وتم اندماجهم في السكان الأصليين[4]. ويفترض رأي آخر أن السومريين هاجروا من

---

[1] جان كلود مارغرون، السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية، ترجمة: سالم سليمان العيسي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، *1999*، ص: *106*. هاري ساكز، المرجع السابق، ص: *51*.

[2] ول ديورانت، قصة الحضارة، م*1*/ج*2*، ترجمة: زكي نجيب محمود، جامعة الدول العربية، مطابع الدجوي، ط*4*، القاهرة، *1973*، ص: *16*.

[3] هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة: ميخائيل خوري، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص: *70*.

[4] صمويل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة: طه: باقر، تقديم: أحمد فخري، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الحاجي بالقاهرة، *1957*، ص: *164*.

منطقة تقع في شمال الهند وبين افغانستان وبلوخستان إلى إيران التي استقروا في غربيها قبل أن ينزحوا منها إلى بلاد ما النهرين عن طريق الخليج العربي وجزره، ويدعم أصحاب هذا الرأي فرضيتهم بما يلاحظ من تشابه أوائل طرز وزخارف الفخار السومري القديم مع نماذج هاربا وموهنجو-دارو، مما يوحي بروابط جنسية وحضارية بدائية قديمة بين أهل هذه النواحي الذين سبقوا الأجناس الهندوروبية في سكناها وبين السومريين[1]. ومهما تكن درجة الاختلاف بين الباحثين فيكاد يكون ثمة اتفاق على أنهم فعلاً مهاجرون، وأن دخولهم جنوب بلاد الرافدين كان من الشمال والشرق لكن متى كان يا ترى ذلك الدخول؟.

لقد تعددت وجهات النظر حول ما يتعلق بتاريخ دخول العناصر السومريه واستقرارها في جنوب العراق. يرى البعض أن السومريين كانوا أول من سكن جنوب العراق، ويعتمد أصحاب هذا الرأي على التشابه الحضاري الملاحظ. بين ثقافة العُبيد والمراحل التي سبقتها. فيما يتجه البعض إلى الاعتقاد بأن دخول السومريين كان عند نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وحسب كريمر أن هذه الهجرة قد سبقت مباشرة ظهور الكتابة في جنوب العراق، ويتجه رأي ثالث إلى أن هذه الهجرة قد حدثت في عصر حضارة العُبيد وذلك ما بين 4000 - 3500 ق.م. ومهما يكن الخلاف بين الباحثين حول أصل السومريين والموطن الأول لهم فنستطيع أن نخلص من خلال آثارهم إلى أنهم كانوا قوماً قصار القامة ممتلئي الجسم لهم أنوف شم مصفحة وجباه منحدرة قليلاً إلى الوراء وعيون مائلة إلى أسفل وكان كثير منهم ملتحين وبعضهم حليقين (شكل1 وشكل2). لقد عاش هذا الشعب في جهة ما من وادي الرافدين في ما قبل التاريخ وتولوا خلق أولى المدينات في وادي الرافدين واخترعوا أولى النماذج الكتابية المعروفة عبر التاريخ.

---

[1] أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم، تاريخ العراق . إيران . آسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، *1997*، ص: *162*.

التحول إلى العصر التاريخي في سومر

من خلال ما قدمته الدراسات الآثارية التي جرت في السهل الرسوبي تبين أنه في نهاية الألف الخامس قبل الميلاد وبداية الألف الرابع قبل الميلاد انتشرت قرى زراعية صغيرة في الجزء الجنوبي من هذا السهل، وأخذت تمتد شمالاً، واحتل بعض المستوطنات مركزاً رئساً بين باقي مجموعات القرى الأخرى. فشكلت هذه المراكز النواة الأولى لدويلات المدن. وظهور المدينة–الدولة في سهل سومر . كما سنرى لاحقاً . يعتمد في أهم عوامله على الظروف الجغرافية، والدراسات التي تناولت هذا المجال تشير إلى أن الظروف المناخية للمنطقة لم تتعرض للتبدل طيلة سبعة آلاف عام[1]. لقد كانت منطقة سومر بمثابة مستنقع غاب تغطيه البحيرات المليئة بالأعشاب، حيث كان الناس حينها يعيشون في ظروف قاسية في الجزر وعلى ضفاف البحيرات.

ومع التطور في وسائل التقنية الحجرية النيوليثية، ومع التحول التدريجي إلي استخدام المعادن تمكن السكان من السيطرة على تلك البيئة. ويعتبر تاريخ الاستيطان في جنوب العراق متأخراً نسبياً إذا ما قورن بمناطق أخرى من الشرق الأدنى، مثل التجمعات التي كشف عنها موقع أريحا في الوادي الأسفل لنهر الأردن الذي ترجع بداية تاريخ الاستقرار فيه إلى حدود 9500 ق.م. وكان لموقع أريحا فنه المعماري الملاحظ فقد أحيط هذا الموقع بجدار حجري يبلغ طوله الميل ونصف الميل بسمك ستة أقدام شيد على أبراج يبلغ ارتفاعها ستة وعشرين قدماً، وشيدت المساكن بشكل يجعلها أشبه بالقباب من الطين أو الحجر، وخارج السور وعلى حافته حفرت قناة يبلغ عرضها ثمانية وعشرين قدماً بعمق سبعة أقدام تأميناً دفاعياً ثانياً بجانب السور. وهناك أيضاً موقع شطال هيوك المقدر عمره بحوالي 8000 سنة، وكان بمثابة مركز ديني وتجاري مرموق؛ شيدت المساكن في هذا الموقع بطريقة تجعلها متلاصقة من الأخشاب

---

[1] نراجع بهذا الصدد: فؤاد سفر، "البيئة الطبيعية القديمة في العراق"، سومر، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق، ص: *1 . 11*، المجلد *30*، بغداد، *1974*.

والآجر[1]. عندنا كذلك الموقع الآثاري المسمى "موقع جرمو" في شمال العراق على بعد 35 كلم شرق كركوك، والذي يمثل تطوراً ملحوظاً في فن تشييد دور السكن، حيث شيدت بيوت الطبقات العليا فوق أسس من الحجارة الطبيعية، كما بلغت درجة كبيرة من التقدم في المجال المادي[2]. لكن كل من هذه المواقع لم يتطور إلى المدن الحقيقية التي ميزت عصر المدنية مثلما سيحدث في سومر.

أقدم مستوطن في بلاد سومر هو الموقع الذي أطلق عليه السومريون في ما بعد اسم أريدو (أبو شهرين الحديثة) القريبة من أور إلى الجنوب الغربي منها، ويقابل دور أريدو زمنياً فترة حلف وسامراء في الشمال. كان مستوطنو أريدو يؤلفون مجتمعاً زراعياً ولا بد أن الظروف المناخية قد أجبرت هؤلاء على العمل على تصريف المياه وفتح قنوات الري، وكانت لذلك آثار اجتماعية واسعة طالما أن ذلك جعل من الضروري أن يتعاون الأفراد على شكل وحدات أوسع من نطاق العصر الحجري الحديث النموذجية. وبعد ذلك فقد مهدت الطريق لنشوء دويلات–المدن في الألف الثالث قبل الميلاد. ويعتبر البعض ثقافة أريدو مجرد الطور الأول من حضارة العُبيد التالية[3]. ويمثل طور العُبيد (خلال الألفية الخامسة و الرابعة قبل الميلاد) طوراً جديداً ومهماً في تاريخ ما قبل التاريخ في بلاد ما بين النهرين. كان لهذه الثقافة اقتصاد زراعي معتمد على الري، إضافة إلى العديد من الأنشطة الاقتصادية الأخرى التي مارسها العُبيديون. عاش هؤلاء القوم قرب الأنهار بين رأس الخليج العربي جنوباً وهيت وسمراء شمالاً حيث كانوا يبنون المراكب والأكواخ من القصب ويصطادون السمك ويحتفظون بالماشية. وتجري المواصلات بواسطة زوارق ضيقة[4]. وكانت الثقافة العُبيدية أولى الثقافات التي انتشرت

---

[1] أسامة عبد الرحمن النور وأبو بكر يوسف شلابي، تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات، *ALGA* ، فاليتا–مالطا ، *1995*، ص: *671* . *672*.

[2] طه باقر، المرجع السابق، ص: *193* . *197*.

[3] *Michael Roaf, "UBAID Houses and Temples", Sumer, A scientific Journal Issued by the State Organization of antiquities and Heritage in Iraq to publish the Results of Its Activities and other World Relating to Archaeology and History in the Arab World, vol. 43, no. 1-2, Baghdad, 1984, pp. 81-90.*

[4] عدنان مكي عبد الله، "نشأة وتطور القرية في العراق (*6000* . *4000* ق.م)"، سومر، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق، ص: *49* . *61*، المجلد *39*، بغداد، *1983*، ص: *61*.

في جميع أنحاء بلاد الرافدين، وقد قامت العديد من المدن التاريخية المشهورة فوق بقايا قرى من دور العُبيد مثل أور (المقير) ولجش (الهبا) ونيبور (نفر) وأورك (الوركاء) وغيرها، وهناك من يرى أن الثقافة العُبيدية تمثل أولى أدوار الثقافة السومرية التي سوف تزدهر في الألفية الموالية. غير أن عدم سيطرة السومريين على منطقة مماثلة للمنطقة التي انتشرت فيها الثقافة العُبيدية يطرح صعوبة في قبول هذا الرأي.

وتلعب أوروك الدور الأهم في حضارة فجر التاريخ العراقي القديم ذلك لعظم الاختراع الذي حصل في هذا العصر ألا وهو ابتداع وسيلة للتدوين لأول مرة في تاريخ الحضارة، حيث عثر على أولى نماذج الكتابة الصورية في موقع الوركاء الآثاري، و مع أنها كانت صورية إلا أن المرجح أنها لم تكن البداية البسيطة بل لعله سبقتها أطوار بدائية. ومهما يكن فقد تفردت مدينة أوروك بهذا الإنجاز العظيم، وقد وجدت أولى كتابة من النوع الصوري في الطبقة الرابعة من منطقة "اي–انا" (معبد الإله انكي–ايا)[1]، وإذا كان لا يعلم على وجه التأكيد ما إذا كان أول من اخترع الكتابة المسمارية[2] هم السومريون أم هم قوم آخرون سبقوهم في استيطان السهل الرسوبي، فقد اتضح أن اللغة التي دونت بها هذه الكتابة في الدور المعروف بدور جمدة نصر بأنها هي اللغة السومرية. ويعتبر طور جمدة نصر استمراراً مباشراً لطور أوروك السابق و بداية للعصر التاريخي في سومر حوالي 3500 ق.م، وإن كانت لم تصل بعد مرحلة ظهور الدول.

---

[1] طه باق، المرجع السابق، ص: *240*.

[2] الكتابة المسمارية: تمكن السومريون من تطوير الخط البدائي عن طريق استعمال الفخار المصفى إذ كانوا يصنعون منه اللوحات الصغيرة وراحوا يرسمون عليها الإشارات و الرموز بواسطة محراف من قصب ثم يضعون تلك اللوحات في الشمس أو فوق النار لتجف و تقسو فتصبح في مأمن من التلف والتشويه وكانوا يستعملون المحراف بشكل عمودي مما يجعل الخط يظهر بشكل واضح رغم سهولة تحوله إلى مجموعة من الخطوط المتكسرة، وذلك ما جعله يبدو شبه مسامير وزوايا متوالية ولهذا أطلق عليه "اسم الخط المسماري" وظلت الكتابة المسمارية الطريقة المتبعة في بلاد الرافدين وفي مختلف مناطق آسيا الغربية حتى تم اكتشاف الكتابة الألفبائية التي يرجع الفضل في ابتداعها إلى سكان الساحل السوري في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. و للإشارة فقد ظل الخط المسماري مع ذلك يستخدم حتى العصر المسيحي. نراجع: جورج كونتنو، المدنيات القديمة في الشرق الأدنى، ترجمة: متري شماس، *presses universitaires de france que saisje* ، باريس، د.ت، ص: *25 . 28*. نراجع كذلك: *Tom Jones, Paths to the Ancient Past: Applications of the Historical Method to Ancient History, the Free Press, New York, 1967, pp. 65 – 69* .

مما جعله يشكل طوراً متميزاً سمي (العصر الشبيه بالكتابي) أو (شبه التاريخي). وقد كشف عن كتابات هذا العصر في المعبد وليس في المباني الأخرى ولعل في ذلك مغزاه و دلالته على أن المعبد عند ظهوره كان يمثل مركز الحياة الاجتماعية في قرى العصر النيوليثي ثم الخلكوليثي والتي تطورت من العصر شبه التاريخي إلى المدن التاريخية السومرية المشهورة.

المبحث الثاني

مدخل في البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات الشرقية القديمة

النظام السياسي في الشرق القديم إفراز اجتماعي أو بعبارة أخرى فالأوضاع الاجتماعية هي التي بلورت مفهوم الملكية الثيوقراطية في الشرق، لهذا لا يمكن للدارس أن يلج دراستها إلاّ بعد التعرض للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الشرقية القديمة التي أفرزت هذا الشكل من الدول.

لعل من أخطر جملة النتائج المرتبطة بظهور الاقتصاد الزراعي أن تحطمت البنية الاقتصادية التقليدية القائمة على المشاعة الزراعية القروية، وأصبحت ملكية الأرض هي العامل في تراكم رأس المال، ومن ثم كانت أيضاً هي العامل في ظهور تراتبية اجتماعية بين مالك الأرض من جانب وبين الفلاّحين من جانب ثانٍ، وقد رافق هذا التصدّع الذي أصاب المشاعات القروية ظهور الجهاز الحكومي الذي انطلق في بداية الأمر من المعبد أو أنه انحاز إليه منذ البداية ليكسب سلطاته نوعاً من الهيبة والقدسية، فأصبحت الطبقة المتحكمة اقتصادياً هي المسيطرة سياسياً وروحياً، وهكذا

يكون النظام الاجتماعي الطبقي مبنياً على أساسٍ اقتصادي تدعمه الممارسة الإيديولوجية والسياسية في آن واحد.

والتعرض للنظام الاجتماعي في الشرق القديم ممكن من خلال التعرض لتلك المقولة التي شغلت بال الكثير من المفكرين والباحثين ألا وهي مقولة "نمط الإنتاج الآسيوي". يفترض ماركس . والكلام منقول عن موريس غودلييه في بحثٍ تحت عنوان "الماركسية أمام مشكلة المجتمعات الشرقية". أنه بالنظر إلى أن الفرد لدى البدائيين لا ينتج الشروط الموضوعية لإعادة إنتاجه وإنما يتلقاها من انتمائه إلى مشاعة لها وجودها المسبق ولا دخل له في خلقها وإن كانت هي التي تضمن له وسائل المعاش، فلا مفر من أن تتطور الفكرة القائلة بأن الشروط الموضوعية لوجوده ولوجود المشاعة هي من أصل طبيعي أو إلهي ولا تمت إلى التاريخ بصلة. وفي هذا السياق الإيديولوجي يمكن أن تتطور الفكرة القائلة بأن الشروط الموضوعية لبقاء المشاعة وبالتالي لوحدتها منوطة بالسلطات الاستثنائية والهيبة التي يتمتع بها بعض أعضائها أو شخصية خيالية ذات كنه إلهي أو ميتافيزيقي، وفي الحالة الأولى تتجسد وحدة المشاعة مباشرةً في شخصٍ واقعيٍ، وفي الحالة الثانية تتجسد مباشرة في كائنٍ وهميٍ وبصورة غير مباشرة في الشخصية الواقعية لأعضاء المشاعة من كهنة وزعماء أسر يتمتعون بامتياز رهيب؛ امتياز خدمة ذلك الواقع الخيالي وبالتالي حماية المصالح الحيوية للمشاعة. وفي كلتا الحالتين تكون الإيديولوجيا هي الوسيط الضروري الذي يبرر . مثالياً . وجود تراتب اجتماعي وتفاوت في الحقوق والواجبات. ومع ظهور الدولة لم تعد المشاعة ملكاً لأصحابها بل ملكاً للدولة التي لم تحل الروابط البدائية بين الفرد ومشاعته، وآنذاك ساد الوضع الذي عبرت عنه مقولة ماركس الشهيرة "عبودية الشرق المعممة التي لا تمثل من عبودية حقاً إلا من وجهة النظر الأوربية[1]. ورغم وجاهة الافتراضات النظرية التي قدمها ماركس بشأن أسلوب الإنتاج الآسيوي إلا أن ما قام به الباحثون بعد ذلك من

[1] مجموعة مؤلفين, نمط الإنتاج الآسيوي، ترجمة : جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، *1978*، ص: *135*.

إسقاطات لهذه العناصر النظرية على المعطيات التاريخية بطريقة قد لا تكون دقيقة أدّت ببعض الباحثين إلى إعادة النظر في كيفية تحليل مفهوم نمط الإنتاج الآسيوي بما يتلاءم والمعطيات التاريخية.

يقول جان شينو "إن نمط الإنتاج الآسيوي لمقولة يجب تحديدها بالنسبة إلى الإنتاج ذاته، وينبغي أن تعبر عن العلاقات الاجتماعية المخلوقة تلبية لحاجات الإنتاج، قانونه الأساسي لا يمكن أن يظهر لا على مستوى تقنيات الإنتاج ولا على مستوى المقتضيات الجغرافية (الري وجفاف المناخ) ولا على مستوى التنظيم الاجتماعي والسياسي (الأرستقراطية القبلية، البيروقراطية) وإنما على مستوى الإنتاج عينه. إن نمط الإنتاج يتطلب في آنٍ واحدٍ تنظيماً تقنياً للعمل وشكلاً للتعاون وتنظيماً اجتماعياً للعمل، وشكلاً من أشكال الإكراه الاجتماعي. وإذا ما نسقنا الملاحظات التي أبداها ماركس بهذا الخصوص وجدنا أن نمط الإنتاج الآسيوي يتميز بالجمع بين النشاط الإنتاجي الجماعي للمشاعات القروية وبين التدخل الاقتصادي لسلطة دولة تستغل تلك المشاعات وتحكمها في آنٍ واحدٍ"[1]، أي أن شينو بهذا التعميم لمفهوم "نمط الإنتاج الآسيوي" يعتبره . على غرار العديد من الكتاب الماركسيين . تركيباً مزدوجاً لجملة من العناصر والممارسات (اقتصادية وسياسية وإيديولوجية)، يقول أسامة النور معلقاً على ما طرحه شينو أعلاه، أن توسع مفهوم أسلوب الإنتاج الآسيوي بهذه الصورة التعميمية الشمولية الناتجة عن عدم إدراك العلاقات الإنتاجية والتقسيم الاجتماعي للعمل التي تشكل الأساس الفعلي للبنية الطبقية يعتبر تجريداً للمفهوم من محتواه الفعلي كأداة تحليلية "مثل هذه المحاولات لا تعني شيئاً في الواقع سوي تبسيط تجريدي للسمات المميزة لأسلوب الإنتاج الشرقي واختزالها فقط في ما يميز أول بادرة لظهور الدولة والطبقات الحاكمة في مجتمع ما زال يقوم في الأساس على قاعدة المشترك القروي"[2]. فإعادة تركيب نمط الإنتاج الآسيوي لا

---

[1] المرجع نفسه، ص: 37.

[2] أسامة عبد الرحمن النور، محاضرات في التاريخ الثقافي القديم للبشرية، مذكرة لطلاب الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامعي 2004/2003، ص: 82.

بد فيها من تحليل أسلوب الإنتاج الذي ساد في التركيبات الاجتماعية الشرقية القديمة وعلاقته بالأوجه الأخرى كالتداول والتوزيع ..إلخ. على هذا يطرح أسامة النور تصوره عن الطريقة التي يجب إتباعها في تناول أسلوب الإنتاج الآسيوي حيث يرى أن الانطلاقة المبدئية لا بد أن تكون من خلال تناول البنية الاقتصادية كنظام، وأن يُدرس التركيب التفصيلي لهذه البنية في إطار التركيبة الاجتماعية وأن تستخدم المفاهيم التجريدية الأساسية للمنهجية العلمية بدلاً من تطبيقها ببساطة على عمليات الإنتاج المختلفة، حيث أن أسلوب الإنتاج لا بد وأن يتم تحليله بوصفه بيئة تسود فيها علاقات الإنتاج على قوى الإنتاج، بحسبانه بنية تفرض فيها علاقات الإنتاج تطوراً محدداً لقوى الإنتاج. فبدلاً من إنشاء صرح التحليل انطلاقاً من الإصرار على وجود التناقض بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، فإنه من الأجدى البدء في تحليل النماذج المحددة للتطور والتي تفرض علاقات إنتاج محددة على القوى الإنتاجية في مختلف أساليب الإنتاج، يقول أسامة النور "في التركيبات الاجتماعية الشرقية القديمة ينظم الإنتاج في عمليات العمل على قاعدة المشترك القروي، وتتكون وحدة الإنتاج من أفراد العائلة الواحدة أو تركيب لعدة عائلات تكون تلك المشتركات محدودة مبدئياً في إطار إنتاج المواد الخاصة باستهلاكها الذاتي"[1]، أما فيما يتعلق بتنظيم الإنتاج في تقسيم العمل فإنه في الغالب ما يكون شبيهاً إلى حد ما للوصف الذي أعطاه هيجل لنظام المشتركات القروية في الهند فيما يتعلق بالملكية الخاصة فإن للبراهمة ميزة كبرى هي أنهم لا يدفعون ضرائب ويحصل الأمير على نصف دخل الآخرين والنصف الباقي عليه أن يكفي تكاليف الزراعة ومؤونة العاملين فيها.. ويقسم الدخل الذي يدخل لأية قرية كله قسمين أحدهما يخصص للأمير (الراجا) والقسم الآخر للمزارع كما أن هناك أنصبة متناسبة تتوزع على: عمدة المكان، والقاضي، ومراقب المال، والبراهمي الذي يشرف على شؤون العبادة، والمنجم (الذي هو كذلك أحد أفراد البراهمة وهو يعلن عن أيام السعد وأيام النحس)، والحداد، والنجار، والرجل الذي يجمع الملابس لغسلها، والحلاق، والطبيب، والراقصات

---

[1] المرجع نفسه، ص: 87.

من الفتيات، والموسيقي، والشاعر[1]. فالتنظيم الاقتصادي في مجتمعات الشرق القديم ينحصر في نطاق العائلة التي تسعى إلى إشباع حاجاتها الذاتية، وهو أمر محكوم بعملية التوازن بين احتياجات العائلة نفسها وبين حجم الكد والعناء اللازمين للعمل، وهذا ما يعني بقاء الإنتاج في حدود الاكتفاء وعدم النزوع إلى استغلال المزيد من الأراضي الزراعية ومراكمة رأس المال.

ومع تطور أسلوب الإنتاج الآسيوي الزراعي والحرفي يتحطم المشترك القروي بالشكل الذي يكفل إنتاج القيم الاستعمالية للاستهلاك المباشر إلا أن زيادة الإنتاج على مستوى البضائع من أجل التبادل مع المشتركات القروية الأخرى أو مع التركيبات الاجتماعية الأخرى، وفي كلتا الحالتين تجد الدولة مبرراً لتدخلها فتلجأ إلى احتكار عمليات التبادل وكذلك عملية إنتاج وتنظيم المحاصيل الزراعية، وهكذا يتم تجاوز نمط المشتركات القروية ويتم التحول إلى الاقتصاد النقدي وتصبح الدولة هي المتحكمة في مختلف العمليات الاقتصادية من قبل مؤسساتها الخاصة، فأصبحت الدولة تلعب دوراً فاعلاً في عملية الإنتاج؛ عن طريق تشييد منشآت الري، وتنظيم الدورات الزراعية، وتخزين المنتوج. والملاحظة المهمة هنا أن الدولة في الشرق القديم عندما استحوذت على العمل الفائض للمشتركات القروية في شكل ريع عيني فإن ذلك يعني قيام الدولة بإعادة الشروط المسبقة للإنتاج القروي نفسه أي أنها لم تقض عليه بصورة نهائية، وذلك طبعاً خدمة لأهدافها السياسية والإيديولوجية. وقد أفرز هذا الشكل من الإنتاج في مختلف مدنيات الشرق القديم، من مصر غرباً حتى الصين شرقاً، شكلاً من التراتبية الاجتماعية يتصدر مركز القمة فيه الملك وطبقة من البيروقراطيين فيما يحتل السواد الأعظم من الشعب (أي العامة) القاعدة الواسعة للهرم الاجتماعي، وقد سخرت الإيديولوجيا لتكريس هذا الواقع واستمراريته.

---

[1] المرجع نفسه، ص: 87.

كان النظام الطبقي في الشرق القديم على أجلى صوره في الحالة الهندية؛ البراهمة (رجال الدين) والكشاتريا (المحاربون) في رأس الهرم الاجتماعي، ثم الفيسياس (الفلاحون والحرفيون والتجار)، ثم السودرا (الأجراء والخدم والأرقاء)، وأخيرا الباريا (المنبوذون). صورة لا تختلف كثيرا عما نصادفه بالنسبة للحالة في بلاد الرافدين السومرية والبابلية والآشورية، وفي مصر الفرعونية، وفي الصين التشانجية والتسينية، وفي سبأ وغيرها من ممالك اليمن الجنوبي؛ الملك ورجال الدين في القمة بعد ذلك تأتي الطبقات الأدنى، ففي بلاد الرافدين تؤكد التشريعات على وجود تراتبية اجتماعية، حيث قسمت شريعة حمورابي (التي تمثل أرقى حالة من التطور في مجال التشريع في الشرق القديم) المجتمع البابلي إلى ثلاثة طبقات: الأميلو، والموسكينو، والأردو. فالأميلو هو الأرستقراطي المنتمي إلى أسرة أرستقراطية، ويكون ميلاده وزواجه وموته مسجلاً، وله أملاك من أسلافه، وله كافة الحقوق المدنية، وله امتيازات وعليه واجبات أرستقراطية، وله حق الانتقام للإصابات الجسدية، وينتمي إلى هذه الطبقة الملك وكبار الموظفين والمتخصصون والحرفيون. أما الموسكينو فهم الفقراء الأحرار، وهي طبقة لا تتمتع بكثير من القيم. أما الأردو فهم العبيد الخاضعون لأسيادهم. كانت الأرض ملكاً للإله ومن ثم فهي ملك لنائبه الملك، وكان المواطنون يشتغلون فيها إما مستأجرين يدفعون مستحقات الإيجار في شكل ريع عيني أو نقدي، أو بوصفهم يقومون بأعمال السخرة[1]. وفي مصر وعلى الرغم من غموض المصادر المصرية عن طبيعة التقسيم الاجتماعي الذي كان سائداً فلا شك أن السواد الأعظم من الشعب كانوا فلاحين وعمالاً حرفيين[2]، فهم الأيدي الضرورية التي لا تبقى للأرض قيمة بدونها، والفلاحون مرتبطون بحقول الملك، ومن المرجح أن أعمال تشييد السدود والأقنية كان يتطلب أعمال السخرة، إذ تشير النصوص المعروفة باسم "هجاء المهن" إلى ما عاناه الفلاح المصري على أيدي رؤسائه، إذ جاء

---

[1] نراجع بهذا الخصوص: أسامة عبد الرحمن النور، دراسة تحليلية لمواد تشريع حمورابي مؤشرا لإعادة تركيب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع البابلي، محاضرة لطلاب الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامعي، 2005/2004.

[2] *Charles Alexander Robinson, Ancient History from Prehistoric Times To the Death of Justinian, the macmillan company, Second Edition, London, 1969, PP. 59 - 64.*

في أحدها بعد أن تعرض النص للمعاناة الناجمة عن قساوة الطبيعة وما تلحقه من أضرار بالزراعة مصدر عيشه "...حينئذ يضربونه مطروحاً على الأرض ثم يوثقونه بالحبال ويلقون به في القناة فيغوص في الماء ورأسه أسفل ويحرك يديه على غير هدىً ثم توثق امرأته بالحبال أمام ناظريه ويكبل أولاده بالسلاسل فيتخلى عنه جيرانه..."[1].
وفي الهند كانت طبقة البراهمة ذات امتيازات أكثر من سواها، كان أفرادها معفيين كلياً من الضرائب ومحررين من أعمال السخرة، وكان لا يمكن إلحاق العقوبات الجسدية بهم، وبموجب القوانين الهندوسية كان البرهمي البالغ من العمر تسع سنوات يعتبر أباً لكشاترياً ولو كان هذا الأخير في السبعين من عمره، وفي زمن السلم كان الكشتريا يعيشون حياة كسل متلقين هدايا الملوك الثمينة، وكان الفيسياس يشكلون طبقات مستثمرة (بفتح الميم)، وكان فلاحو القرى يدفعون إلى الخزينة ضريبة تصل أحيانا إلى (6/1) من المحصول، والتجار يدفعون (5/1) من أرباحهم، وكان وضع السودرا هو الأكثر مشقة وصعوبة، ولم يكن أفراد هذه الطبقة يتمتعون بأية حقوق، ولم يكن لديهم سوى التزامات وواجبات، فالشخص من الطبقات العليا يقتل شخصا من السودرا لا يدفع سوى غرامة مساوية لغرامة قتل كلب[2].

ولعل تعبير وليم هاولز في إطار مقارنته بين المجتمع السومري والمجتمع المصري أحسن صورة لهذا النظام الاجتماعي التراتبي "وإذا أمكن لنا أن نشبه المجتمع السومري المبكر بزيقورة[3] بحيث يحتل المعبد أو الملك منها موضع قالب الطوب الصغير الذي يمثل القمة، وتشغل طبقات النبلاء والأشراف وذوو الحيثية موضع القوالب التي تليه إلى الأسفل، بينما يحتل عامة الشعب مكان أكبر هذه القوالب عند القاعدة.

---

[1] وليم هاولز، ما وراء التاريخ، ترجمة وتقديم: أحمد أبو زيد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، *1984*، ص: *460*.

[2] جماعة من المؤرخين السوفيات، موجز تاريخ العالم، م*1*/ج*1*، إشراف: البروفسير مانفرد، ترجمة: محمد عيناتي، بيروت، *1989*، ص: *37*.

[3] الزقورة: عبارة عن برج عال يكون على شكل هرم مدرج، أو رابية تبنى على شكل مصاطب بحيث تبدو أشبه بعدد من الصناديق المصفوفة إحداها فوق الأخرى، ويشيد في قمتها معبد صغير أو بيت للإله.انطوان مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب توفيق سليمان وعلي أبو عساف وقاسم طوير، مطبعة الإنشاء بدمشق، *1967*، ص: *34*.

فإنه يمكن تشبيه المجتمع المصري المبكر بالمسلة حيث يوجد العمود المركزي الذي يشمل الفرعون والحكام والذي يرتفع عالياً من القاع أو القاعدة التي تحتلها بقية السكان"[1]. وقد أدى تصاعد وتيرة التراتب الاجتماعي في كم الثروة إلى سقوط أفراد المشاعات الفلاحية في قيود الديون التي أخضعتهم لأنواع من القسر الاقتصادي ولعلاقات إنتاج توضع أساساً لانتزاع الفائض من المنتجين وهذا نوع من العنف الرمزي. فالصراع بين المنتجين الفعليين (الفقراء) وبين الأغنياء المنتزعين للفائض (البيروقراطيين) تمت تغطيته بسيطرة الدولة المتمركزة حول شخص الملك الأوحد الذي يعتبر تجسيداً حياً للإله، سعياً لتدعيم السيطرة على الفقراء، وتكريس الطبقية الاجتماعية، فتم إنشاء تعاليم تضفي القدسية والطابع الإلهي على السلطة. وقد اختلف ذلك من منطقة لأخرى إذ نجد الملك في مصر يرتقي إلى مصاف الآلهة، فيما يعتبر نائباً للإله في بلاد الرافدين، وكاهناً في الهند، أما في الصين فقد تلقب "ابن السماء"، وفي اليمن حمل الملك لقب "المكرب" أي المقرب من الآلهة.

---

[1] وليم هاولز، المرجع السابق، ص: 460.

الفصل الأول

الإيكولوجيا وثنائية العنف والتقبل

المبحث الأول

مد خل إيكولوجي

أولاً – مفهوم الإيكولوجيا وعناصرها

الإيكولوجيا (Ecologie) مصطلح علمي إغريقي الأصل، يتألف من الناحية الاشتقاقية من مقطعين: Oicos وتعني المسكن أو الموطن وLogos وتعني علم، وترجمت إلى العربية بعبارة "علم البيئة"[1]. وقد وضع المصطلح العالم الألماني آرنست هيكل (1834 – 1919) Ernest Haecel، وعرفها بأنها "العلم الذي يدرس علاقة الكائنات الحية بالوسط الذي تعيش فيه"[2]. وعلى العموم فالإيكولوجيا كدراسة علمية تهتم بالشبكة المعقدة من العلاقات بين النباتات والحيوانات والمحيط الذي تحيى فيه[3]، وانطلاقاً من أن الإنسان حيوان فلعله من الممكن تفحص تاريخه في السياق البيئي أي في البيئة الطبيعية.

ويقصد بالبيئة الطبيعية كل ما يحيط بالإنسان من ظاهرات حية وغير حية وليس للإنسان أي دخل في وجودها، وتتمثل هذه المعطيات البيئية في البنية الجيولوجية والتضاريس والتربة والمناخ والنبات الطبيعي والحيوانات، وهي معطيات إن كانت تبدو مستقلة عن بعضها إلا أنها ليست كذلك في واقعها الوظيفي، فهي في حركة دائبة دائمة من ناحية، وحركة توافقية مع بعضها البعض من ناحية ثانية ضمن نظام معين يسمّى"النظام البيئي Eco-system"[4]. وتختلف البيئة من منطقة لأخرى تبعاً لطبيعة المعطيات المكونة لها، فمن خلال عنصر واحد من العناصر البيئية نستطيع أن نقسم البيئة الطبيعية إلى عدد من البيئات المتباينة؛ فبالاعتماد على التضاريس مثلاً يمكننا

---

[1] دينيس أوين، البيئة وقضاياها، ترجمة: أحمد مستجير، مركز النشر بجامعة القاهرة، *1981*، ص: *3*.

[2] أحمد رشيد وهناء الحسن رشيد، علم البيئة، معهد الإنماء العربي، فرع لبنان، طبعة جديدة، بيروت، *1981*، ص: *5*.

[3] دينيس أوين، المرجع السابق، ص:*3*.

[4] زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان: علاقات ومشكلات، منشأة المعارف، الإسكندرية، *1981*، ص:*7* .

التمييز بين البيئات المرتفعة (الجبلية والهضبية) وبين البيئات المنخفضة (السهلية والحوضية)، ومن خلال المناخ أو أحد عناصره كالحرارة نستطيع أن نميز بين البيئات الحارة والمعتدلة والباردة، أو كالتساقط فنميز بين البيئات الرطبة وشبه الرطبة والجافة وشبه الجافة[1]. وأهم العناصر التي تتألف منها البيئة الطبيعية هي:

الموقع: لكل بيئة موقع معين يكسبها مواصفات خاصة ويميزها عن غيرها من البيئات الأخرى، وكما هو معروف ينقسم الموقع إلى نوعين: موقع فلكي هو الذي تحدده دوائر العرض وخطوط الطول وهو موقع قيمته ثابتة لا تتغير ويتمثل أثره في كونه يؤثر على مناخ البيئة، وموقع جغرافي يقصد به العلاقات المكانية للبيئة بالنسبة لما يحيط بها من بيئات متاخمة أو متباعدة وهو موقع متغير تتحدد قيمته وأهميته تبعاً لما يحدث من تغيرات تؤثر على العلاقات المكانية، فقد يكون الموقع الجغرافي ميسراً أو معسراً وقد يكون مفتوحاً أو مغلقاً أو منعزلاً وقد يكون ذا أهمية إستراتيجية أو محدود الأهمية.

البنية الجيولوجية: وهي تختلف من بيئة لأخرى تبعاً لاختلاف العوامل التكوينية التي أسهمت في بناء صخورها، ويختلف تركيب الصخور من حيث النشأة والأهمية، فبالنسبة للبيئة التي يتيح لها تركيبها الجيولوجي توفر المعادن وأحجار البناء مثلاً تختلف في أهميتها عن غيرها، وبالنسبة للبيئات الجافة وشبه الجافة التي تعاني من ندرة المياه تتضح أهمية البنية في مدى توفر المياه الجوفية التي تتركز عادة في مناطق الصخور الرسوبية[2].

التضاريس: ويقصد بها أشكال سطح الأرض التي تتفاوت بين الجبال والهضاب من ناحية والسهول والوديان من ناحية ثانية، وتمثل الجبال والهضاب كمناطق مرتفعة ظاهرات تضاريسية تتسم بخصائص معينة تتميز عن خصائص السهول والوديان كمناطق منخفضة، وهذا ما ينعكس في تفاوت أثرها على الإنسان، ففي المناطق السهلية

---

[1] محمود شاكر، جغرافية البيئات، المكتب الإسلامي، بيروت، *1978*، ص: *16*.

[2] زين الدين عبد المقصود، المرجع السابق، ص: *23*.

يرغب الإنسان في السكن حيث سهولة الانتقال ووفرة الغذاء ويسر الاتصال، لذلك كانت السهول منذ القدم موئلاََ للبشر ومركزاً للاستقرار والتطور الحضاري. والتضاريس تؤثر في سلوك الفرد حيث نجد أهل السهول يحبون الاستقرار وحياة الهدوء والمسالمة نتيجة للارتباط بالأرض وانتظار المحصول، أما أهل الجبال والصحراء فنجدهم أكثر قسوة وانفعالاً وعناداً[1]، فحياة السهول وما تفرضه من حرف وما تتطلبه تلك الحرف من عمل مشترك وتلاحم اجتماعي كحفر الأقنية وبناء السدود وتوزيع المياه، تجعل السكان يألفون التعاون والحياة الجماعية، بينما يميل سكان الجبال إلى حب الأعمال الفردية والانفراد في الرأي.

المناخ: يعتبر المناخ من أكثر عناصر البيئة أثراَ على الإنسان إذ يعتبر في كثير من الأحيان سيد هذه العناصر، ومن المعروف أن مناخ أية بيئة من البيئات هو محصلة لجملة من العناصر المناخية هي الحرارة والضغط والرياح والتساقط، وتتأثر هذه العناصر المناخية بجملة مؤثرات، مما يجعلها تتباين تبايناً شديداً من بيئة لأخرى، وقد أسهم هذا التباين في خلق ما يمكن أن نسميه الأقاليم المناخية أو البيئات المناخية، إذ يمكن أن ينقسم العالم إلى عدد من البيئات المناخية مدارية وجافة وصحراوية ..إلخ. ويظهر أثر المناخ في الإنسان أكثر من أثر أي عنصر من عناصر البيئة الأخرى، إذ يظهر أثره على الجسم واللون وعلى السلوك[2] فالإنسان في المناطق الحارة ذو لون أسود ويميل إلى البياض كلما ابتعدنا عن خط الاستواء، ففي المناطق شديدة الحرارة نجد أن لون الإنسان أسود قاتم وفي الصحاري الحارة أسمر وهكذا إلى أن نجده في المناطق الشمالية أبيض وفي الشمالية الباردة أشقر. وفي المناطق الحارة يكون الأنف أفطس وذو فتحة واسعة ويكون الصدر واسعاَ، بينما في المناطق الباردة يكون الأنف أقنى وذو فتحة صغيرة ويكون الصدر ضيقاَ كذلك، وفي المناطق الباردة نجد أن السكان يغلب عليهم النشاط والحيوية فيما يسود التراخي والملل بين سكان المناطق الحارة.

---

[1] محمود شاكر، المرجع السابق، ص: *16*.

[2] المرجع نفسه، ص: *18*.

التربة: وهي ذلك الغشاء الرقيق الذي يغطي مواضع من السطح، وتتكون من فتات الصخور الذي اختلط خلال الزمن بتكوينات عضوية متحللة، وتختلف في نوعها تبعاً لاختلاف المناخ ونوع الصخور والسطح والمواد العضوية والعمر، وقد تكون التربة في مكان الصخر الأم وقد تنقل من أماكن بعيدة مع المياه أو الرياح. وهناك تقسيمات كثيرة للتربة؛ فمن الناحية الطبيعية تقسم إلى تربة طينية أو صلصالية وهي دقيقة الحبيبات ثقيلة، وتربة طفيلية وهي متوسطة الحبيبات، وتربة رملية وهي تتشكل في الأساس من حبات الرمل خفيفة ومسامية، ومن الناحية الكيميائية تقسم الترابات إلى سوداء وبنية وحمراء، والتربات السوداء أو السمراء تكون غنية بالمواد العضوية المتحللة وهي عادة أغنى التربات[1]. وتعتبر التربة إحدى ركائز الحياة كما هي معروفة على سطح الأرض، وكلما كانت التربة خصبة وعميقة كلما ازداد ازدحام السكان وتكاثرهم لأنها تستطيع توفير الغذاء اللازم وعندما تكون فقيرة يقل السكان ويتناقصون.

الحياة النباتية والحيوانية: وهي جزء لا يتجزأ من البيئة الطبيعية وهي انعكاس للظروف الطبيعية، فلكل إقليم مناخي معين نوع خاص من النبات الطبيعي والحيوان، وكلما تكرر الإقليم المناخي السائد تكرر نوع النبات[2]. ومن النبات والحيوان يستمد الإنسان غذاءه، وقد تكون الحياة النباتية والحيوانية هي المسؤولة عن تحديد أنواع الحرف الرئيسية لدى المجتمع من زراعة وصيد ورعي...، وكثيراً ما يعيق الحيوان نشاط الإنسان سواء تعلق الأمر بالحشرات الضارة التي تفتك بالإنسان في المناطق المستنقعية، أو تعلق الأمر بالحيوانات المفترسة كالأسود والضباع وغيرها التي تنشر الرعب في نفوس الناس إلى غير ذلك من التأثيرات. وأخيراً فإن عناصر البيئة مجتمعة غالباً ما تتوزّع على سطح الكرة الأرضية تبعاً لتوزيع الأقاليم الطبيعية التي ينقسم إليها سطح الأرض.

---

[1] عبد الفتاح محمد وهيبة، جغرافية الإنسان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، *1980*، ص: *8*.

[2] المرجع نفسه، ص: *68*.

ثانياً– الأقاليم الطبيعية:

لعل في مظاهر المناخ ما يمكن أن يُتخذ أساساً في التقسيم النطاقي للعالم، وذلك لما تتوافر في المناخ من الخصائص والفاعلية التي تمكنه من خلق التباين بين أجزاء العالم المختلفة، خصوصاً وأنه عامل متحكم في الحياة النباتية التي تحدد بدورها الحياة الحيوانية، كما يعتبر أساساً فاعلاً في تشكيل التربة التي ينمو عليها النبات والتي يزرع فيها الإنسان حاصلاته الفلاحية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن المناخ هو العنصر الوحيد الذي ما يزال الإنسان عاجزاً عن قهره، وتمايزاته الدقيقة قد تخلق اختلافات حضارية كبيرة. وهكذا فإن المناخ يعد عنصراً هاماً بل أهم عناصر البيئة الذي يمكن الاعتماد عليه في تقسيم العالم إلى نطاقات طبيعية وذلك على النحو التالي:

الأقاليم الاستوائية: وهي المناطق التي تقع في السهول والأحواض المنخفضة بين خطي عرض 5 شمال خط الاستواء وجنوبه، وهذه المناطق تتعامد عليها الشمس مرتين في السنة، ما بين خط الاستواء وكل من المدارين شماله وجنوبه فترتفع درجة الحرارة ارتفاعاً شديداً، وتسمى هذه المنطقة بمنطقة الرهو الاستوائية الغزيرة الأمطار التي تستمر طول العام تقريباً[1]. ويشترك هذا الإقليم في ميزات عامة أهمها ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعاً شديداً وغزارة الأمطار التي تتوزع بانتظام على أشهر السنة. وهذه الظروف ملائمة تماماً لنمو النباتات الكثيفة، وحيث لا يوجد فصل إنبات أو فصل راحة للنبات فالنبات ينمو في أي وقت ويذوي في أي وقت، وتنمو الأشجار العالية الأحراج الكثيفة الأقل ارتفاعاً والنباتات المتسلقة، أما داخل الغابة فمعظمه رطب حار متصاعد الأبخرة مغطى بفروع الأشجار وأوراقها المتساقطة كثير المستنقعات ساكن موحش لا حياة فيه. وأحسن مثالين لهذا الإقليم هما حوض الكونغو في إفريقيا وحوض الآمازون في أمريكا الجنوبية، كما يوزع أيضاً في شمال استراليا وجزر الهند الشرقية وسواحل سيلان، ويطلق على هذه الأقاليم "أقاليم الضعف أو التعجيز"[2] إذ من الصعب على النوع البشري أن يعيش ويزاول

---

[1] محمد السيد غلاب، البيئة والمجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، القاهرة، 1981، ص: 61.

[2] المرجع نفسه، ص: 62.

نشاطه فيها، فقد يجني ويلتقط الثمار وقد تلجأ بعض الجماعات إلى الصيد مثل ما يقوم به الأقزام[1] والفيدا[2] وهذا الإقليم يمثل عقبة كأداء أمام الاستيطان البشري فالبيئة هنا ذات مناخ رطب يحول دون استمرار الإنسان في العمل، والإنسان يجابه بأمراض خطيرة، والمناخ كذلك رتيب يبعث على الملل.

الأقاليم المدارية: وهي المناطق المحصورة بين الإقليم الاستوائي وكل من المدارين شمالاً وجنوباً، وما يميز هذا الإقليم أن السنة فيه لا تنقسم إلى أربعة فصول بل إلى فصلين فقط يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف، فصل مطير وفصل جاف ويختلف طول كل منهما باختلاف البعد من خط الاستواء، فكلما بعدنا عن هذا الخط كلما ازداد طول فصل الجفاف واشتد جفافه[3]. هذا التطرف في الحرارة وفي الجفاف في أحد نصفي السنة يجعل الظروف صعبة وسيئة بالنسبة للزراعة سيما إذا كانت كمية الأمطار الساقطة غير مضمونة مما ينشأ عنه عجز في الكمية اللازمة للزراعة والرعي، وعموماً فهي ليست ثابتة فقد تزيد مياه الأمطار على المتوسط فتحدث الفيضانات العارمة وتحمل التربة وتعريها، وقد تنخفض المياه عن المتوسط فيحدث القحط والجفاف والمجاعة.

ويعتدل هذا الإقليم فيما يختص بجنوب شرق آسيا وشبه جزيرة الهند وبورما، حيث يسود نظام مناخي خاص هو النظام الموسمي، ومن شأن هذا النظام أن تهب الرياح الموسمية الصيفية، وكان من نتيجة ذلك أن لا يوجد إقليم سافانا بمعنى الكلمة في آسيا بل حلّت محله الغابات الموسمية[4] وهي أقل كثافة من الغابات الاستوائية

---

[1] الأقزام جماعات بدائية متنقلة تعيش على الجمع والصيد يوجدون في مناطق الغابات الاستوائية في كل من إفريقيا وجنوب شرق آسيا. وينقسم الأقزام إلى مجموعتين رئيسيتين: أقزام إفريقيا وخاصة أقزام الكونغو، وأقزام جنوب شرق آسيا، وينقسم هؤلاء الأخيرون إلى مجموعات أهمها السيمانج *Semang* في شبه جزيرة الملايو، والاندمانيون *Andmanese* في جزر اندمان، والإيبتا في الفلبين، والتابيرو *Tapiro* في غينيا الجديدة. ويتميز الأقزام ـ خاصة أقزام الكونغو الذين يعتبرون هم الأقزام الحقيقيون ـ بوجه عام بقصر القامة والرأس المستديرة والأنف الأفطس الواسع الفتحة والعيون البارزة والوجه القصير العريض والشفاه الرفيعة. فؤاد محمد الصقار، دراسات في الجغرافيا البشرية، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ت: 68 ـ 169.

[2] الفيدا يتواجدون في سيلان وهم جماعات بدائية تعيش في الكهوف أو في أكواخ بسيطة تبنى من أغصان الأشجار ويعتمدون في حياتهم على صيد الحيوانات وجمع عسل النحل البري. المرجع السابق: ص: 170.

[3] محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص: 63.

[4] علي حسن موسى، جغرافية العالم الإقليمية، دار الفكر، ط1، دمشق، 1998، ص: 43.

ويسمح فصل الجفاف فيها أيضاً بوجود نظام فصلي فيما يختص بنمو النباتات وإثمارها وفصل راحة سنوية، وهذا ما ساعد على نشأة طراز معين من الزراعة في أراضي الدكن الخصبة وسهول الأنهار الكبرى في الهند والصين، وقد أطلق على المناطق الموسمية هذه "أقاليم الوفرة"[1]، حيث تجاري الطبيعة الإنسان وتتنوع المحاصيل الزراعية، ولكنها أيضاً مثل بقية الأقاليم المدارية تعاني من الخطر الذي ذكرناه آنفاً، ذلك أن تذبذب الأمطار بين عام وآخر وعدم وفائها بالكمية المطلوبة من المياه له نتائجه المتباينة، فقد تهب الرياح الموسمية مندفعة قوية تحمل المطر الغزير وتسقطه في فترة محدودة من الزمن فتحطم النبات وتخرّب الحقول وتحدث الفيضانات العنيفة وتغرق القرى، وقد تهب ضعيفة واهنة فلا تحمل ما كان منتظراً أن تحمله من مطر فيصيب الأرض الجدب والقحط، وكلا الأمرين أحلاهما مرٌّ إذ ينذر كل منهما بإطلالة شبح المجاعة، لهذا كان القحط والمجاعات ظاهرات معروفة في الهند والصين خلال تاريخهما الطويل.

الأقاليم الجافة: وهي تطابق تعبير الصحراء فالصحراء تعبير نباتي يعني افتقار الإقليم للحياة النباتية أو الحيوانية، وليس معنى هذا الفقر التام فلاشك أن هناك حياة نباتية وحيوانية في الصحراء ولكنها ليست من الغنى والتنوع حتى تشكل ما يمكن أن نسميه غطاءً نباتياً، وعموماً فهو لا يتعدى الأنواع الشوكية والأعشاب الخشنة المتناثرة في بطون الأودية قرب مواطن المياه الجوفية وفي المنخفضات، وفي ما عدا ذلك فلا تقوم حياة نباتية أو حيوانية إلا حول عيون المياه أو الآبار أو المياه الجارية. وتمتاز الصحراء بأن كمية التساقط أقلُّ من التبخر، وتحدد الصحراء المدارية بأنها التي لا يسقط عليها أكثر من 200 مم من الأمطار[2]. وهناك عادة منطقة بين الصحراء بمعنى الكلمة وبين الأقاليم الرطبة شمالها أو جنوبها، ولذلك كانت الصحراء تكتنفها من الشمال والجنوب أقاليم شبه صحراوية. وأهم نطاق صحراوي في العالم يقع بين خطي عرض 20 و 30 درجة شمال خط الاستواء، ويشمل الصحراء الكبرى وصحراء بلاد العرب

---

[1] محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص: 65.

[2] المرجع نفسه، ص: 66.

والأحواض شبه الجافة في إيران وصحراء ثار في شمال غرب الهند وجنوب شرق آسيا يضاف إلى ذلك أشباه الصحاري في وسط آسيا التي تنتهي في الشرق بصحراء جنوبي منغوليا. أما في نصف الكرة الجنوبي في العالم القديم فلا يوجد نطاق صحراوي كبير بل صحراوات متقطعة ينفصل بعضها عن بعض، وذلك لظروف توزيع اليابس والماء في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، فهناك صحراء كلهاري في جنوب إفريقيا وصحراء أستراليا، أما في العالم الجديد فهناك صحراء أريزونا نيومكسيكو في أمريكا الشمالية وصحراء بتاجونيا وأتاكالما في أمريكا الجنوبية.

الأقاليم دون المدارية: يلاحظ وجود اختلافات ظاهرة بين نصفي الكرة الشمالي والجنوبي حيث يختلف توزيع اليابس والماء، فنصف الكرة الشمالي قاري بينما النصف الجنوبي جزري، وكان لهذا دوره في توزيع حرارة الشمس وترتب عليه أن كان متوسط درجات الحرارة السنوي في النصف الشمالي أكثر ارتفاعاً منها في النصف الجنوبي، وأكثر من هذا فليست لدينا نطاقات منتظمة للضغط الجوي المرتفع أو المنخفض في الأقاليم دون المدارية، ولكنها تتمزق إلى مناطق منعزلة تندفع منها أو إليها الرياح، وهذه الحالة تسود في جنوب إفريقيا وبعض أجزاء الأرجنتين وجنوب تنزانيا في نصف الكرة الجنوبي، أما في نصف الكرة الشمالي فإن هذه الحالة تسود معظم أجزاء أمريكا الشمالية وأوربا وآسيا[1]. وبالرغم من وجود اختلافات عديدة بين كل نوع من أنواع المناخ هذه إلا أنها جميعاً تمتاز بالدفء واعتدال الحرارة بين الصيف والشتاء، وفروق في التساقط بين هاذين الفصلين، ولذلك كانت الطبيعة تعرف لها فصل إنبات وفصل نضوج ثم راحة ولهذا أثره في تنظيم الحياة الاقتصادية وقيام الزراعة المستقرة، ولعل هذا هو ما جعل هذه الأقاليم هي مراكز الحضارات القديمة. ويقع داخل العروض دون المدارية في وسط القارات بين إقليم الغابات المعتدلة في الصين والغابات النفضية في أوربا إقليم تغطيه الحشائش المعتدلة، والسبب في ذلك هو أن الأمطار لا تسقط عليه إلا نزوة في فصل

---

[1] لويسيان فيفر، الأرض والتطور البشري، ترجمة: محمد السيد غلاب، دار المطبوعات الجديدة، *1973*، ص: *178*.

الصيف والساقط منها لا يكفي لنمو الغابات. والمنظر العام لوسط آسيا وجنوب شرق أوربا هو سهول واسعة تغطيها حشائش معتدلة تسمّى الاستبس، وهي تشمل ولا شك إقليم رعاة الخيل المثالية التي انبعثت منها هجراتهم وغزواتهم التاريخية الكبرى مندفعة نحو مراكز الحضارة المستقرة في الصين والهند والشرق الأدنى وأوربا.

الأقاليم الباردة: وهي المناطق التي تتلو نطاق الغابات المعتدلة نحو القطب الشمالي (إذ لا يوجد مناظر لها في نصف الكرة الجنوبي)، ويمتاز هذا النطاق بنمو الأشجار النفضية ثم يتلوها الإقليم البارد الذي يمتاز بنمو الغابات الصنوبرية، وكلما اتجهنا شمالاً كلما تضاءل حجم الأشجار وقصرت إلى أن تختفي تماماً، وتختلف حدود الأشجار والغابات الشمالية من قارة إلى أخرى إذ لا تتساوى في بعدها عن القطب الشمالي حيث تقرب منه قرباً شديداً في أوربا فتنمو أشجار الصنوبر حتى الدائرة العرضية 70 و 71 شمالاً بالقرب من رأس الشمال (North Cap) أما في سيبيريا فهي لاتصل إلا خط عرض 68 شمالاً وفي البرادور لا تنمو وراء خط عرض 57 شمالاً. وفي المناطق الواقعة خلف الحد الشمالي لنمو الأشجار تنتشر الطحالب القطبية تلك هي أصقاع التندرا في أوراسيا وشمال أمريكا الشمالية، إنها أقاليم يخيم عليها البؤس وحياتها النباتية في غاية الإملاق، ولا يسرح فيها إلا العدد الضئيل من حيوانات الرنة التي ترعاها بعض القبائل البدائية الاسكيمو[1] واللابيون[2] مثلاً. وهي كالصحراء لا تعيل إلا عدداً قليلاً من البشر، وهذا النطاق هو الذي يسمىّ "أقاليم الجوع"[3] يعيش الناس فيها على صيد

---

[1] الاسكيمو جماعة بشرية متميزة سلالياً ولغوياً يعيشون في المنطقة القطبية التي تمتد من شرق جرينلند وعبر شمال كندا وألاسكا إلى سيبيريا ، وينتمي الاسكيمو من الناحية الجنسية إلى المجموعة المغولية حيث يرتبطون سلالياً بالهنود الأمريكيين. ويتميز الاسكيمو بصفة عامة بالقامة القصيرة وتتصف وجوههم بأنها عريضة مفلطحة مع بروز عظام الوجنات وذلك إلى جانب طية العين المغولية والشعر الأسود والخشن ولون البشرة البني الفاتح وغيرها من الصفات التي تلتصق بالمجموعة المغولية. يسري الجوهري، دراسات في جغرافية الإنسان: الجماعات البدائية، مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر، الإسكندرية، *1997*، ص: *8*.

[2] اللابيون جماعات من البدائيين يتواجدون في أقصى شمال اسكندنافيا ويعتمدون في حياتهم على صيد حيوان الرنة فهم يتعقبون بشكل دائم هذه الحيوانات التي تتنقل بين المراعي الثلجية. أسامة عبد الرحمن النور، اللابيون نموذج لمجتمعات الصيد، محاضرة ألقيت على طلبة الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامعي *2005/2004*.

[3] محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص:*77*.

الثدييات البرية وصيد السمك إلى جانب رعي الرنة، وهم جميعاً في حالة ظعن وارتحال دائمين يرحلون شتاءً نحو الجنوب وفي الصيف يعودون شمالاً إلى مواطنهم الأصلية. هذه الاختلافات الأفقية بين البيئات الطبيعية استحوذت على اهتمام الكثير من الباحثين الذين اهتموا بتفسير العلاقة بين الإنسان والبيئة.

المبحث الثاني

الإيكولوجيا والإنسان

منذ أن ظهر الإنسان على سطح الأرض وهو يحاول جاهداً أن يستغل بيئته بطريقة أو بأخرى لإشباع حاجاته. وقد اختلفت علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية سواءً كان ذلك من الناحية الزمنية عبر مراحل تطوره التاريخي الطويل، أو من الناحية المكانية فيما يتعلق باختلاف البيئات التي يتعامل معها من منطقة لأخرى، وتبعاً كذلك لدرجة تعقده الثقافي. وفي سبيل تفسير طبيعة هذه العلاقة فإنه وعلى سنة الفكر الإنساني لم يحصل إجماع للرأي في مثل هذه القضية، فقد ظهرت ثلاثة اتجاهات أو مدارس فكرية؛ جبرية واختيارية واحتمالية.

أولاً- الاتجاه الجبري (الحتمي)

تمثل وجهة النظر القائلة بأن للطبيعة الأثر الأكبر في توجيه العلاقة بين الإنسان وبيئته اتجاهاً قديماً قدم الفكر الإنساني، وهي تؤمن بأن الإنسان مسير من قبل الطبيعة وليس مخير إزاءها، وكثيراً ما كان القدماء يعجزون عن تفسير الكثير من المفارقات الاجتماعية والظواهر البشرية المختلفة فيردونها إلى ظروف البيئة الطبيعية.

يستشف هذا من دراسة هيبوقراط (في القرن الخامس قبل الميلاد) حيث ميز بين سكان المناطق الجبلية الطوال القامة الشجعان ذوي الأخلاق الحميدة، وبين سكان الأراضي السهلية الذين يتصفون بنحافة أجسامهم ومتانة عضلاتهم وشعورهم الشقراء[1]. وفي كتاب ((السياسة)) لأرسطو (القرن الثالث قبل الميلاد) يرد أن هناك ترابطاً بين المناخ وبين طبائع الشعوب، فقد وصف أرسطو سكان شمال أوربا بأنهم يمتازون بالجرأة والشجاعة إلا أنهم يفتقرون إلى المهارات والخبرات فيما وصف الآسيويين بالمهارة والخبرة إلا أنهم تنقصهم الشجاعة، أما الإغريق فيرى أنهم يجمعون بين الخبرة الواسعة من جهة وبين الجرأة والشجاعة من جهة ثانية[2]. وقد حاول استرابون (القرن الأول قبل الميلاد) الربط بين ظهور مدينة روما وعظمتها بتضاريس الأرض والمناخ والعلاقات المكانية[3]. ويتضح من مقدمة ابن خلدون (1332- 1406) أنه من أصحاب المذهب الحتمي ففي المقدمة الثالثة ((في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم)) يقول ابن خلدون ".. ولما كان الجانبان[4] من الشمال

---

[1] علي حسن موسى، المرجع السابق، ص: 97.

[2] أرسطو طاليس، السياسة، ترجمة من الإغريقية إلى الفرنسية وصدره بمقدمة علم السياسة وعلق على النص تعليقات متتابعة بارتلمي سانتهيلر، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979، ص: 254.

[3] علي حسن موسى، المرجع السابق، ص: 48.

[4] يورد ابن خلدون اعتماداً على الجغرافيين الذين سبقوه كبطليموس والإدريسي مثلاً أن الأرض كروية الشكل وأنها محفوفة بالماء أي هي ـ حسب تعبيره ـ كالعنبة الطافية عليه وأن الجزء الذي انحصر عنه الماء من الأرض هو النصف من سطح كرتها وأن المعمور منه يبدأ من جهة الجنوب من خط الاستواء وأن هذا الجزء من الأرض ينقسم إلى سبعة أقاليم من الشمال إلى الجنوب كل إقليم منها آخذ من الغرب إلى الشرق فالإقليم الأول مار مع خط الاستواء ويليه من جهة الشمال الإقليم الثاني ثم الثالث ثم الرابع والخامس والسادس والسابع الذي هو آخر مناطق للعمران من جهة الشمال. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1998، ص: 90.

والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاًَ. فالإقليم الرابع أعدل العمران، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير. فهكذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً"[1]. ويرى ابن خلدون كذلك أن هذه الأقاليم المعتدلة هي التي أخذ الناس فيها بأسباب المدنية بشكل طبيعي، وعلى النقيض من ذلك الأقاليم التي يسود فيها التطرف البيئي "وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم"[2]. وفي المقدمة الرابعة ((في أثر الهواء في أخلاق البشر)) يقول ابن خلدون "ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أهل الإقليم الرابع أشد حراً، فتكون أكثر تفشياً، فتكون أسرع فرحاً وسروراً وانبساطاً"[3].

وفي القرن السادس عشر ظهرت كتابات بودان (1530 – 1596) Bodin وقد عمل بودان على التمييز بين الشعوب المختلفة ومعرفة طبائع البشر بالاعتماد على العوامل البيئية، فوصف أهل الشمال بالقسوة والغلظة والشجاعة إلى درجة أن شبههم بالوحوش الضارية ولكنهم أنقى فؤاداً وأسلم طوية . في نظره . بينما أهل الجنوب فقد وصفهم بالمكر والانتقام وشبههم بالثعالب يصرفون كيدهم لشفاء ما في صدورهم من غل وانتقام، أما سكان المناطق المعتدلة فيرى أنهم أكثر موهبة من سكان الشمال وأكثر نشاطاً من سكان الجنوب حيث يقول "أن أهل المنطقة المعتدلة هم الذين يقدرون وحدهم

---

[1] ابن خلدون، المرجع السابق، ص: 90.

[2] المرجع نفسه، ص: 91.

[3] المرجع نفسه، ص: 93.

على الجدل المنطقي، لأنه أمر أهدأ من أن يصير عليه أجلاف الشمال وأدق وأخفى من أن يفهمه أهل الجنوب الذين يريدون أن يروا علامة من السماء أو معجزة لكي يقتنعوا"[1]. وفي القرن الثامن عشر ظهرت كتابات مونتسكيو (1689 – 1755) Montesquieu التي جعلت منه واحداً من مؤسسي نظرية الحتمية الجغرافية، ففي كتابه ((روح القوانين)) اعتبر مونتسكيو أن الإنسان كوحدة طبيعية تقابله وحدتان كبيرتان هما الأرض والمناخ، فالأرض أو "طبيعة الأرض" . حسب عبارته . إما أن تكون مجدبة أو خصبة والطبيعة المجدبة تلائم منشأ الحكومات الشعبية وطبيعة الأرض الخصبة تلائم منشأ الحكومات الأرستقراطية. ويتحدث مونتسكيو عن أثر السهل والجبل في الطباع ومن ثم في النظم السياسية، وهو ما تلخصه عبارته الشهيرة "جدب الأرض في أتيكا أنشأ حكومة شعبية وخصبها في لاكيديمون أنشأ حكومة أرستقراطية"[2]. فالسهول الخصبة مواطن للزراعة لهذا فسكانها أشد التصاقاً بالأرض، كما أن وفرة ثروات هذه السهول تغري الأقوى بأن يفرض سلطانه على المستضعف الذي لا يهمه إلا الأرض وإنتاجها المنتظم، ومن ثم كانت مؤهلة لسيادة الأنظمة الدكتاتورية والملكيات المطلقة المستبدة، وعلى عكس ذلك كانت المناطق الجبلية . حسب رأي مونتسكيو . أكثر حظوة في مجال الحرية السياسية وسيادة الأنظمة الديمقراطية، وذلك لأن سكان هذه المناطق حيث لم يكن لديهم ما يخشون عليه إلا القليل كانوا أكثر جرأة وأقوى جناباً.

أما المناخ الذي أولاه مونتسكيو عناية أكبر فقد أرجع إليه قدراً أوفى من تأثير الطبيعة على الإنسان، والمناخ . في نظره . إما حار أو بارد أو معتدل وعلى هذا الأساس فقد وصف سكان المناطق الحارة بالضعف والعجز واللامبالاة "إنهم مثل العجائز كثيرو الحذر ضعاف الأجسام كسالى محايدون"[3]، أما سكان المناطق الباردة فقد وصفهم بقوة الأجسام والشجاعة والصراحة. إن مونتسكيو يعزي نظريته أساساً إلى

[1] محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص: *18*.

[2] لويسيان فيفر، المرجع السابق، ص: *139*.

[3] علي حسن موسى، المرجع السابق، ص: *48*.

المناخ حيث يقول "لا يعجب الإنسان من أن ضعف سكان الجهات الحارة يجعل منهم عبيداً وأن شجاعة سكان المناطق الباردة جعلهم أحراراً"[1]. وعلى هذه الأسس أطلق مونتسكيو فرضياته وملاحظاته حيث رأى أن آسيا لا تشمل منطقة معتدلة بل تتلاصق فيها الأقاليم الشديدة الحرارة بالأقاليم الباردة وعكسها أوربا حيث المنطقة المعتدلة تحتل مساحة كبيرة من القارة أما إفريقيا فهي تشبه في مناخها جنوب آسيا حسب رأيه لذلك فهي مثلها ترسف في أغلال الاستعباد وبهذا وصل مونتسكيو إلى استنتاجه المعرف وهو أن الحضارة مقصورة على أوربا.

وفي القرن التاسع عشر أخذت الحتمية وجهاً آخر مع داروين (1809– 188) في كتابيه ((أصل الأنواع)) 1859 و((تطور الإنسان)) 1879 إذ اعتبر داروين أن العلاقة بين الكائن الحي والبيئة هي علاقة ملاءمة وتكيف، والتكيف . في رأيه . عملية مادية حتمية، بل وأكثر من ذلك فهو يرى أن البيئة تختار الأفراد الذين تتلاءم صفاتهم مع ظروفها اختياراً طبيعياً وتترك غيرهم للفناء، وقانون الحياة عند داروين يقول إن البقاء للأصلح ملاءمة مع البيئة والبيئة قوة طاغية لا مجال للتغلب عليها. وكان للنظرية الداروينية أثرها الكبير في بلورة فكر المدرسة الحتمية حيث كان لها كبير الأثر في فكر راتزل. ويقوم الفكر الحتمي عند راتزل (1844– 1904)F. Ratzel وهو أحد رواد المدرسة الحتمية على أن الإنسان . كالنبات والحيوان . من نتاج البيئة ومحكوم بها تماماً، وقد ترجم راتزل نظريته في كتابين من أشهر مؤلفاته ((جغرافية الإنسان)) 1882 و((الجغرافيا السياسية)) 1897؛ درس في الأول حياة البشر في مختلف مجالات نشاطهم وفي مجتمعاتهم المتباينة على ضوء علاقة الإنسان بالبيئة الجغرافية، وفي الكتاب الثاني تركزت دراسته على حياة المجتمعات السياسية ودرس الدولة على أساس علاقتها بالبيئة وأساسها الفيزيوقراطي والذي يرى "أنه هو الأساس الثابت لأماني الشعوب وآمالها وأمزجتها المتغيرة وهو الذي يحكم مصير الأمم حكماً صارماً أعمى"[2]. ومن رواد هذه

[1] محمد عبد الغني سعودي، الجغرافيا والعلاقات السياسية الدولية، دار الرائد للطباعة، القاهرة، *1985*، ص: *33*.

[2] محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص: *23*.

المدرسة أيضاً تلميذة راتزل الأمريكية ألين سمبل (1863- 1932) Ellen Sembl التي كانت أكثر تحمساً للحتمية من أستاذها، وتقول سمبل "أن الإنسان ابن البيئة فهي التي ربته ورعته، لقد تخللت البيئة عظامه ولحمه وعقله وروحه، كما وجهت أفكاره وغيرت من ألوانه وأشكاله ونشاطاته"[1]. وفي المقارنة التي أجرتها بين المجتمع الزراعي والمجتمع البدوي ترى سمبل أن الفلاح يتصف بضيق الأفق أما البدوي ساكن المروج والصحاري الشاسعة فيتصف باتساع الأفق ولذلك فقد شمل الكون بفكرة واحدة بسيطة وارتقى إلى الوحدانية الجبارة[2]. وقد وصلت الحتمية في إحدى أقصى درجات تطرفها مع ديمولان Demolins وتتلخص آراؤه في أن البيئة وحدها هي التي تشكل المجتمع، ففي كتابه ((كيف يخلق الطريق الطراز الاجتماعي)) 1901 و 1903 يرجع ديمولان اختلاف الطرز الاجتماعية التي ينقسم إليها سكان العالم إلى اختلاف الطرق التي سلكتها الشعوب في هجراتها، فطريق حشائش الاستبس الآسيوية أو طريق سيبيريا أو طريق التندرا أو طريق البراري الأمريكية أو طريق الغابات الاستوائية هي التي شكلت التتار والمغول أو اللابيين والاسكيمو أو الهنود الحمر أو الزنوج، ودروب الصحراء في بلاد العرب هي التي كونت صفات الآشوريين ..وهكذا. وفي تناوله للحضارات البحرية التي يسيطر عليها الأغنياء والتجار يرى ديمولان أن عدم الثقة بين الحكام المغامرين وبين المحكومين هو الذي أدى إلى ظهور نظام نيابي للحكم بقصد مراقبة السلطة التنفيذية، ومظاهر الحضارات بأكملها . حسب ديمولان . شكلتها بيئاتها يقول في هذا الصدد "لو قدر للنوع البشري أن يبدأ حياته من جديد على سطح هذه الأرض لعاد التاريخ سيرته الأولى بجميع مظاهره الكبرى ولن يحدث تغير إلا في التفاصيل الثانوية ما دام سطح الأرض لم يتغير "[3].

---

[1] زين الدين عبد المقصود، المرجع السابق، ص: *10*.

[2] محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص: *32*.

[3] علي حسن موسى، المرجع السابق، ص: *50*.

وقد تغلغلت أفكار المدرسة الحتمية في مختلف فروع الدراسات الاجتماعية ففي كتاب ((تاريخ المدنية في انجلترا)) (صدر في جزئين 1857 و1861) لمؤلفه بكل (1821– 1862) Buckle يستعرض العوامل الطبيعية التي لها تأثير قوي في النوع البشري (المناخ، الطعام، التربة، وكل الظاهرات العامة في الطبيعة) ويرى أن هذه الظاهرات هي التي تنشئ العادات المتنوعة في التفكير عند الأمم في مختلف أقطار العالم يقول بكل "حيثما توجهنا فثم يد الطبيعة فوقنا، ولا يمكن فهم تاريخ العقل البشري دون ربطه بتاريخ العالم المادي وظواهره المختلفة"[1]، أي أن الظاهرات المناخية والتربة والمظهر العام للإقليم كالتضاريس والموقع الجغرافي هي التي تشكل الشعوب وعاداتها ونظمها الاقتصادية والسياسية. ومهما تكن لآراء الحتميين من وجاهة فإنها لم تكن محط إجماع من قبل العلماء والمفكرين ذلك أنها تعرضت للنقد الشديد من قبل أصحاب المدرسة الإمكانية.

ثانياً– الاتجاه الاختياري (الإمكاني)

إذا كان القرن التاسع عشر يمثل العصر الذهبي لسيادة الأفكار الحتمية فإن القرن العشرين كانت السيادة فيه لأفكار المدرسة الإمكانية التي يرى أصحابها أن الإنسان ليس مجرد مخلوق سلبي خاضع لتأثير البيئة الطبيعية، بل هو قوة إيجابية فاعلة في تهيئة البيئة لمطالبه، ولم ينكر الإمكانيون تأثير البيئة على الإنسان بل رأوا أن هناك تداخلاً دقيقاً بين أثر الإنسان في البيئة وتأثره بها إلا أن قوة الإنسان تفوق قوة تأثير البيئة، فالبيئة بإمكاناتها المعروفة ليست قدراً مكتوباً بقدر ما هي عبارة عن مجموعة من الاختيارات يملك الإنسان إزاءها حرية الاختيار حول ما يتلاءم مع قدراته وأهدافه.

ومن مؤسسي المدرسة الإمكانية فيدال دي لابلاش Vidal De La blache الذي يعتبر "أبا الإمكانية"، ويرى لابلاش في تحليله للعلاقة بين الإنسان والبيئة أن هناك

---

[1] محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص: 26.

قطبين متقابلين هما البيئة والإنسان، والعلاقة بينهما تقوم على عدم تحكم أي من الجانبين على الآخر فلا البيئة تستأثر بالتأثير على الإنسان ولا الإنسان بمنفرد بالتأثير فيها وإنما هناك تأثيرات متبادلة، ومن الأمثلة التي ساقها في هذا الصدد "أن مصر ليست هبة النيل فحسب . كما قال هيرودوت . بل هي هبة النيل ونتيجة مجهود ساكن ضفاف النيل، ذلك الذي هذب مجراه وأقام جسوره منذ عصر ما قبل الأسرات وبذلك أمن شر فيضانه ونظم دورته الزراعية، لا بل إنه نظم توزيع مائه من القنوات والترع"[1]، فالإنسان إذن . حسب لابلاش . كائن اجتماعي يتمتع بالفاعلية والديناميكية والقدرة على التكيف والتطور.

ومن رواد الفكر الإمكاني كذلك تلميذ لابلاش فيفر Febver الذي رفض أن يكون الإنسان عبداً للبيئة كما نادى بذلك أصحاب الاتجاه الجبري بل إن له أن يختار من بين إمكاناتها ما يشاء تبعاً لمستواه التقني والحضاري، ويرى فيفر أن النشاط الاقتصادي على سطح الأرض هو نتيجة لتفكيره ومجهوده وحركته الدائبة في إطار البيئة الطبيعية. ولا يقتصر الإمكانيون على التعظيم من شأن أعمال الإنسان بل إنهم يؤكدون على أهمية نشاطه، ويعتبرون أن الطبيعة ليست بمثابة الوحي على الإنسان وإنما هي المعين والمرشد، فالإنسان . مثلاً . عند بوفون Buffon لم يعد نوعاً من الصلصال تشكله الطبيعة في القالب الذي تريده إنه فاعل إنه أحد قوى الطبيعة ذاتها[2]، ومما قاله بوفون في هذا الصدد "فمنذ ما يقرب من ثلاثين قرناً تكاتفت قوى الإنسان مع قوى الطبيعة وشملت معظم أجزاء الكرة الأرضية، فإلى قوة الإنسان العقلية يرجع الفضل في استئناس الحيوان وجعله طوع بنانه، وبمجهوده جففت مساحات واسعة من المستنقعات وهذبت مجاري الأنهار وأزيلت الغابات واستصلحت البراري... إن وجه الأرض يحمل آثار قوة الإنسان التي إن كانت أضعف من قوة الطبيعة إلا أنها أبقى منها أثراً وأبعد مدى.."[3].

---

[1] محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص: 39.

[2] لويسيان فيفر، المرجع السابق، ص: 41.

[3] علي حسن موسى، المرجع السابق، ص: 52.

إن وجهة النظر القائلة بمبدأ الإمكانية لا تؤمن بوجود حتمية مطلقة صارمة بل تقول أن هناك إمكانية مرنة والإنسان هو سيد البيئة والمسيطر عليها. ومن الأمثلة التي يسوقها الإمكانيون في سبيل تدعيم وجهة نظرهم أنه لو فرض جدلاً أن البيئة الطبيعية هي العنصر الحاكم في العلاقة بين الإنسان وهذه البيئة لوجد التشابه والتجانس قائمين فيما يتعلق بالأنشطة البشرية في مختلف البيئات الطبيعية المتشابهة، وهذا الأمر لا وجود له في الواقع، فمثلاً في البيئات الجافة في كل من الولايات المتحدة وشمال شيلي وشمال إفريقيا وصحراء كلهاري يلاحظ التشابه قائماً بينها فيما يتعلق بمكوناتها الطبيعية إلا أن درجات الاستجابة والتكيف ليست واحدة في كل منها.

ثالثاً- الاتجاه الاحتمالي (التوفيقي)

أمام الاختلاف الواضح بين ما تقدمه الآراء الحتمية وبين ما تقدمه الآراء الإمكانية كان طبيعي أن ينشأ اتجاه فكري وسط بين الاتجاهين لا يؤمن بالجبرية المطلقة من جانب البيئة الطبيعية ولا بالإمكانية المطلقة للإنسان، فمهما يكن للإنسان من حرية الاختيار تجاه بيئته الطبيعية ومهما يكن للعوامل البشرية من دور وهي أمور لا جدال فيها اليوم إلا أن ذلك كله لا يمكن أن يكون مسوغاً لإنكار أو إهمال دور العامل البيئي كعنصر خطير في توجيه الصيرورة الحضارية للمجتمعات الإنسانية في مختلف مراحل تاريخها.

والحدود التي تضعها الإيكولوجيا على إمكانيات الإنسان ومجال اختياره تختلف من مكان إلى آخر ومن فترة تاريخية إلى أخرى، فعلى سبيل المثال نجد أنه في الأقاليم الهامشية مثل الصحاري الحارة والصحاري الباردة وفي درجات الحضارة الدنيا نجد أن مجال اختيار الإنسان ضيق جداً، بينما في الأقاليم الدافئة والمعتدلة وفي درجات الحضارة المتقدمة نجد أن إمكانات الاختيار أكثر وفرة، وفي المناطق الاستوائية التي تسود فيها الحرارة الشديدة والرطوبة المرتفعة وسيطرة الغابة الكثيفة نجد أن الإنسان فيها محدود النشاط أسير بيئته خاضع لنظام معيشي معين بل ومن الوارد أن تكون هذه

المعطيات الإيكولوجية قد أثرت في جسمه وحتى في قدرته على التفكير كما يمكن اعتبارها من أهم أسباب التأخر الحضاري لشعوب هذه المناطق، وكلما ابتعدنا عن هذه البيئة القاسية شمالاً أو جنوباً نجد الإنسان أقوى قدرة على العمل والتفكير وأرقى في سلم التطور الحضاري ربما بسبب فصيلة المناخ التي تساعد السكان على القيام بأعمال الزراعة وبالتالي توفر لهم الفرصة ليتقدموا في الحضارة، وهكذا حتى نصل إلى الأقاليم المعتدلة حيث نجدها أسبق لحوز قصب السبق في التقدم الحضاري يقول ويل ديورانت Will Durant "الحضارة مشروطة بطائفة من العوامل هي التي تستحث خطاها أو تعوق مسارها، وأولها العوامل الجيولوجية ذلك أن الحضارة تتوسط عصرين من جليد ... وثانيها العوامل الجغرافية فحرارة الأقطار الاستوائية وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لا تقع تحت الحصر لا تهيئ للمدنية أسبابها ... ولما كانت السماء متقلبة الأهواء لغير سبب مفهوم فقد تقضي بالجفاف على أقطار ازدهرت يوماً بالسلطان والعمران مثل نينوى وبابل، وقد تسرع الخطى نحو القوة والثراء بمدائن وهي فيما يبدو للعين المجردة بعيدة عن الطريق الرئيسي للنقل ... وإذا كانت تربة الإقليم تجود بالطعام أو المعادن وإذا كانت أنهاره تهيئ طريقاً هينة للتبادل مع غيره وإذا كان شاطئه مليئاً بالمواضع التي تصلح مرافئ طبيعية لأسطوله التجاري، ثم إذا كانت الأمة فوق هذا كله تقع على الطريق الرئيسي للتجارة العالمية .. إذن فالعوامل الجغرافية على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقاً إلا أنها تستطيع أن تبتسم في وجهها وتهيئ سبيل ازدهارها"[1]. ويرى رايموند فيرث R. Firth الذي يعتبر أول من استخدم المدخل الإيكولوجي في تفسير الظواهر الاجتماعية أن الثقافات ليست إلا نتاجاً لعوامل جغرافية وتاريخية وأن التمايز بين الثقافات لا يعدو كونه ظاهرة نتجت عن اختلاف الظروف التي واجهتها كل من هذه الثقافات من ناحية والفرص التي أتيحت لها للتعامل مع هذه الظروف من ناحية ثانية، كما يؤكد فيرث كذلك على أن نوع العلاقات والمعاملات بين أفراد مجتمع ما

---

[1] ول ديورانت، المرجع السابق، م1/ج1، ص:5.

تحدده البيئة[1]. وقد حاول آرنولد توينبي Arnold Toynbee أن يبلور العلاقة بين الإنسان وبيئته في نظريته الشهيرة ((التحدي والاستجابة)) مبيناً أنه ليس صحيحاً أن البيئة السهلة هي التي تستحث الإنسان على التحضر فالدعة ورقة العيش . في نظره . تجافي الحضارة وكلما كانت البيئة ذلولاً كلما كان الباعث على قيام الحضارة ضعيفاً وكلما كانت البيئة الطبيعية قاسية كلما كانت باعثاً على استثارة همم الإنسان وتحضره[2].

إن الحياة البشرية في أهم جوانبها ما هي إلا ترجمة لطبيعة التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية وانعكاس لمختلف درجات الاستجابة البشرية لتحديات البيئة ولمعطياتها، ويتحدد نوع الاستجابة تبعاً لعاملين أساسيين: الأول هو عامل البيئة ذاتها التي تتدرج في طبيعتها من بيئة صعبة إلى بيئة سهلة، والعامل الثاني بشري يقصد به درجة التعقد الثقافي لدى المجتمع الذي يتدرج في إطار تعامله مع بيئته من موقف سلبي إلى موقف إيجابي، وبناءً على هذين العاملين تختلف درجات الاستجابة من استجابة سلبية إلى استجابة إبداعية. وعليه يكون تأثير البيئة الطبيعية محدداً بمدى قوة العنف فيها وهي فرضية سنحاول اختبارها تاريخياً في المحور التالي.

---

[1] رايموند فيرث، الأنماط البشرية: مدخل لدراسة علم الإنسان الاجتماعي، ترجمة وتقديم: صبحي قنوص، منشورات جامعة قار يونس، ط1، بنغازي، 1989، ص:35.

[2] آرنولد توينبي، مختصر لدراسة التاريخ، ج1، ترجمة: فؤاد محمد شبل، راجعه: محمد شفيق غربال، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ط2، القاهرة، 1966، ص: 102. أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، ط2، الإسكندرية، 1990، ص: 239.

المبحث الثالث

دور العنف الإيكولوجي في تطور الحياة الاجتماعية

غالباً ما يأتي رد الفعل الإنساني المنشئ للحضارة بقدر عنف التحدي الإيكولوجي، وإذا كان كل من الفعل الإنساني وتحدي البيئة قوياً فعادة ما تكون نتيجة ذلك حدوث استجابة إبداعية، ونظراً للأهمية التاريخية التي تكتسبها الاستجابة الإبداعية فمن الوارد جداً نعتها بأنها تشكل حدثاً ثورياً، وإذا نظرنا إلى تاريخ البشرية لا نجد صعوبة في تمييز أربع ثورات كبرى حاسمة في عملية التطور التاريخي والثقافي للمجتمعات الإنسانية، وبحكم الحدود الزمنية لموضوع االدراسة فإن الذي يهمنا منها الثورات الثلاثة الأولى.

الثورة الأولى: ظهور التقنية الحجرية واكتشاف النار

كانت انطلاقة هذه الثورة مع معرفة الإنسان صناعة الأدوات الحجرية حينما كان يلتقط بعض الحجارة والحصى من الأرض لاستخدامها في عملية جمع والتقاط الطعام، وتبلورت هذه الثورة باكتشاف الإنسان للنار[1] وسيطرته على قوتها. لقد تمكن الإنسان بواسطة تطور تقنية صنع آلاته من الحجارة من توسيع قاعدته الغذائية من النبات والصيد، كما مكنه اكتشاف النار من أن يسيطر على البيئة ويحمي نفسه من الحيوانات المفترسة. وبذلك يكون قد نجح في التغلب على الاختبار الصعب والقاسي الذي كان يواجهه من قبل البيئة الطبيعية.

---

[1] مازالت طريقة اكتشاف النار تشكل معضلة مستعصية على العلماء والباحثين وقد قدمت في شأنها بعض الاجتهادات القابلة للأخذ والرد فقد طرح البعض فرضية اكتشاف الإنسان للنار عن طريق مشاهدته لها لأول مرة وهي تشتعل فجأة بفعل فوران بركان أو إصابة صاعقة لشجرة فيما يرى آخرون أن الإنسان تمكن من إشعال النار بإحدى طرق أخرى كالاحتكاك والقدح والنشر والثقب والنفخ. أسامة عبد الرحمن النور وأبو بكر يوسف شلابي، تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات، المرجع السابق، ص: *539*.

وأهم التغيرات البيئية التي ساهمت في نمو هذه الثورة الحضارية هي التغيرات المناخية العنيفة التي حدثت في عصر "البليستوسين"[1] وهو عصر ظهور الإنسان، فقد عرف هذا العصر ما يسمى بظاهرة العصور الجليدية في العروض العليا والوسطى، والعصور المطيرة في العروض الدنيا[2]. وقد كانت نتيجة ذلك اختلاف في درجة التساقط فوق مناطق الأعشاب في العروض الدنيا مما أدى بالإنسان القديم إلى الانتقال شمالاص وجنوباً جرياً وراء الحيوانات التي يعتمد عليها في الصيد، وخلال كل دور جليدي كان النبات والحيوان يتقهقر تجاه الجنوب أمام تقدم الغطاءات الجليدية، فإذا ما انتهى الدور الجليدي وحلت الفترة الدفيئة عاد ثالوث النبات والحيوان والإنسان نحو الشمال.

وهكذا عاش الإنسان حيناً من الدهر خاضعاً للطبيعة العنيفة التي كانت توجه تحركاته ونشاطاته، خاصة وأنها كانت تتحكم في اقتصادياته أولى أولوياته آنئذ واستمر قانعاً بما تجود به عليه، ليس في المجال الاقتصادي فحسب بل إن الطبيعة هي التي أملت عليه الإيحاءات التي طالما ركن إليها في إطار ممارسته لأنشطته الثقافية الأخرى، ولعل تعبير ويل ديورانت الذي سيرد فيما بعد ينطبق تماماً على طبيعة العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية حين كان يتعثر في خطواته الأولى على طريق تطوره الثقافي، حيث كان يرقب عن كثب ما تقوم به مختلف العناصر المشكلة للبيئة من حوله فيفيد منها فكانت بمثابة المصدر الثقافي له مثل ما هي مصدره الاقتصادي، وبذلك تكون البيئة الطبيعية هي التي أملت الإنجازات التكيفية الأولى التي اخترعها الإنسان هذا الكائن الذي حباه الله بقدرة فائقة على التكيف والمحاكاة يقول ديورانت "فلقد رأى

---

[1] البليستوسين هو أحد عصور الزمن الرابع وهو العصر السابق للهولوسين (الحديث) *Holocene* ، ويبلغ طول البليستوسين حوالي مليون سنة عرف عدة أدوار جليدية تخللتها فترات دفيئة وقد أمكن التمييز بين أربعة عصور جليدية سميت بأسماء الأودية التي تمثلت فيها هذه العصور أصدق تمثيل في جبال الألب وهي جنز *Gunz* ومندل *Mindel* وريس *Riss* وفرم *Vurm* . عبد الله عطوي، الجغرافيا البشرية: صراع الإنسان مع البيئة من الإنسان القرد إلى الإنسان العاقل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، *1996*، ص: *107*.

[2] عبد الله عطوي، المرجع السابق، ص: *108*.

(يعني الإنسان) القرد وهو يقذف بالحجارة وثمار الفاكهة على أعدائه، أو يكسر الجوز والمحار بالحجر، ثم رأى كلاب الماء تبني لنفسها السدود والطيور تهيئ الأعشاش والعرائش، والشمبانزي تقيم بيوتاً شبيهة جداً بما يقيم الإنسان من أكواخ. فأخذ يعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان منها بل تفوقها. وكان النبات الذي يحيط بالإنسان البدائي مصدر الكثير من الآلات، فمن الخيزران صنع الإنسان السهام والإبر والقوارير، ومن فروع الشجر وأليافه صنع الحبال والثياب.."[1]، وقد يتساءل البعض لماذا تكون الحيوانات أسبق في اختراعاتها من الإنسان؟ لعل الجواب أنه من المعروف عملياً أن الحيوانات تدرك شعورياً ما ذا تريد أن تعمل وما هو الدور الذي يجب أن تقوم به من أجل البقاء!!.

ولقد كان الإنسان البدائي . حسب الدراسات الأنثروبولوجية . قد نظر إلى مظاهر البيئة الطبيعية من موقع الضعف والخمول وميز بينها؛ فإلى المظاهر الطبيعية الخيرة تقرب خاطباً ودها راجياً عطفها طامعاً في أن لا تبخل عليه بما شاءت من النفع والخير، وإلى المظاهر الطبيعية الشريرة توجه متوسلاً خوفاً من بأسها واتقاءً لشرها وأضرارها. ومع كل ذلك فإنه مهما لاحظنا من ملامح التقبل والرضا التي سادت عقل البدائي وهو يواجه الطبيعة بجبروتها لفترة طويلة من الزمن منذ بداية تاريخه الطويل حتى بداية تمكنه من السيطرة على الطبيعة منذ حوالي (12000–10000) سنة تقريباً، فإن ذلك لا يعني أن حالة من السكون والسلبية المطلقة قد ظلت تسيطر على الموقف البشري بل إن مسيرته كانت تتم في شكل من الديناميكية والتطور، وكان اتجاه التطور تصاعدياً تبعاً لدرجة التعقد الثقافي لدى الإنسان، إلا أن عملية التطور هذه ظلت تخطو بشكل بطيءٍ حتى حدثت الثورة الثانية التي جعلت من الإنسان سيداً على الطبيعة.

---

[1] ول ديورانت، المرجع السابق، م1/ج1، ص: 23.

الثورة الثانية: ظهور حرفة الزراعة والرعي

وهي ثورة العصر النيوليثي التي تبلورت بمعرفة الإنسان للزراعة واستئناس الحيوان. وقد تعرض الكثير من الباحثين لتفسير كيفية حدوث هذه الثورة ودواعي قيامها ومهبط ميلادها.

فاعتقد البعض أن الزراعة لم تنشأ نتيجة للحاجة إلى الطعام وأن اختيار نوع من النبات وإحاطته بالرعاية أمر يتطلب أن تقوم به جماعات تعيش فوق مستوى المجاعة وأن المسؤول عن هذه الثورة هم صيادو البحر الذين تركزوا حول البحيرات والمجاري المائية أثناء العصر المتوسط إذ أن صيد الأسماك كان يمثل مورداً غذائياً ثابتاً على مدار السنة، وأن المنطقة الملائمة لتكون مهداً للزراعة هي جنوب شرق آسيا[1]. فيما يرى البعض أن الزراعة كانت ضرورة اقتضاها تغير الظروف المناخية في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا بعد انتهاء العصر المطير في الزمن الرابع إذ ترتب على قلة المطر وندرته أن نقص الغطاء النباتي وجفت المروج الخضراء التي كانت سائدة في تلك المناطق التي تحولت تدريجياً إلى مناطق صحراوية، ومن ثم كان على الإنسان والحيوان في هذه الجهات أن يتجه إلى أماكن تجمع المياه حول العيون والأودية أي أن الزراعة كانت ممكنة فقط في تلك الواحات المتناثرة في الصحراء أو في مجاري الأنهار القليلة كدجلة والفرات والنيل والسند..[2]. ويجسد الرأي الأول وجهة النظر الإمكانية أما الثاني فيجسد وجهة النظر الحتمية ، والواقع أن لكل من العاملين البيئي والبشري دوره في نشوء حرفة الزراعة والرعي أي أن عدة ميكانيزمات بيئية وبشرية قد تحركت لتبلور الثورة النيوليثية.

لقد كانت وديان الأنهار تتمتع بأكثر أنواع المناخ تنشيطاً في نصف الكرة الشمالي وكانت التربة الرسوبية الخصبة ومياه الفيضان وطول موسم النمو والطريق

---

[1] يسري الجوهري وناريمان درويش، الجغرافيا الحضرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والتوزيع، الإسكندرية، *1987*، ص: *101*.

[2] محمد الفتحي بكير محمد، الجغرافية التاريخية: دراسة أصولية تطبيقية، دار المعرفة الجامعية الأزاريطة، *1999*، ص: *38*.

النهري والنباتات والحيوانات المتوفرة عناصر إيكولوجية مفيدة في الزراعة، وفي المقابل كانت وديان الأنهار محاطة بمناطق متباينة من الناحية الطبيعية وهي الصحاري والجبال والبحار والتي كانت مصدر هجرات بشرية هرباً من القحط والجفاف، هذه الهجرات حملت معها طرقاً للمعيشة وتجارب ومنتجات مختلفة، وكان الاتصال والتبادل بين الشعوب يمثل حوافز للتفكير والابتكار، هذا بالإضافة إلى العامل الديمغرافي الذي شكل هو الآخر عاملاً بشرياً ساعد في اختراع حرفة الزراعة التي أصبحت المورد الأول والرئيس لهذا الكم الهائل من الأفواه الجائعة. الملاحظ هنا أن العنف الإيكولوجي كان العامل الحاسم الذي وقف وراء ظهور الزراعة إما بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة إذ كان خلف العوامل البشرية المذكورة آنفاً.

وقد ظهرت الزراعة في مناطق مختلفة ومتباعدة من العالم القديم هي نفسها المناطق التي نبتت فوقها المدنيات بعد ذلك بفترات وجيزة. وقد ترعرعت هذه الحضارة في مناطق مبعثرة على امتداد الأفق الجغرافي للشرق القديم خاصة على وديان الأنهار الكبرى كدجلة والفرات والنيل والسند والنهر الأصفر مما يستدعي إعطاء وصف . ولو بشكل مختصر. لهذا المدى الجغرافي الكبير.

تمثل الأراضي التي تجري فيها المجاري الدنيا لهذه الأنهار النطاق الصحراوي في الكتلة الإفريقية الآسيوية الذي يعد بدوره جانباً من نطاق أكثر اتساعاً وجفافاً يمتد عبر العالم القديم بين المحيط الأطلسي والصين الشمالية، ويتألف نطاق الإستبس الصحراوي الإفريقي الآسيوي من الناحية البنيوية من عدد من الكتل الصلبة المائلة من قشرة الأرض، تتشابه في شمال إفريقيا وشبه جزيرة العرب وإيران[1]، وهي تمثل بوجه عام هضاباً مستوية إلا حيث تظهر بعض المنخفضات الكبرى والسلاسل الجبلية الإلتوائية

[1] جوردون إيسيت، الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة: جمال الدين الدناصورة، مراجعة: دولة أحمد صادق، دار الهلال، د.ت، ص: *140*.

الحديثة[1]، وأهم هذه المنخفضات هي السهول الرسوبية التي تتهادى فيها المجاري الدنيا لأنهار دجلة والفرات والنيل والسند والهوانغ–هو.

ومن الناحية المناخية يسود النطاق كله بما يضمه من وديان وأنهار مناخ جاف صيفه حار وشتاؤه معتدل. وتكاد وديان هذه الأنهار تكون متشابهة من الوجهة الطبيعية إذ يتكون كل منها من سهل رسوبي يصل البحر وتحف به الصحراء أو الجبال أو هما معاً ويحمل كل نهر إلى الإقليم موارد غزيرة من المياه في فصل واحد من فصول السنة من منابعه التي تقع في أصقاع أكثر ماءً. ففي هذه الوديان بدأ يتشكل في فترات متقادمة ومتقاربة زمانياً ثالث أهم حدث عرفته المسيرة الحضارية لتاريخ البشرية ألا وهو ظهور النظام الحكومي.

الثورة الثالثة: ظهور النظام السياسي

لعل نشأة الدولة تمثل أخطر التطورات التي عرفتها الحياة البشرية على الإطلاق، لهذا يمكن وصفها بالثورية، وقد حدثت هذه الثورة منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. وفي سبيل تفسير ظهور الدولة كحدث اجتماعي قُدم العدد الهائل من الرؤى والنظريات التي أصبحت اليوم متداولة، وبغض النظر عن النظريات التي أرجعت ظهور الدولة إلى أصول عنصرية التي أصبحت تحوم حولها الكثير من الشكوك ولم تعد تستحق اهتماماً خاصاً، وبغض الطرف كذلك عن تلك الرؤى التي تجعل من الدولة لحظة "عبقرية" من لحظات شعب ما أو نتاج مصادفة تاريخية معينة، ذلك أن رؤى كهذه تضع الدولة في مصاف الموجودات الميتافيزيقية، وبالتالي فهي تستعصي على المنهج العلمي، وتجاوزاً لمثل هذه النظريات فإن نشأة الدولة تعتبر حدثاً تاريخياً لم يكن متفرداً في الزمان والمكان، بل إن دولاً مختلفة نشأت في أماكن متعددة ومتباعدة، ذلك أن الدولة نتاج عملية تاريخية، فحيثما توافرت الشروط التاريخية ظهرت الدولة. أما النظريات ذات الأساس العلمي التي تتناول نشوء الدولة فتصنف . طبقاً للتقسيم الذي

---

[1] علي حسن موسى، المرجع السابق، ص: 28.

وضعه روبرت كارنيرو. إلى قسمين متمايزين، أما نظريات القسم الأول فهي النظريات الإرادية التي تنطلق من التطوع وحرية الإرادة والاتفاق، وأما نظريات القسم الثاني فهي التي تتأسس على العنف والقسر.

ومن بين النظريات الإرادية الطوعية التي تفترض أن شعوباً معينة فكرت في فترة معينة من تاريخها فاختارت بحرية الحد من حريات أفرادها، وتضامت المجموعات البشرية المتقاربة إلى بعضها البعض في وحدات سياسية كبيرة نسبياً، وهكذا بدأت الدولة. من بين هذه النظريات نظرية "العقد الاجتماعي" عند جان جاك روسو وهي الأكثر انتشاراً، إلا أن فكرة العقد لا يمكن التحقق منها تاريخياً، الأمر الذي جعل البعض ينظر إلى نظرية العقد هي الأخرى باعتبارها عملاً تنظيرياً بحتاً غير ثابت من الناحية العملية، يقول روبرت كارنيرو "ونحن نعلم أن "العقد" المذكور لم يوقع أبداً في التاريخ بين تجمعات بشرية معينة وليست نظرية العقد الاجتماعي اليوم أكثر من طرفة تاريخية"[1]، وتعتبر هذه النظرية في عداد النظريات القديمة.

أما النظريات الإرادية الحديثة والأكثر انتشاراً فتمثلها الرؤية التي قدمها جوردون تشايلد، وهي نظرية إرادية طوعية ميكانيكية ترى أن ابتداع الزراعة جلب معه حدوث فائض في مواد التغذية مكن فئات اجتماعية من الاستغناء عن المشاركة في عملية الإنتاج الزراعي والانصراف إلى العمل المهني اليدوي، مثل صناعة الفخار والحياكة والحدادة والبناء ..إلخ، مما أدى إلى ظهور مسألة تقسيم العمل إلى حد كبير، هذا التخصص المهني تطور إلى وحدات سياسية مستقلة تضامّت بشكل تلقائي وتدريجي في دولة واحدة[2]. ويلاحظ على هذه النظرية أن ابتداع الزراعة لا يجلب معه تلقائياً فائضاً في المحاصيل الزراعية. ثم إن هناك نظرية إرادية أخرى لنشأة الدولة تمثلها فرضية الري لكارل فيتفوغل، ومؤدى هذه النظرية أنه "في النواحي الجافة وشبه الجافة من الأرض

---

[1] روبرت كارنيرو، "تظرية في نشأة الدولة"، مجلة الفكر العربي، ص: *7 . 21*، العدد *22*، السنة *3*، تصدر عن معهد الإنماء العربي، بيروت، سبتمبر– أكتوبر، *1981*، ص: *8*.

[2] جوردون تشايلد، ما ذا حدث في التاريخ، ترجمة: جورج حداد، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص: *99*.

حيث يضطر الفلاحون إلى بذل جهود ضخمة من أجل الحصول على نتائج متواضعة باستخدام وسائل ري غير متطورة وغير كافية، وجدت جماعات منهم في مجال زمني معين أنه من مصلحة الجميع التنازل عن بعض الحريات الفردية لصالح تكوين وحدات سياسية كبيرة من هذه المجموعات المتناثرة، تكون قادرة على تطوير نظام يجعل العمل الزراعي سهلاً نسبياً وذا نتائج أفضل على مستوى المحصول، والجماعات التي قامت بإنشاء نظام الري ذلك وإدارته هي التي أنشأت الدولة"[1]، ويرى كارنيرو أن هذه النظرية في نشأة الدولة وغيرها من النظريات الإرادية المشابهة تقف عاجزة أمام مسألة أساسية في هذا المجال، إنها مسألة العنف، فتخلي الوحدات السياسية الصغيرة المستقلة عن حريتها والخضوع لسلطة مركزية مسألة تظل مستحيلة بدون وجود عامل القسر، وتمكن ملاحظة ظاهرة القسر هذه عبر التاريخ من الوحدات القروية الصغيرة حتى الإمبراطوريات الكبيرة. ويرى أصحاب هذه النظرية أن العنف الخارجي لا الإدراك الإرادي لصالح المجموع هو الذي كمن وراء ميكانيزمات التضام التدريجي خلال عمليات التطور السياسي من القرى المنعزلة حتى الدولة المركزية الكبرى.

وهذه النظرية ليست جديدة، قال بها هيراقليطس (القرن الخامس قبل الميلاد) عندما قال "الحرب هي أم الأشياء كلها"، مثل هذه النظرية القسرية التي ترى أن الحرب هي أصل الدولة قال بها باحثون محدثون مثل نيتش الذي يقول "إن جماعة من الوحوش الكواسر شقراء البشرة جماعة من الغزاة السادة بكل ما لها من أنظمة حربية وقوة منظمة تنقض بمخالبها المخيفة على طائفة كبيرة من الناس ربما فاتتها من حيث العدد إلى حد بعيد، لكنها لم تتخذ بعداً يحدد أوضاعها ذلك هو أصل الدولة"[2]، وأوبن هايمر الذي يقول "إنك لترى أينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدي على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعداداً للقتل ثم تستقر في أرضها مكونة جماعة الأشراف فيها ومؤسسة لها الدولة"[3].

---

[1] روبرت كارنيرو، المرجع السابق، ص: *9*.

[2] ول ديورانت، المرجع السابق، م*1*/ج*1*، ص: *44*.

[3] المرجع نفسه، ص: *44*.

وقد لوحظ على هذه النظرية بعض وجوه النقص خاصة في وجهين: الوجه الأول عجزها عن تفسير قيام الدول في القارة الأمريكية القديمة[1] حيث أن الدول ظهرت قبل ظهور البدو. حيث لم يكن هناك بدو ورعاة، والوجه الثاني هو أن الأبحاث الحديثة تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الدول ظهرت قبل ظهور البدو.

ومهما تكن الانتقادات الموجهة إلى هذه النظرية فإن الشواهد التاريخية تشير إلى أن العنف لعب دوراً أساسياً في ظهور الدولة، وليس من الصعوبة بمكان البرهنة التاريخية على الحضور الظاهر للحرب في المراحل المبكرة لنشأة الدولة، إلا أنها ليست العامل الوحيد بل هناك عوامل أخرى أهمها العامل الإيكولوجي الذي يطلق عليه روبيرت كارنيرو عبارة "تحدّد البيئة"، ففي نواحي الأرض المختلفة التي نشأت فيها الدول استناداً إلى عوامل داخلية خاصة؛ في ما بين النهرين ووادي النيل ووادي السند وحوض النهر الأصفر وجنوب الجزيرة العربية، نجد أن هذه النواحي المتباعدة تشترك في أمور ملحوظة، فهي كلها أراضي زراعية وهي كلها متصلة بجبال أو بحار أو صحاري، هذا التحدّد والانعزال كان له الدور الكبير في نشأة الدولة في العالم القديم.

وعلى الرغم من أن المجتمعات الأولى ربما كان لديها نوع من النظام القبلي أو بعض القادة ذوو الكلمة المسموعة إلا أن ظهور المجتمعات المنظمة سياسياً (الدول) ارتبط بالمناطق التي وصل فيها الإنسان في استغلال البيئة إلى أعلى مستوياته، ولذلك

---

[1] منذ الألفيية الثانية قبل الميلاد شهدت الأراضي المنخفضة الرطبة في العالم الجديد على امتداد الخليج الجنوبي للمكسيك وشبه جزيرة يوكاتان نشوء ثقافتي الأولمك والمايا. لقد نشأت أقدم مدنية معروفة حتى الآن في الأمريكتين وهي مدنية الأولمك التي يرجع تاريخها إلى ما بين *1250-350* ق.م على امتداد الساحل الجنوبي والساحل الشرقي للمكسيك، وتسمى المنطقة التي شهدت نشوء هذه المدنية "سان لورنزو" وهي منطقة مرتفعة تكسوها الغابات وتطل على وادي كولز كولكوس، وهو النهر الذي يحمل مياه الجهة الشمالية من برزخ تهوانتيك إلى خليج المكسيك. وإذا كانت ثقافة سان لورنزو لم تصل دور الألفبائية فإنها أنتجت أعمال بناء ونحت ضخمة تمثلت في إقامة مراكز للشعائر الدينية ورؤوس بشرية نحتت من البازلت المنقول إلى سان لورنزو من على بعد مائة كلومتر. وتدل هذه الآثار المادية الباقية على وجود نخبة سلطوية لها القدرة على تعبئة المهارات والقوى البشرية، تقول بعض وجهات النظر أن العوامل الروحية هي التي دفعت الأولمك إلى تحقيق هذه الإنجازات المادية، فيما يطرح البعض فرضية تقول أن هذه الإنجازات كانت نتاج عمل طوعي نفذه المتدينون، لكن فرضية أخرى ترى أن جزءً من تلك الإنجازات كانت نتيجة أعمال السخرة التي فرضت على غير المؤمنين الذين غلبوا على أمرهم في الحروب. نراجع بهذا الصدد: أسامة عبد الرحمن النور، التاريخ الثقافي القديم للأمريكتين، محاضرة ألقيت على طلبة الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب جامعة سبها، العام الجامعي *2005/2004*.

فقد نشأت المدنيات القديمة في البيئات الزراعية حينما كانت حرفة الزراعة هي أكثر الحرف إنتاجاً فكيف نعلل دور البيئة الطبيعية في نشأة النظام السياسي؟. لعل معالجة هذا التساؤل لا تكون ممكنة إلا بعد رصد الخصائص الإيكولوجية للبيئات التي نبتت فوقها الكيانات السياسية الأولى.

إن أهم الدول التي ظهرت في الشرق القديم بل وفي العالم القديم برمته قامت على ضفاف أربعة أو خمسة أنهار كبرى في العراق ومصر وشمال غرب الهند وشمال الصين. وبخصوص سهل بلاد الرافدين فهو يمتد بين الأجزاء الدنيا لنهري دجلة والفرات والبقاع الواقعة إلى الشرق منها كما تصل حدوده الشمالية إلى بلد (على بعد 80 كلم شمال بغداد) على دجلة وهيت (على بعد 180 كلم شمال غرب بغداد) على الفرات. ومن الناحية البنيوية تعد المنطقة أرضاً هابطة تمتد موازية لحافة كتلة شبه جزيرة العرب الانكسارية وتكونت حين التوت جبال زاغروس في الزمن الثالث[1]، ثم أخذ يظهر المنخفض الذي تكون على هذا النحو بما حمله نهرا دجلة والفرات من فتات الصخور وما جرفته السيول التي تنقض من جبال زاغروس منحدرة من غرب فارس، كما أسهمت صحراء بلاد العرب بنصيب منها لما سفته الرياح من رمال، ويلتقي دجلة والفرات بحمولتهما من الرواسب عند مصبهما المشترك (شط العرب) الذي يصب متشعباً في الخليج العربي حيث ظهرت مساحة كبيرة من المستنقعات[2]، ويتلقى دجلة والفرات قدراً كبيراً من المياه ينشأ عن ذوبان الثلوج في الربيع في منابعهما في جبال أرمينية بالإضافة إلى مياه الأمطار التي تهبط وتجري من غربي جبال فارس. وهكذا كان الوادي يتعرض لفيضانات عنيفة جداً بل ومدمرة، وكانت بلاد سومر واقعة في أكثر جهات سهل الرافدين تعرضاً لهذه الفيضانات وما ينجم عنها من أضرار.

---

[1] طه باقر، المرجع السابق، ص: *14*.

[2] جورج كونتنو، المرجع السابق، ص: *8*.

لقد كان الفيضان ضرورياً لقيام الزراعة، وكانت الفيضانات تحدث في مارس وابريل ومايو ليعقبها صيف شديد الحرارة[1] فاستدعى ذلك توفير مياه الري في الفترة التي تعقب موسم الفيضان عن طريق إقامة نظام للري الدائم وكان ذلك يتطلب تضافر وتنظيم الجهود، وقد كانت تربة الوادي من أجود أنواع التربة وهي التربة الطفيلية الجيرية الغنية[2] وكانت مياه النهرين تجلب لها الطمى. لقد تضافرت هذه العوامل الإيكولوجية مع العوامل البشرية لتجعل السكان يجنون محاصيل جمة من الحبوب كالشعير والقمح البري، وكانت تنمو أشجار النخيل وقصب السكر، كما كانت تعيش في السهل مجموعات من الحيوانات منها المستأنس كالبقرة الحلوب والبقر الآسيوي والجاموس والبقرة الهندية ذات السنام بالإضافة إلى الحمار الذي كان هو وسيلة النقل في بادئ الأمر، ومن هذه الحيوانات الآبد كالغزلان والظباء والخنازير البرية والأسود، كما كانت تجوس الوادي الحيات والحشرات الضارة مثل العقارب السامة[3]. وكانت بلاد مابين النهرين تفتقر إلى الثروة المعدنية والأحجار والأخشاب إلا أنه كان من الميسور الحصول عليها سيما من منطقة عيلام الواقعة قريبا إلى الشرق منها. وقد كان استخدام النهرين في الملاحة مهمة جدُ شاقة حيث كانت تعترض مجريهما سدود صخرية مما يعوق الملاحة، ثم إن الرياح الدائمة وشبه الدائمة في المنطقة كانت تأتي من ذات الاتجاه الذي يأتي منه النهران أي من الشمال[4] وبالتالي كان يصعب على السفن صعود النهرين وسلوكهما نحو الشمال ينضاف إلى ذلك عنف الفيضانات التي كانت تأتي بغتة في بعض الأحيان.

وإلى الشرق من بلاد ما بين النهرين خلف سلسلة جبال زاغروس تمتد الهضبة الإيرانية التي تنتشر فيها الوديان الكثيرة التي تقطعها تعرجات الجبال، ولا وجود للأنهار في إيران ولكن سيادة المناخ الصيفي المشابه تقريباً لمناخ ما بين النهرين يفسح المجال

---

[1] جوردون إيسيت، المرجع السابق، ص: *144.*

[2] المرجع نفسه، ص: *144.*

[3] فؤاد سفر، المرجع السابق، ص: *766.*

[4] محمد الفتحي بكير محمد، المرجع السابق، ص: *474.*

لنمو بعض المزروعات. كذلك في جنوب شبه الجزيرة العربية حيث الطبيعة الجبلية التي يتخللها العديد من الوديان[1] وحيث السيول الغزيرة المنهمرة من الجبال نحو الأودية بفعل الأمطار الموسمية الغزيرة التي تتعرض لها المنطقة[2]، ولا تقل هذه السيول عن فيضانات دجلة والفرات في قوتها وعنفها والآثار المترتبة على ذلك من جهة، وفي أهميتها من جهة ثانية حيث وفرت بيئة خصبة للحياة الزراعية وأرغمت السكان على إقامة السدود وإنشاء قنوات الري.

أما بالنسبة للوادي الذي شكله المجرى الأدنى لنهر النيل، هذا النهر الذي يعتبر أطول نهر في العالم حيث يبلغ طوله 6657 كلم وتقع منابعه في منطقة غزيرة الأمطار محاذية لخط الاستواء من الجانبين وهي منطقة البحيرات الإفريقية ويصب في البحر المتوسط وراء خط عرض 31 شمالاً[3]، ونتيجة لذلك فهو يجتاز نطاقات مناخية متعددة؛ استوائية ومدارية ومعتدلة. وبما أن النيل يجري من الجنوب إلى الشمال ومن منطقة غزيرة الأمطار إلى منطقة قليلة الأمطار فإن مياهه تقل كلما اقتربت من المصب، فقد كان هذا الوادي المحاذي لمجرى النيل الأدنى عبارة عن سهل رسوبي تكون مما حمله النهر من الطمى، وكانت الصحاري المرتفعة تحف وادي النيل المصري من الجانبين؛ فعلى الجانب الشرقي تمتد الصحراء العربية الضخمة أما على الجانب الغربي فتمتد الصحراء الليبية.

وفي مصر كانت الفيضانات التي تبدأ في شهر يوليو حتى نوفمبر تجدد خصوبة التربة كل عام بفضل ما ترسبه من الطمى[4]، ولكن إذا كان انتظام فيضان النيل قد جعل من الممكن استمرار وجود حياة مستقرة في مصر فقد كان يترتب على تذبذب كمية مياهه بين العام والآخر نتائج خطيرة، فإذا كان الفيضان الشديد الارتفاع يطغى على

---

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، دار العلم للملايين– مكتبة النهضة، ط2، بيروت، بغداد، 1976، ص: 172.

[2] عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب: مع دراسة جغرافية كاملة، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص: 63.

[3] علي حسن موسى، المرجع السابق، ص: 184.

[4] المرجع نفسه، ص: 186.

القرى والمدن ويقهرها فيغرقها فقد كان النقص في مياه الفيضان ينذر بحلول المجاعة والسنين العجاف.

وكانت تربة مصر السوداء الخصيبة تجود بأطيب الثمرات كالحنطة والذرة والقمح[1]، كما كانت مصر موطناً لغابات البردي ونخيل البلح، وقد كان الوادي غنياً بالأشجار الثمينة التي يمكن استخدام أخشابها، كما كانت الجبال المجاورة تتميز بوفرة الحجارة الصالحة للنحت والقطع وكانت جبال النوبة تحتوي على الذهب[2]. وكان مجرى النيل يشجع على الملاحة حيث كان يغلب عليه الهدوء فكان جريان النهر يحمل السفن هابطة فيما كانت السفن الصاعدة تجد في الرياح الشمالية السائدة . خاصة في فصل الصيف . عوناً لها. وكانت تنتشر في البيئة المصرية القديمة أنواع عديدة من الحيوانات كأفراس النهر والتماسيح والخنازير البرية وعدد كبير من الطيور البرية المختلفة أنواعها كما كانت الفيلة والغزلان ترتاد الواحات المجاورة وربما ظلت تعيش إلى غاية ما بعد ظهور المدنية أنواع متعددة من الحيوانات الوحشية كالأسود والوعل والغزلان والنعام وحمار الوحش..[3].

وفي سهل وادي السند ووادي الغانج في شمال غرب الهند كانت الظروف الطبيعية تشبه كثيراً ما كان يسود في مصر وأرض الرافدين، وتنحصر هذه السهول بين السلاسل الجبلية الشمالية العظيمة الارتفاع والتي من أهمها جبال الهيملايا وبين هضبة الدكن في الجنوب التي تمتد على شكل قوس كبير من البحر العربي حتى خليج البنجاب، وتتألف هذه السهول من سهول أودية الغانج وبراهما بوترا في الشرق والسند في الغرب[4]. لقد كان نهر السند يمد سهله الرسوبي بمياه الفيضان المخصبة في أول الصيف، وكان يستمد مياهه من ذوبان ثلوج الهيملايا. وتدل الاكتشافات الآثارية التي

---

[1] جوردون إيسيت، المرجع السابق، ص: *127*.

[2] جماعة من المؤرخين السوفيات، المرجع السابق، ص: *18*.

[3] جوردون إيسيت، المرجع السابق، ص: *149*.

[4] علي حسن موسى، المرجع السابق، ص: *240*.

ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد أن السكان كانوا يعيشون في حالة من الخوف الشديد من فيضانات النهر العنيفة[1].

وكما هو الحال بالنسبة لأنهار دجلة والفرات والنيل والسند فقد كان نهر هوانغ-هو (النهر الأصفر) في شمال الصين يكاد يمتلك نفس الخصائص الإيكولوجية لتلك الأنهار كما مر بنا آنفاً. وينحدر النهر الأصفر من الجبال الغربية (نان شان) ويجري في شمال الصين لمسافة 4640 كلم[2] حتى يصل إلى مصبه في البحر الأصفر. ونهر هوانغ-هو هو المسؤول عن تكون سهل شمال الصين العظيم، وتتكون تربة السهل من تكوينات سميكة من اللويس (وهو نوع من الطمى الدقيق الحبيبات حملته الرياح الغربية من الصحاري المجاورة) مما أدى إلى تكوين الأرض الصفراء الغنية بغذاء النبات[3]. وقد كانت فيضانات الهوانغ-هو مرعبة بالنسبة للسكان وتثير فيهم الخوف، إلا أنها مع ذلك كانت تتحكم في حياتهم، وقد كان عنفها يستحثهم على التحكم فيها.

بعد هذا العرض لظروف الإيكولوجيا في المناطق التي ظهرت فيها أولى النظم السياسية في التاريخ نستطيع أن نختبر فرضية دور العنف الإيكولوجي في نشأة النظام السياسي. في البداية نشير إلى أن الدولة تتأثر بمختلف المظاهر الإيكولوجية التي مر ذكرها، فالدولة تتأثر بموقعها الفلكي أي الموقع بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض أو كما يقولون الموقع المطلق[4] ولعل التحديد بالنسبة لدرجة العرض أهم منه بالنسبة لخطوط الطول، وذلك لأنه على أساس الدرجات العرضية يتشكل المناخ بوجه عام وكذلك النشاط البشري، وهي أمور حيوية تشترك في تشكيل اتجاهات الدولة. والملاحظ أن الدول التي ظهرت في العالم القديم ارتبطت بالمناطق المعتدلة (خريطة1). أما الموقع الجغرافي فهو المسؤول عن تحديد العلاقات المكانية لبيئة معينة بما يحيط بها من بيئات

---

[1] جوردون إيسيت، المرجع السابق، ص: *148*.

[2] جودة حسنين جودة، جغرافية آسيا الإقليمية، منشأة المعارف، الإسكندرية، *1985*، ص: *100*.

[3] جوردون إيسيت، المرجع السابق، ص: *158*.

[4] محمد عبد الغني سعودي، المرجع السابق، ص: *22*.

أخرى، وهو موقع متغير في تأثيره تبعاً لما يحدث من تغيرات تؤثر في هذه العلاقات المكانية، فمثلاً تتمتع البيئات البحرية بمرونة الاتصال بالعالم الخارجي مما يتيح لها سهولة التبادل والاحتكاك ولكن الدولة في بداية نشأتها أو في مرحلة تكوينها تحتاج إلى شيءٍ من العزلة وكلما كانت محاطة بمناطق منيعة كالبحر أو الصحراء كلما ساعدها ذلك على النمو والشموخ، إلا أنه عندما يكتمل نمو الدولة يكون لا بد لها من الاتصال الخارجي فتبرز أهمية الموقع المفتوح.

كما أن التركيب الجيولوجي هو المسؤول عن سهولة التعرف والوصول إلى الموارد المعدنية، وهو المحدد للخطوط العامة لتضاريس سطح الأرض فجريان الأنهار يرتبط من حيث السرعة والاتجاه بنوع سطح الأرض التي تجري فيها. ولا شك أن التضاريس بدورها تلعب دوراً كبيراً في مختلف مراحل تطور الدولة فالسهول تصلح لقيام نويات الدول، وفي الأرض السهلية يسهل تحقيق الوحدة السياسية على خلاف المناطق الجبلية التي عادة ما تعاني من الخلخلة السكانية إذ أن السكان عادة ما يتجمعون ويبقى سكان الجبال مبعثرين ويصعب بينهم الاتصال فيصبح نظام العشيرة هو النظام السائد، وإذا كتب لها أن تتطور تتخذ أشكال إمارات أو ولايات يتطلب التئامها في دولة واحدة فترة طويلة من الزمن ودرجة كبيرة من التقدم السياسي. ومن التأثيرات التي تتركها التضاريس في الدولة أن الكيانات والمجتمعات في المناطق السهلية تعيش في خوف دائم من الاعتداءات الخارجية مما يتطلب أكبر قدر من التنظيم الدفاعي. وإذا كان للإيكولوجيا تأثيرها المباشر في نشأة وتطور الدول فإن لها تأثيرات أخرى غير مباشرة عن طريق تأثيرها في عقليات الشعوب وفي معتقداتهم.

ولما كانت المجتمعات المستقرة القاطنة في البيئات الزراعية قد سبقت تاريخياً غيرها في معرفة النظم السياسية فإنه من الوارد أن تترك طبائع ومعتقدات تلك الشعوب بصماتها في النظم السياسية التي أنشأتها. وقد شكلت ظاهرة الدورية أو ذلك الانتظام المتكرر في الظواهر البيئية والكونية الخصائص الفكرية والروحية لشعوب تلك المناطق،

فقد جعلتهم يعتقدون في استمرارية وأبدية تلك الظواهر وبالتالي الاعتقاد في وجود قوى إلهية وراءها. على هذا الأساس فمن الطبيعي أن يتجه الفكر السياسي إلى ابتكار نوع من التنظيم يجمع في أصوله وفحواه بين تلك الظواهر الطبيعية والقوى الإلهية المتحكمة فيها من ناحية وبين ممثلي الناس (الحكام) من ناحية أخرى، فانبثق عن ذلك الاعتقاد في فكرة الملكية. هذا الربط بين سلطات الحكام وبين القوى الإلهية يمكن الرجوع به إلى المجتمعات الأولى التي يرى الأنثروبولوجيون أنها أخذت بهذه العقيدة السياسية، ولعل الاعتقاد في الطوطمية[1] Totemism كظاهرة اجتماعية سائدة في المجتمعات البدائية تعتبر دليلاً على أن الإنسان الأول قد عرف ظاهرة الربط بين شخوص الحكام وبين قوى الطبيعة وحملها معه حتى خلال عصور المدنية.

وقد ساعدت الظواهر الطبيعية الأخرى على بلورة القيم المرتبطة بمفهوم الملكية، فحياة النبات والحيوان والأنهار قد أعطت الإنسان القديم صورة ملموسة دفعته إلى ضرورة الاعتقاد بارتباط حياته ومستقبله بالقوى الكونية المسيطرة على العالم، وبضرورة وجود وساطة بينه وبين تلك القوى الإلهية لضمان استقرار حياته الدنيوية وحتى الأخروية فقاد ذلك الاعتقاد إلى الإيمان بسلطة الملك على أساس أنه أحق من يقوم بدور الوساطة لدى القوى الإلهية. وقد كانت الحاجة إلى الاستقرار والاطمئنان في مقدمة أولويات إنسان تلك الفترة بسبب ما عاناه من تجارب بيئية عنيفة سيما تجاربه مع الفيضانات المدمرة التي هددت كيانه فكان إيمانه واعتقاده بذلك النظام الذي وفر له الأمان والاطمئنان فأضفى عليه مسحات ألوهية اختلفت بطبيعة الحال من منطقة الأخرى.

---

[1] **الطوطم *Totem* هو كائن يكون على شكل حيوان أو نبات أو يشكل جزءَ من حيوان أو نبات أو هو كائن أو ظاهرة طبيعية أو رمز لهذه لهذه الأشياء يمثل الصفات المميزة لجماعة بشرية تعيش في مجتمع معين. والطوطمية هي الحالة التي تستعمل فيها الرموز الوثنية في تصنيف الجماعات الاجتماعية الواحدة عن الأخرى. عبد الهادي الجوهري، قاموس علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، ط*3*، الإسكندرية، *1998*، ص: *145*.**

الفصل الثاني

أسس نظام الحكم في الشرق القديم

تمهيد

تسعى الدراسة في فصلها الثاني هذا إلى تحديد القواعد النظرية والعملية التي شكلت ملامح النظم السياسية الشرقية القديمة. الاعتماد سيكون على النماذج الكبرى للدول التي تطورت بشكل طبيعي أو تكاد تكون كذلك عن مجتمعات ما قبل المدنية في كل من العراق ومصر والهند والصين واليمن، فقد عرفت هذه المناطق عبر تاريخها الطويل العديد من الدول وتعاقبت على عروشها الكثير من الحكومات التي تشترك جميعها في كونها تتبع الأسلوب الملكي الثيوقراطي في الحكم. فما هي يا ترى عوامل سيادة هذه الصفة عبر التاريخ السياسي للشَرق القديم؛ هل تعتمد في أساسها على عامل الرّضى والتقبل من المجموع، أم أن هناك عوامل أخرى كالقهر هي التي يستمد منها هذا النظام قوته وديمومته؟؟؟.

ما يميَز المُدن في المجتمعات الزراعية الشرقية القديمة هو وجود المعابد البارزة، وقد ينشأ بجوار المعبد قصر ملكي، لكن الغالب أن يكون المعبد أشد بروزاً وعلواً على القصر، فبناء المعابد ظاهرة ملازمة لنشأة وتطور المدينة في الشرق. لم يكن المعبد مكاناً للعبادة فحسب بل كانت له وظائف أخرى، كإدارة الأعمال الاقتصادية، ورصد الحسابات للداخل والخارج من الأموال، وفيه كانت تسجل الحوادث، كما كان المعبد مكاناً لممارسة مهنتي الطب والسحر. وكان يتولى الوظائف في المعبد جماعات الكهنة التي تتكون عادة من أذكياء الشعب وأوسع أفراده خيالاً. ومع مرور الوقت أصبح الكهنة طبقة متميزة عن بقية الطبقات الأخرى. وأمام تنامي الضرورات المعقدة للمجتمع الآخذ في النمو وما يتطلبه ذلك من وجود نظام حكومي، من الطبيعي أن يكون المعبد مهداً لظهور أول الحكومات في المجتمعات الشرقية القديمة بوصفه مركز التفكير والثروة، ومن الطبيعي كذلك أن تلقى هذه الحكومات الكهنوتية تقبّلاً من المجتمع نظراً لتجذر الخاصة الدينية وتقادمها في المجتمعات الشرقية، حيث أصبح النظام السياسي يستمد شرعيته من أساسه الديني بل وبمصدره الإلهي.

وليست الطبيعة واعتباطاتها وحدها هي التي ولّدت ذلك الاتجاه القدري الاستسلامي الذي نلمسه في الفكر الشرقي القديم والذي انسحب بشكل خاص على نظرة المجتمع إلى نظام الحكم، إذ نجد أن كافة السُّلط السياسية التي عرفتها المدنيات القديمة في الشرق عبر تاريخها الطويل ترتكز على أسس دينية، وكأن المجتمعات تملك الإيمان الكامل بأن سلطة الملوك جزء لا يتجزأ من سلطة الآلهة. بل لعل هذه الحالة الإيمانية بدينية النظام السياسي ترتد أيضاً إلى عهود من ممارسة العنف الذي كان له الدور الأكبر من الناحية العملية في تكريس وتوطيد مفهوم النظام الملكي ذي الصبغة الدينية.

المبحث الأول

الملك الإله في مصر

كانت مصر قبيل بداية عهد الأسرات تتألف من مجموعة من القرى التي كانت تنمو وتكبر على امتداد النيل وفي الدلتا إلى أن أصبحت تشكل مجموعة من النومات[1] (Nomes) المتمايزة التي أخذت بدورها تتحد فيما بينها مكونة مملكتين كبيرتين نسبياً: مملكة الوجه البحري (مصر السفلى)، ومملكة الوجه القبلي (مصر العليا). وقد ظل الصراع بين هاتين المملكتين مستمراً إلى أن تمكن ملك مصر العليا مينيس Menes حوالي عام 3200 ق.م من توحيد المصريين تحت سلطانه، مشيداً عاصمة جديدة لملكه في منفيس[2]. وهكذا بدأ عهد الأسرات[3] في مصر، والشيء الجديد هو هذا الفرعون[4] الذي ظهر فجأة وأصبح الملك الإله الذي وحد مصر كلها لأول مرة، وقد ظلت هذه الصفة الإلهية متسلسلة في كل الدول التي عرفتها مصر عبر تاريخها الفرعوني، فكيف نفسر اعتناق الإنسان المصري القديم لفكرة الملكية الإلهية؟.

---

[1] نوم *Nome* : تقسيم إداري في مصر القديمة: دائرة إدارية في اليونان الحديثة. سهيل إدريس، المنهل قاموس فرنسي عربي، دار الآداب، بيروت، ط31، 2003، ص:825.

[2] مدينة منف (منفيس): تقع إلى جنوب القاهرة الحالية غربي النيل، كان العامل الرئيس في اختيار موقعها كمركز للنشاط الحكومي في عصر بداية الأسرات هو توسطها بين الصعيد والدلتا، وسهولة الإشراف منها على شؤون الوجه البحري. ويذكر المؤرخون القدماء أن أحد فروع النيل كان يطغى على منطقتها فيجعلها كالمستنقع ويجعل أرضها أشبه بالجزيرة الطافية أو الأرض الناهضة، فعمد أول ملوك العصر الثيني إلى تحويل فرع النيل عنها ناحية الغرب، ثم شقوا قناة أخرى قربها ناحية الشمال، وبذلك جفت منطقتها وتوفرت لها حماية طبيعية مناسبة؛ النيل يحميها من الشرق، وفرعه من الغرب، والقناة الجديدة تحميها من الشمال، وفي نفس الوقت كانت مسورة بأسوار كبيرة، ولم يبق لها من المداخل سوى ناحية الجنوب التي تواجه الصعيد. نراجع: *H. R. Hall, the Ancient History of the Near East: from Earlest Times to the Battle of Salamis, London, 1963, pp. 121 - 123* .

[3] يعرف عصر الأسرتين الفرعونيتين الأولى والثانية (حوالي 3200– 2780 ق.م) بالعصر السيني (الطيني) أو العصر العتيق أو عصر بداية الأسرات. وقد ارتبط تأسيس الأسرة الأولى بثلاثة أسماء ملكية (نعرمر، عحا، منى)، ثم تتابع بعده ستة ملوك من أسرته (جر، واجي، دن، عنجاب، سمرخت، قاي عا). أما ملوك الأسرة الثانية فقد كان عددهم ثمانية على أقل تقدير (حوتم سخموي، نبي رع، ني نثر، برابس، ونج، سنج، خع سخم، خع سخموي). وهذا العصر هو عصر تكوين نظم الإدارة في مصر القديمة، وتنظيمات هذا العصر على الرغم من بساطتها فقد أصبحت أساساً لأغلب التنظيمات التي قامت بعدها وتطورت عنها، عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: 84.

[4] لقب الفرعون: عادة ما تنسب سلطات الفرعون العليا (التشريعية والإدارية والعسكرية والدينية) إلى قصره المسمى "برعو" أو "برنيسو"، وقد حرفتها اللغة العبرية لفظة "برعو" إلى "فرعو" ، ثم أضافت إليها اللغة العربية (نونها الأخيرة) فأصبحت "فرعون". وربما لم يكن للفظ فرعون في بدايته أكثر من تعريف اصطلاحي إداري كتب في صيغته المصرية "برعو" بمعنى البيت العالي أو القصر العظيم، ثم امتد بعد ذلك ليطلق على القصر والملك، فشاع لقب فرعون مع الاسم الشخصي لكل ملك مصري. عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: 84.

في البداية تمكن محاولة الربط بين بيئة مصر القديمة وبين نظرة قدماء المصريين إلى الملك، فقد كانت مظاهر الانتظام واضحة في المعالم الطبيعية وفي الظواهر الكونية في البيئة المصرية القديمة، لهذا فقد اتجه المجتمع المصري المعتمد أساساً على حياة الزراعة، إلى اعتبار نفسه مثالاً للعالم المحيط من حوله وما يتميز به من خصائص الدورية والانتظام، كدورة الحياة والموت مثلاً، فتكرست لديه عقيدة الخلود، ولم يقتصر اعتقاده في إيمانه بالقوى الخفية المتحكمة في العالم المحيط به، بل تعدى ذلك إلى ربط عقيدة الخلود بالإنسان ذاته فأكسبوها ذلك الملك الذي وفر الطمأنينة لأفراد الشعب. وقد كان موقع مصر الجغرافي الذي يقع بين صحراوين كبيرتين من جهتي الشرق والغرب، والبحر الأبيض المتوسط من الشمال، وكذلك الجنادل في نهر النيل التي تشكل عوائق ملاحية في الجنوب. هذا الموقع جعل مصر تتمتع بنوع من العزلة أو بالأحرى الحماية، وهو يترك في نفس ذلك المصري القديم إحساساً بنوع من الأمن إزاء التهديد الخارجي. هذه الطمأنينة دفعت المصريين القدماء إلى الربط بين المجتمع والقوى الكونية، فقد نظر إلى العمل الذي حققه مينيس على أنه حدث إلهي دبرته الآلهة وهيأت له الأسباب[1]. لقد ارتبط ظهور الدولة في مصر بحروب التوحيد التي قام بها الفرعون مينيس، والتي انتهت بتوحيد مصر السفلى ومصر العليا، ومنذ تلك اللحظة بدأ المصريون يربطون بين ذلك الانتصار السياسي وبين بداية تاريخهم ونظروا إلى ما قام به مينيس على أنه أمر تدعمه الآلهة. إلا أن هذا التأسيس الديني كان بعدياً عملت الأساطير على تحويله إلى حقائق وأدخلته في المعتقد الديني.

يبدو من الآثار التي تعود إلى عهد الملوك الأول من الفراعنة أن نشأة الدولة الموحدة عرفت ولادة صعبة تطلبت التغلب على الصراعات المحلية بين الأربعين حاكمية التي انتظمت في الأخير ضمن إقليمي الوادي والدلتا المتصارعين. وقد بدأ الفنان المصري يسجل أحداث هذه الفترة من الصراع السياسي، حيث مكنت الآثار

---

[1] أندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص: 44.

العائدة إلى عهد الملك المسمى نعرمر من تمييز مرحلتين بارزتين في عهده: الأولى واصل فيها كفاح أسلافه لضم الدلتا إلى سيطرة الصعيد، والثانية استمتع فيها بنتائج جهوده الحربية بعد أن حقق وحدة البلاد كاملة تحت حكمه. ومن الآثار التي تجسد الفترة الأولى "نقش يصور اسمه "نعرمر" على هيئة سمكة وصورة إزميل، وصورة السمكة "نعر" وهي المقطع الأول من اسمه بيدين بشريتين تمسك عصى ضخمة تكاد تهبط بها على رؤوس مجموعة من الأسرى الموثقين بالحبال، وفوق اسم الملك سجل الفنان رمز المعبود "ست" (رب الصعيد القديم) ورمز المعبود "حور" (رب الدولة القائمة) ورمز الإلهة "نخابة" (ربة الكاب[1]) ليؤكد التقارب بين المعبودات الثلاثة ويؤكد مؤازرتهم للملك في حربه"[2]. ومن بين الآثار التي تعطي صورة عن التوسع الكبير الذي قام به نارمر (نعرمر) على حساب أراضي الدلتا نُصبه الكثيرة، ومنها نصب ربما يمثل آخر مرحلة من مراحل الحرب بين الدلتا والصعيد حينما تمكنت الصعيد من الانتصار على الدلتا وضمها تحت سلطتها، "على أحد جانبي اللوحة يظهر نعرمر اللابس لتاج مصر العليا وهو يحطّم زعيماً من زعماء المستنقعات الشمالية وعلى جانبها الآخر تم تصوير الملك يلبس تاج مصر السفلى يستعرض عدداً من رؤوس القتلى"[3]. ومن الوارد جداً قبول ما قدمه البعض بشأن بعض الأسماء التي برزت في الآثار العائدة إلى عهد الأسرة الأولى (نعرمر، وعحا، ومنى) أن هذه الأسماء الثلاثة لا تعدو أن تكون ألقاباً أطلقت على شخص واحد هو الملك مينيس، وقد أتى إطلاقها تبعاً لمراحل تاريخه السياسي؛ فقد بدأ حكمه باسم "نعرمر"، ثم تلقب بلقب "عحا" (أي المحارب) لما لجهوده الحربية من دور في توحيد البلاد، وأخيراً أطلق عليه اللقب "منى" (مينيس) (ومن

---

[1] الكاب: اسم مدينة نخب مقر عبادة الإلهة نخابة (نخبت)، أنثى النسر. تنظر: رشيد الناضوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، الكتاب الثالث: التطور التاريخي للفكر الديني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976، ص: 208.

[2] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: 79.

[3] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: 106.

دلالاتها المثبت أو الراعية أو الخالد) تنويهاً بنجاحه في توحيد المملكة وتوطيد حكمه[1]. وقد كانت هذه الحقبة ذات أثر كبير في التاريخ المصري في العهود اللاحقة التي وإن طبعها السلم في أغلب الأحيان إلا أن آثار الانقسام ظلت موجودة.

لقد استمرت البلاد لفترة من الزمن ليست بالقصيرة تعرف إدارتين مختلفتين، وإن كانت ملامح الانقسام قد أخذت في الانمحاء إلى أن زالت نهائياً، رغم أنه تم الحفاظ عليها من خلال الرموز والشارات والتقاليد المميزة للملكية؛ فقد كان يرمز إلى المملكة المتحدة بتاج يتكون في حقيقته من تاجين حيث يكون تاج الجنوب الأبيض المستدير الشكل في الأعلى يرتكز على قبعة الشمال الحمراء، يعلوها من الوراء عمودين من السيخ تزينه من الأمام ريشة لولبية الشكل[2]. وفي هذه الازدواجية على مستوى تاج المملكة إشارة إلى المملكتين اللتين اتحدتا في مملكة واحدة، كما تحمل كذلك أبعاداً سياسية توحيدية. فظهور الدولة في مصر إذن ارتبط بظروف الحرب، فقد كانت انتصارات مينيس العسكرية هي التي مكنته من أن يكون أول ملك يحقق الوحدة للمصريين ولذلك صاروا يربطون بينه وبين القوى الإلهية فيما بعد عن طريق الأساطير، فاختلط التاريخ بالميثولوجيا.

كان الدين يؤدي دوراً كبيراً في حياة المصريين القدماء، والديانة المصرية القديمة ترجع في أصولها إلى عصور ما قبل التاريخ، وقد ظلت هذه الديانة تتطور بشكل طبيعي، وكانت تستمد عناصرها الأولى من البيئة الطبيعية، خاصة من عناصرها التي كانت تترك أثرها في نفس المصري القديم، فكان يتقرب إلى هذا العنصر أو ذاك حباً وولاءً أو خوفاً ورهبة، فقد نظر إلى بعض الكائنات على أن لها قدرة خارقة على الخلق والدوام، وأن لها قوة فائقة في القضاء على غيرها، فنجدهم مثلاً يقدسون الثور لقدرته على الإخصاب والإنجاب، واللبؤة لقدرتها على البطش والقوة وبعض الأشجار التي رأوا أن لها صفة الثبوت والاستمرار. وقد نسب المصري القديم نفسه إلى هذه العناصر

---

[1] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *84*.

[2] أندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص: *45*.

الطبيعية القريبة منه، فنشأت الطواطم، حيث كانت بعض الجماعات تتخذ حيواناً أو نباتاً معيناً فتضفي عليه هالة من التقديس، متخذة إياه لها رمزاً وطوطماً[1].

وعندما أخذت البلاد تسرع الخطى على درب تطورها السياسي، حيث تطورت القرى إلى عدد من المقاطعات، بدأ الفكر الديني في الاستقرار واتضحت ملامحه أكثر من ذي قبل، حيث أصبح لكل مقاطعة إلهها الخاص. وحينما أخذت هذه المقاطعات تتطور نحو الاتحاد؛ مروراً بتمايزها إلى مملكتين، وصولاً إلى المملكة المتحدة، أصبحت كل مقاطعة تسعى إلى الرفع من شأن معبودها على حساب باقي معبودات المقاطعات الأخرى، فظهرت الأساطير المكرسة لهذا الغرض. وكان من نتيجة هذا الصراع بين آلهة الأقاليم المصرية القديمة أن ارتفع بعضها كإلهة السماء نوت Nut وكان يرمز لها بصورة بقرة كبيرة يرفعها الإله شو Shu (إله الهواء) أو في شكل قوس فوق الأرض، وكإله الشمس رع Re ومن رموزه قرص الشمس وقد يرمز إليه بشكل جعل، وكإله القمر ويصور بشكل الطائر أبيس أو القرد أحياناً، وكإله الأرض جب Geb، وقد ظل بعضها مجرد آلهة محليين ثانويين كإله الموسيقى والرقص والشؤون المنزلية بس Bes، وقد تبوأ بعض الآلهة المحلية مكانة رفيعة على المستوى الرسمي للدولة كالإله "حورس" وهو إله السماء ويصور في شكل صقر، وكالإله "رع" والإله "بتاح" (إله مدينة منف) والإله "اوزيريس" (إله العالم الآخر) والإله "آمون" والإله "أتون"[2].

وقد عملت الفلسفة السياسية على استغلال التراث الديني ومسايرة التطور الهائل الحاصل في العقائد الدينية في سبيل تكريس النظام السياسي، حيث فرضت شعائر جديدة اعتبرت الفرعون، ابتداءً من مينيس، سليل أوزيريس[3] Oziris وحورس Hors بل

---

[1] محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، *1981*، ص: *64*.

[2] رشيد الناضوري، المرجع السابق، الكتاب الثالث، ص: *66* ، *84* ، *93*.

[3] تنسب إلى أوزيريس إحدى أقدم أساطير الدراما المعروفة في العالم القديم "أسطورة أوزيريس". شخوصها بمثابة رعيل أول يجمع بين الألوهية والبشرية في أعقاب انفصال السماء عن الأرض. تعتبر الأسطورة أن أوزيريس كان ملكاً على البشر يعدل بينهم ويهديهم إلى ما يصلح أمرهم، إلا أن أخاه "ست" نقم عليه منزلته فكاد له فقتُل أوزيريس بيد أخيه ست ورماه في البحر، إلا أن "ازيس" ظلت وفية لزوجها الشهيد، وظلت تبحث عنه إلى أن وجدته فأعادته إلى الحياة مؤقتاً ، فحملت منه فوضعت طفلها "حور" (حورس) الذي ربته سرّاً، ولما

أكثر من ذلك تقمص الجانب الإلهي فيهما. فلم يكن الفرعون إنساناً بالمعنى المعروف ولم يكن ملكاً نائباً عن الإله بل هو إله بمعنى الكلمة، لكن هذا الإله صاحب مهمة أرضية تفرض عليه أن يتجسد على شكل إنسان فيحكم الناس بالعدل، ثم بعد أن تنتهي مهمته يعود إلى عالم الآلهة ليعيش معهم[1] بل إن المصريين . حسب توينبي . كانوا يقبلون عقيدة بدائية همجية، وهي أن الفرعون سيلهم في الواقع رفاقه من الآلهة وبذلك يستولي على قوتهم[2] .

ومن الأدلة التاريخية على أقدمية اعتقاد المصريين في ألوهية ملوكهم ما ورد في نص حجر بالرمو الذي يستدل منه على أسماء ملوك الوجه القبلي الذين حكموا قبل بداية العصر التاريخي وكانوا يعتبرون أنصاف آلهة، الذين جاؤوا بعد الأسرات الإلهية الحاكمة[3]، كما يظهر من النصب التي تركها الملكان سكوربيون و نارمر بعض الدلالات الدينية؛ ففي صولجان نذري يظهر سكوربيون عند مدخل قناة وهو يلبس التاج الطويل الأبيض الذي كان يرمز في الأزمنة التاريخية إلى السيطرة على مصر العليا، وفوق هذا المشهد تظهر شعائر آلهة موضوعة على قواعد تستخدم أعواداً لعصافير الريخت، وحسب فرانكفورت فهذه العصافير تمثل سكان مصر السفلى، ولعل سكوربيون تمكن من إخضاع كامل وادي النيل لأن نصبه وجدت عند مقالع طورة قرب القاهرة، وهو أصلاً كان قد طلع من مصر العليا[4]. وثمة أدلة ذات طابع أسطوري وإن كان من الممكن أن يكون لها أساس تاريخي، منها ما ورد في بردية تورين من أن حكام مصر

شب حورس ثم بلغ مبلغ الرجولة، خرج ذات مرة ليرى أباه فوجده. وكانت ازيس قد بدأت تشهر ب"ست" القاتل بين الأرباب والناس، فعقدت محكمة في هيليوبوليس (عين شمس) يرأسها جب، حيث أنكر ست مقتل أوزيريس، وحيث برز السؤال عما إذا كان حورس وارث أبيه الحق. وكانت ازيس في كل مرة تشهد عن أبنها بأخذه إلى صدرها، ثم أُعلن حورس ملكاً بأن نادت المحكمة به, وينتهي جوهر الأسطورة إلى أن أصبح أوزيريس إلهاً مقدساً باعتباره يمثل الخير والحق. صمويل كريمر، أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد عبد الحليم يوسف، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، الهيأة المصرية العامة للكتاب، *1974*، ص: *59*.

[1] خزعل الماجدي، ميثولوجيا الخلود: دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، عمان–الأردن، *2002*، ص: *35*.

[2] آرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ج*1*، نقله إلى العربية: نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، *1981*، ص: *81*.

[3] نبيلة محمد عبد الحليم، معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ت، ص: *22*.

[4] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: *105*.

في فترة ما قبل الأسرات كانوا يلقبون بالأرواح الهائمة أو أتباع حور[1]. وفي عهد الدولة القديمة (حوالي 2700 – 2200 ق.م) الذي امتد من الأسرة الثالثة (حوالي 2700 – 2625 ق.م) إلى الأسرة السادسة (حوالي 2460 – 2200 ق.م) تكرست فكرة ألوهية الملك وظل الفرعون ينظر إليه دوما على أنه أحد الآلهة، بيد أنه منذ الأسرة الخامسة (حوالي 2510 – 2460 ق.م) أصبحت ألوهية الملك تستمد من كونه ابناً للإله رع في هيليوبوليس[2] (الذي أصبح منذ هذه الفترة الإله الرسمي للدولة بدل حورس)، ولم تكن أم الفرعون تلده نتيجة لفعل جنسي مع أبيه الرجل بل نتيجة فعل غير طبيعي يقوم به الإله[3]. وهكذا أصبح الملك يتخذ لنفسه لقب ابن الإله رع فاقترن اسم الملك باسم الإله رع مثل ساحورع ونفرأبركارع وني أوسررع. وفي عهد الدولة الوسطى (حوالي 2050 – 1674 ق.م) عندما نجحت طيبة في إعادة الوحدة مرة أخرى لمصر تحت حكم أمنحوتب الثاني تمت تقوية السلطة الدينية للملك. غير أن بنوة الملك للإله آمون سوف تجد أبهى صور التعبير عنها مع بداية حكم الأسرة الثامنة عشرة (1552 – 1295 ق.م) أي منذ قيام الدولة الحديثة (1552 – 1096 ق.م). فقد تمكن ملوك الأسرة الثامنة عشرة من طرد الهكسوس[4] والتوسع شرقاً حتى مشارف نهر الفرات، وطبيعي أن ينسبوا هذا الانتصار

---

[1] نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص:*23*.

[2] هيليوبوليس أو أونو (عين شمس)، نسب إلى فلاسفة هذه المدينة الخروج بأقدم مذهب ديني لتفسير نشأة الوجود، رد أصحابه عناصر الكون وأسباب عمرانه إلى تسعة أرباب، وتخيلوا فيما سبقها محيطاً مائياً أولياً لا حس فيه ولا حياة يسمى "نون" ومن هذا المحيط الأول ظهر الإله الخالق "آتوم" الذي أوجد نفسه بنفسه وعاش فريداً حتى ذرأ من نفسه عنصرين ذكراً وأنثى وهما "شو" روح الهوى والفضاء والنور، و "تفنوت" روح الرطوبة والندى. وتولد عن اجتماع هذين العنصرين ذكر وأنثى قدسيان آخران وهما "جب" رب الأرض و "نوت" ربة السماء، وظل الأخيران متصلين حتى أذن الخالق بانفصالهما، فرفع شو السماء بربتها وملأ الأرض بنوره وأنفاسه، وذلك بعد أن تولد عن إلهي الأرض والسماء في فترة اتصالهما أربعة أبناء ذكران وأنثيان: أوزيريس وست، و إيزيس ونفتيس . ومثل هؤلاء الأربعة الرعيل القدسي الأول الذي جمع بين الألوهية والبشرية، والذي بدأ في تنظيم عمران الكون.عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *70*.

[3] آرنولد توينبي، تاريخ البشرية، المرجع السابق، ص: *87*.

[4] الهكسوس: أصل التسمية (حقاوخاسوت) وهم الإسم الذي أطلقه المصريون على حكام الشعب الذي غزا مصر من الشرق في التاريخ المذكور أعلاه ، وتسمية (حقاوخاسوت) وردت بمعنى (ملوك الرعاة) أو (حكام البراري) وقد حورها بعض المؤرخين الإغريق إلى (هكسوس) . فتسمية الهكسوس في أصلها لا تعبر عن شعب أو قومية معينة بقدر ما تعبر عن صفات معينة لمجموعة من الحكام. ولا يزال أصل الهكسوس يطرح مشكلة اختلفت حولها الآراء، ولعل الرأي المقبول هو أن هجرة الهكسوس إلى مصر كانت ذات صلة بتحركات بشرية كبيرة هاجرت تباعاً من سهوب أواسط آسيا تحت ضغط الظروف الطبيعية والبشرية منذ أوائل الألف الثانية قبل الميلاد ، ثم تدفقت على فترات متقطعة طويلة إلى شرق أوربا من ناحية، وإلى الأناضول وأراضي الهلال الخصيب من ناحية أخرى. وقد اختلفت وسائل

العظيم لعناية الآلهة ومؤازرتهم وفعلاً فقد عزوه للإله آمون رع، وبدأت تنهال على معابده في طيبة الكم الهائل من القرابين من مصر ومن المناطق المفتوحة، وقد اتبع المصريون طرقاً جديدة في التعبير عن بنوة ملوك هذه الفترة للإله آمون حيث راحوا يرسمون على جدران المعابد بصورة حسية ذلك الاتحاد الحسي بين آمون والملكة؛ ففي معبد الملكة حتشبسوت بالدير البحري وكذلك في معبد منتوحتب الثالث بالأقصر، تم تصوير مولدهما الرباني عن طريق اتصال الإله آمون جنسيا بوالدتيهما وإنجابه لهما من صلبه[1]. وقد غالى فراعنة الدولة الحديثة في إغداق الهدايا من الأموال على المعابد سيما معبد الإله آمون في طيبة، إلا أن ذلك كاد ينقلب نقمة على سلطة الفرعون الذي أخذ يتوجس خيفة من الكهنة الذين بدأ سلطانهم ونفوذهم يتعاظم، الأمر الذي دفع أمينوفيس الرابع (1424– 1338 ق.م) إلى التدخل ضد كهنة طيبة، والعمل على إحداث إصلاح ديني حيث ألغى المقدسات وأغلق جميع المعابد وأعلن ديانة التوحيد التي تتخذ من إله الشمس "آتون" إلهاً واحداً، وتلقب أمينوفيس بلقب جديد هو "أخناتون" (أي ذلك الذي يروق لآتون) (أو المفيد النافع) وغادر طيبة مدينة آمون رع، وجعل عاصمته تل العمارنة[2]. والسؤال الذي يستوقف الباحث هنا هو ما هي الأبعاد السياسية لثورة أخناتون؟.

لقد وضع البعض الثورة الآتونية في مرحلة فكرية من أسمى وأعمق مراحل الانبثاق الفكري الإنساني العميق[3]. وعد البعض أخناتون فيلسوفاً ومصلحاً دينياً رفض

تحركاتها ونتائج هجراتها من عهد إلى عهد ومن أرض إلى أرض ، كما اختلفت الأسماء التي عرفها التاريخ باختلاف الظروف التي ظهرت على مسرح الحوادث فيها، واختلاف الأسماء التي عبر بها أهلها عن أنفسهم أو عبر بها عنهم أهل البلاد التي دخلوها . فقد عرفها بعض المؤرخين باسم عام (الآريون) أو (الهندوربيون) وعرفته مصادر بلاد ما بين النهرين باسم (الكاسيين) أو (الكاشيين)، وعرفته مصادر آسيا الصغرى باسم (الخائيين) أو (الحيثيين)، وعرفوا في شواطئ الفرات العليا والمناطق السورية الشمالية الشرقية باسم (الحوريين)، وأطلقت عليهم بعض المصادر الإغريقية تسمية (الآخيين). عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *207*.

[1] محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص: *29*.

[2] جماعة من المؤرخين السوفيات، المرجع السابق، ص:*20*.

[3] رشيد الناضوري، المرجع السابق، الكتاب الأول: مرحلة التكوين والتشكيل الحضاري والسياسي من العصر الحجري الحديث حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، ص: *69*.

أن توضع صورته في الوضع التقليدي الذي وضعت فيه صورة كل من سبقه من الفراعنة، أي أنه الفرعون الذي أبى أن يكون رباً[1]. ومهما يكن فإن الذي يهمنا هنا هو الأبعاد السياسية لثورة أخناتون، فقد كانت هذه الثورة في بداية ظهورها ردة فعل على تعاون نفوذ كهنة آمون رع في طيبة، ونتيجة لما تعرض له من مقاومة شديدة من قبل الكهنة، ولما لاقاه من عدم الاستجابة من قبل الشعب لجأ أخناتون إلى اضطهاد الكهنة ، وتمادى في الإخلاص لمشروعه، فكان ذلك سبباً في إهماله النفوذ المصري في الخارج[2]. وأخناتون إن كان خرج على التقليد الذي يجعل من الملك ابناً للإله عن طريق الزواج، فإنه مع ذلك لم ينف بنوته للإله آتون الذي نادى بعبادته كرب لا شريك له، بل اعتبر نفسه صورته ونبيه دون وسيط، فقد ورد في النص الذي يعتبر أساس المعتقد الآتوني المعروف باسم " أنشودة آتون": "... وعندما تشرق ثانية كل شيء ينتعش لأجل الملك ... حينما خلقت الأرض ورفعتهم من أجل ابنك، الذي نتج عن جسدك: ملك مصر العليا والسفلى ... أخناتون، ... والزوجة الرئيسية للملك... نفرتيتي، حياً وشاباً لأبد الآبدين ..."[3]. ما نود الوصول إليه أن ثورة أخناتون لم تكن لها مغزى كبيراً من المنظور السياسي. فقد ظل أخناتون ابناً للإله وصورته، وإذا ما أضفنا إلى ذلك قصر الفترة الزمنية التي سادت فيها النظرية الآتونية حيث لم يتجاوز حكم أخناتون ثمانية عشر عاماً انقضى معها مشروعه دون رجعة ليخلفه "توت عنخ آمون" زوج ابنته، ولتبدأ العودة إلى العقيدة الطيبية القديمة، ولتعود طيبة عاصمة للدولة وللإله آمون رع.

ولما كان النظام السياسي يقوم على مبدأ تفويض السلطة للفرعون الإله، فقد انعكس ذلك على كل الجوانب المتعلقة بالحياة السياسية، كحياة الملك ونظام ارتقاء العرش والإدارة المركزية والإقليمية. فكانت السلطة تنتقل بالوراثة إلى الابن البكر في

---

[1] هربرت جورج ولز، معالم تاريخ الإنسانية، م1، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1967، ص: 217.

[2] *Donald Kagan, Problems in Ancient History: the Ancient Near East and Greece, Vol. One, the Macmillan Company, London, 1970, pp. 36 – 52.*

[3] رشيد الناضوري المرجع السابق، الكتاب الثالث، ص: 97.

أغلب الأحيان، وكان الملك الجديد يتسلم شارات الملك خلال حفلة التتويج التي تتم بسلسلة من الطقوس والأدعية ليدخل الملك بين مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم[1]، وقد ظلت حياة الفرعون على مر الأيام حياة إله وابن إله يحيطه الجميع بمظاهر الإجلال والقدسية. وكان يحكم بمراسيم توضع موضع التنفيذ كأنها قرارات موصى بها، وكانت حكومته تتسم بطابع بطريركي، حيث كان الأبناء والأقارب الأدنون للفرعون يعملون مستشارين ومعاونين رئيسيين، أما الأقارب الأبعدون وأبناء الحكام السابقين فكانوا في مراكز حكومية ثانوية. وكان إلى جانب الملك وزراؤه وهم بمثابة رؤساء الدواوين[2]. وعلى المستوى الإقليمي كانت البلاد مقسمة إلى حوالي أربعين محافظة لكل محافظة حاضرتها المركزية (المتروبول)، كان الملك يمنح إمارتها إلى المقربين من رجاله، ولو أنها كانت في بعض الأحيان تنتقل الولاية فيها بالوراثة[3]. لقد كان الملك يمثل مركز الدائرة في النظام السياسي في مصر القديمة.

مهما يكن للدين من دور في الحياة السياسية فإنه لم يخف تماماً ذلك الأساس القوي الذي ظل يشكل إحدى الدعائم الأساسية للنظام الملكي في مصر القديمة ألا وهو العنف، على سبيل المثال فقد تعرض الفرعون أمنحوتب الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة التي ابتدأت معها فترة الدولة الوسطى، تعرض لمؤامرة دبرها بعض وزرائه ومستشاريه، وعندما تمكن أمنحوتب المذكور من القضاء على هذه المؤامرة بطش بالمتآمرين، والشيء المهم هنا أنه ترك لابنه وثيقة تحوي نصيحة هي في الواقع قاعدة الحكم المطلق جاء فيها:

"... استمع إلى ما سأقوله لك
حتى تكون ملك الأرض
وتزيد فيها الخير

[1] أندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص: 47.

[2] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: 140.

[3] محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص: 59.

اقس على جميع من هم دونك

فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم

ولا تقترب منهم بمفردك

ولا تملأ عليك بالمودة لأخ

ولا تعرف صديقاً ...

وإذا نمت فاحرس بنفسك قلبك

لأن الإنسان لا صديق له في أيام الشر"[1].

ومهما يكن للعنف من دور في تكريس النظام الملكي في مصر القديمة، حيث عرفت الملكية الثيوقراطية التطبيق الفعلي لها من قبل الفراعنة، فإن درجة إيمان المصريين بهذه العقيدة السياسية الدينية وتقبلهم لها كان في مقدمة عوامل استمرارية هذا النظام الملكي الإلهي. بيد أن الفضل في ذلك يعود بالدرجة الأساس لمنظري الفلسفة السياسية الفرعونية الذين عرفوا . وعبر مختلف مراحل التاريخ السياسي الفرعوني . كيف يطوعوا الدين ويقيسونه على قامة الفرعون!.

المبحث الثاني

الملك نائب الإله في بلاد الرافدين

خلافاً لما ألفناه في مصر فإن بلاد الرافدين لم تكن محصورة ضمن حدود طبيعية، إذ أن الصحاري المحيطة بها كانت أقل عداوة للإنسان من تلك التي تحف بمصر من الشرق والغرب، كما كانت بلاد ما بين النهرين تتصل بأقطار أخرى تناسب حياة الإنسان، لهذا فقد كان تاريخها القديم مرتبطاً بالتفاعل المحلي والأجنبي، سواءً تم ذلك عن طريق الهجرات أو عن طريق الحروب، وسواءً كانت هذه التحركات البشرية

[1] ول ديورانت، المرجع السابق، م1/ج2، ص: 75.

من أو إلى بلاد الرافدين. ولم يحل ذلك دون وجود نوع من الوحدة والاستقلالية ميزت الحضارة العراقية القديمة، نلمس ذلك في ميادين عدة كالدين والسياسة، ففي مختلف الدول التي قامت في هذه المنطقة كان للدين حضوره في حياة المجتمعات والدول. وعلى مستوى النظام السياسي فالملك في أرض الرافدين وإن لم يحمل صفة التأليه كما مر بنا بخصوص فراعنة مصر، إلا أنه ظل حريصاً على التشبث بصفته نائباً عن الإله.

بدايات ملامح الدولة في بلاد الرافدين أخذت في التشكل منذ عهد ما قبل الأسرات، حيث أمكن التمييز بين ثلاث حقب خلال عصر ما قبل الطوفان[1]: حقبة العُبيد (حوالي 3900 – 3600 ق.م)، وحقبة أوروك (3800 – 3200 ق.م)، وحقبة جمدة نصر (3200 – 3000 ق.م). وقد كانت حاضرات هذه الحقب مراكز للتطور قادت إلى ولادة ما يعرف بالمدن–الدول السومرية مع مطلع الألفية الثالثة قبل الميلاد، وقد توزعت هذه الدويلات في أنحاء الجزء الجنوبي من العراق. ويبدو من دراسة الطبيعة الجغرافية للمنطقة . حسب ما مر بنا في الفصل السابق . أنه كان للبيئة الطبيعية القاسية أثر فاعل في نشوء تلك الدويلات وتعددها، فأرض جنوب العراق أرض مستنقعية وهي أرض رسوبية ذات خصوبة عالية، غير أنها مهددة دائماً بأخطار الفيضانات المدمرة، إضافة إلى ذلك فهي أرض مفتوحة أمام الأقوام الغازية من الشرق والغرب. وهكذا كان على الإنسان العراقي القديم إما أن يواجه تلك التحديات، ويعمل على تكاتف الجهود لبناء السدود وشق الترع وتشييد المدن والأسوار، أو أن يكون فريسة سهلة لقسوة التحديات، وهكذا نشأت أولى الإدارات المركزية لتجميع الجهود وتنسيقها، فكونت بذلك أول حكومات عرفها التاريخ.

---

[1] الطوفان: اعتقد الأقدمون أنه وقع في عصر موغل في القدم، وأنه كان كونياً شمل العالم القديم كله. وقد أولت الآداب العراقية القديمة وكذلك التاريخ اهتماماً خاصاً لظاهرة الطوفان، وقد جاء ذكر الطوفان في كثير من النصوص المسمارية، ففي قائمة الملوك السومريين يذكر المؤلف أنه في البداية عندما أنزلت الملوكية من السماء كانت أولاً في مدينة أريدو ثم انتقلت إلى بادتبيرا ومنها إلى شروباك، ثم جاء الطوفان فاكتسح الأرض، وبعد أن انتهى نزلت الملوكية ثانية في مدينة كيش. وقد عرفت ثلاث ملاحم أو قصص عن الطوفان في وادي الرافدين: ملحمة زيوسدرا بطل قصة الطوفان الذي أنعمت عليه الآلهة بالخلود، ويناظره في القصة الثانية بطلها "اتراخاسيس"، وفي القصة الثالثة "أوتنابشتم" بطل قصة الطوفان في ملحمة جلجامش. فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، الأهلي للطباعة والنشر والتوزيع، ط*1*، دمشق، *1999*، ص: *164*.

وقد استمرت هذه المدن متعايشة، غير أن تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية دفعت إلى محاولات لتوحيد الدول الفسيفساء، وقد جاءت اللحظة التي كادت فيها هذه المحاولات تؤتي أكلها، وذلك عندما اعتلى العرش في مدينة أوروك لوغال زاغيزي (2378 – 2371 ق.م) حيث تمكن من بسط سيطرته على أغلب مدن بلاد سومر واستتب له الأمر، إلا أن طموحه ما فتئ أن تحطم أمام ملك قوي من خارج الكيانات السياسية السومرية ألا وهو سرجون الأكادي (سرجون الأول أو سرجون الكبير) الذي وحد تلك الدويلات في دولة مركزية قوية هيمنت على أرض العراق من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب بل امتد نفوذها إلى الأراضي المجاورة لتشمل بلاد عيلام[1] وأجزاء من سوريا وآسيا الصغرى[2]. وبسقوط الأسرة السرجونية حوالي مبتدأ عام 2200 ق.م احتل الغوتيون[3] البلاد، إلا أن السومريين نهضوا من جديد وتمكنوا من طرد الغوتيين على يد ملك أوروك المسمى أوتوكيغال (2120–2113 ق.م)، ثم على يد الملك أورنامو (2113 – 2095 ق.م) مؤسس أسرة أور الثالثة (2113 – 2006 ق.م)، ليبدأ العصر السومري الجديد الذي انتهى باحتلال العيلاميين لسومر.

---

[1] **عيلام: اسم كان سكان ما بين النهرين يطلقونه على تلك المنطقة من بلاد انشان (إيران) الواقعة إلى الشرق مباشرة من الجزء الجنوبي من نهر دجلة وهي عبارة عن هضبة عالية تكتنفها من الشرق جبال إيران ومن الغرب مستنقعات دجلة. وكلمة عيلام تعني "البلاد العالية" وفيها كان يعيش شعب من الشعوب الأولى شارك شعوب بلاد الرافدين القديمة وجودهم، ومن أهم مدنهم: سوسة وهي حاضرة عيلام الرئيسية، آرنولد توينبي، تاريخ البشرية، المرجع السابق، ص: *86*.**

[2] **طه باقر، المرجع السابق، ص: *406*.**

[3] **الغوتيون: الذين قضوا على السلالة الأكدية كانوا من أقوام جبال زاغروس المتاخمة لحدود العراق الشرقية مع بلاد إيران، ولا يعلم على وجه التأكيد هل كانوا من الأقوام الهندوربية فإن أولئك الغوتيين لم يخلفوا وثائق مدونة بلغتهم فلا يعرف عن لغتهم شيء سوى أسماء ملوكهم الواردة في أثبات الملوك السومرية، أما موطنهم الذي استقروا فيه فقد كانوا يجاورون اللولبيين إلى جهة الجنوب (أي جنوب منطقة شهرزور) التي كانت موطن أولئك اللولبيين الذي شمل أيضاً المناطق الجبلية جنوب الزاب الأسفل. واستمر ذكر الغوتيين في مآثر حضارة وادي الرافدين المدونة حتى في العهود المتأخرة، حيث ذكر أحفادهم باسم "قوتو". تخصص أثبات الملوك السومرية للغوتيين عشرين أو واحداً وعشرين ملكاً حكموا مائة وخمسة وعشرين (*125*) عاماً. ومما يقال عنهم أنهم كانوا برابرة، ولم يتركوا أثاراً محسوسة في ثقافة البلاد ومسيرة تاريخها العام سوى أن عهدهم كان من الفترات المظلمة في تاريخ البلاد السياسي، على أن حكمهم في البلاد لم يكن عاماً شاملاً، فلم يسيطروا على جميع أقسامها، وعلى ما يرجح أنهم اختاروا مدينة "آرانجا" (كركوك) مركزاً لهم. طه باقر، المرع السابق، ص: *273* . *274*.**

وكانت القبائل الأمورية القادمة من شبه الجزيرة العربية قد بدأت منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد تتوغل بقوة في أكاد[1]، وسرعان ما نشأ الصراع بين الأموريين والعيلاميين وانتهى بانتصار الملوك الأموريين ليبدأ عهد المملكة البابلية القوية، التي بلغت أوج قوتها وسيطرتها أيام زعامة الملك حمورابي (1792 – 1750 ق.م). إلا أن المملكة التي شيدها حمورابي لم تكن أكثر صموداً من سابقاتها، فقد تراكمت الأخطار على خلفائه، ودب عدم الاستقرار الداخلي في أرجاء البلاد، وبدأت تتعرض للتغلغل الكاشي[2] المنحدر من أعالي جبال زاغروس، وبذلك كانت بلاد الرافدين تدخل عهداً اصطلح على تسميته بالقرون المظلمة. وفي أواخر هذه الفترة انتصبت قوة آشور وبدأت تعيد إلى بلاد الرافدين وحدتها وقوتها لتبدأ الفترة الآشورية القوية من تاريخ العراق القديم.

لقد خلقت البيئة الطبيعية والظروف الاقتصادية الممتازة[3] في بلاد الرافدين وفي سومر بالتحديد نظام المدينة–الدولة، ذلك النظام الذي ظهر لأول مرة في هذه المنطقة. وإذا كانت هذه المدن قد بدأت هادئة وظلت لفترة من الزمن تتعايش سلمياً، فإن عوامل الصراع بينها بدأت تظهر من خلال النزاعات على الحدود، وقد وصلت إلى حد محاولات فرض إحدى المدن–الدول سيطرتها على جاراتها، وقد اشتدت وتيرة الحرب إلى أن تم توحيد البلاد السومرية في دولة واحدة. وقد كانت هذه الحروب من أهم العوامل الحاسمة في تكريس سلطة الملوك، فقد كانت انتصاراتهم في الحروب مدعاة لإرجاع

---

[1] نراجع بها الخصوص: عبد الكريم عبد الله، "ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكدية"، سومر، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق لنشر نتائج أعمالها ودراساتها ومختلف الأبحاث الأثرية عن الوطن العربي، المجلد *30*، بغداد، *1974*، ص: *59 – 78*.

[2] الكاشيون: اسم هؤلاء القوم مشتق من الكلمة البابلية "كشو"، ولعلها تعني في هذه اللغة القوة والبأس، ويحتمل كذلك أنها مأخوذة من اسم الإله القومي للكاشيين، كما لا يعرف أصل هؤلاء القوم على وجه التأكيد. أما موطنهم الذي نزحوا منه فيرجح أنه كان في مكان ما من الأجزاء الوسطى في جبال زاغروس الفاصلة ما بين العراق وبين إيران. وكان بجوارهم بجهة الشمال أقوام جبلية أخرى منهم الغوتيون واللولبيون. طه باقر، المرجع الساق، ص: *447*.

[3] نراجع بهذا الصدد: سليم طه التكريتي، "اقتصاد الدولة في سومر"، سومر، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق لنشر نتائج أعمالها ودراساتها ومختلف الأبحاث الأثرية عن الوطن العربي، العدد *29*، بغداد، *1974*, ص: *267 – 287*.

تلك الانتصارات إلى مساندة القوى الإلهية. وقد ترجمت ذلك قصص الملاحم الأسطورية التي ازدهرت في بلاد الرافدين بشكل خاص.

لقد ظلت المناطق المستنقعية العازلة بين المدن–الدول السومرية تتناقص بشكل مستمر إلى أن كادت تزول نهائياً بفعل التطور الاقتصادي الذي تعيشه هذه الدول، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت الكيانات السياسية السومرية متجاورة، وكان ذلك سبباً في حدوث النزاعات الحدودية. فقد روت الملاحم التي أبدع السومريون في تأليفها تاريخ هذه الحروب السومرية، كقصة النزاع بين أوروك وبين كيش في قصيدة ملحمية، شخصياتها أو أبطالها البارزون "آجا" آخر حكام سلالة كيش الأولى (حوالي 2800 – 2650 ق.م) و"جلجامش" ملك أوروك. وفي القصيدة أن الحرب بين المدينتين مرت بمراحل مختلفة؛ المفاوضات، ثم الهجوم الذي تعرضت له أوروك، والحصار ثم الصلح[1]. وما إن انتصفت الألف الثانية قبل الميلاد حتى كان الصدام والحرب الطابع السائد في العلاقات بين المدن–الدول السومرية، حيث وقعت الحرب بين لجش وأوما، وفي نقش لايناتم (ملك لجش) الذي يصور انتصار لجش على جارتها أوما يظهر جنود ايناتم وقد صفوا متكاتفين متراصّي الصفوف فيما تبرز أسلحتهم من الصفوف الأمامية عبر التروس المتلاصقة، وكانت جثث القتلى من العدو المهزوم مطروحة تحت أقدام الجيش الظافر وقائده[2]، ويظهر من هذا النقش قوة الحرب السومرية. ومن الطبيعي في نتائج الحرب أن يلجأ المنتصر إلى فرض سيطرته على المهزوم، وطبيعي كذلك أن يلجأ المنتصر إلى الدين في سبيل تكريس سلطانه. وهكذا أرجع المنتصر في الحرب انتصاراته إلى وقوف الآلهة إلى جانبه، ففي إحدى الوثائق السومرية، والتي يقول كريمر بشأنها إنها أول وثائق تاريخية معروفة، ومن المرجح أنها كتبت في عهد خامس حكام لجش "انتيمنا"، وكان الهدف منها تسجيل إعادة حفر خندق الحدود بين لجش وأوما بعد أن استعادت

---

[1] صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: *86*.

[2] *Trevor Watkins, "Sumerian Weapons", Sumer, A scientific Journal Issued by the State Organization of antiquities and Heritage in Iraq to publish the Results of Its Activities and other World Relating to Archaeology and History in the Arab World, vol. 43, no. 1-2, Baghdad, 1984, pp. 252 – 254.*

الأخيرة قوتها من جديد واستجد النزاع، وقد كانت تسوية النزاع في صالح دولة لجش. ورد في النص السومري: "انليل[1] ملك جميع البلدان، وأبو جميع الآلهة، حدد الحدود بكلمته الثابتة (العادلة) بين نين جرسو[2] إله لجش الحامي وبين شاره (الإلهة الحامية لمدينة أوما)، وعين ميسيليم خط الحدود بالقياس بموجب أمر ستران (إلهته) وأقام نصبه هناك (في خط الحدود)، ولكن أوش حاكم أوما نقض إرادة الآلهة وكذلك الاتفاق بين البشر وحطم النصب (المقام في خط الحدود) ودخل سهل لجش. وعندئذ عمد الإله نين جرسو بطل انليل المعلم إلى شن الحرب على أوما بأمر انليل العادل. وبكلمة انليل ألقى بالشبكة العظمى عليهم (على أهل أوما) وكدس هياكلهم وجمعها أكداساً في السهل في مواضعها المختلفة. ونتيجة لذلك عمد ايناتم حاكم لجش وعمد انتيمنا حاكم لجش على تعليم الحدود مع إيناكلي حاكم أوما، وأجرى الخندق الخاص بالحدود ..."[3]. وقد بلغت نزعة الحرب ذروتها مع لوغال زغيزي حاكم أوما الذي استطاع أن يوسع حكمه ويسيطر على كامل بلاد سومر بحد السيف، وقد قضى على حكم لوغال زغيزي قائد آخر أكثر منه قوة وأشد مراساً هو سرجون الأكادي (سرجون الكبير). وكان سرجون رجلاً قوياً ولم يخف اعتماده على القوة، فبعد أن وطد سلطانه سياسياً ومعنوياً في الجنوب الرافدي حكم دولته بشكل مركزي، جاء في أحد الألواح الفخارية على لسان سرجون:

"...

لقد أحبتني الإلهة عشتار

وجعلتني سيداً على المملكة ...

---

[1] انليل: ينطق في البابلية (إلّيل). و هو رأس الجيل الأصغر من آلهة السومريين والأكاديين. مركز عبادته في مدينة نفر. وهو إله الريح والهواء. سامي سعيد الأحمد، "المظاهر الدينية في العراق القديم"، المجلة التاريخية، ص: *129 ـ 240*، العدد *4* ، الجمعية التاريخية العراقية، بغداد، *1975*، ص: *137*.

[2] نين جرسو: إله مدينة لجش. واسمه صفة تعني سيد جرسو، وجرسو من أقسام دولة لجش. ستيفاني دالي، أساطير من بلاد ما بين النهرين (الخليقة، الطوفان، جلجامش، وغيرها)، نقلتها إلى العربية: نجوى نصر، دار جامعة أوكسفورد للنشر، نيويورك، *1991*، ص: *381*.

[3] صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: *99*.

وقد سيطرت على الشعب من ذوي الرؤوس السوداء ...
وحكمت بالبلطات البرونزية حملت على تلك الشعوب في الجبال وأخضعتها لسلطاني"[1].

لقد كان العنف إذن يشكل من الناحية العملية الأساس الفعلي للنظام السياسي في بلاد الرافدين إلا أن التأسيس النظري له كان يعتمد أساساً على الدين. وقبل أن نحاول التعرض بالدراسة للأساس الديني للسلطة السياسية في بلاد الرافدين لنا أن نتساءل عن خصائص الديانة في العراق القديم وعن مكانتها في الحياة الثقافية للمجتمعات العراقية القديمة؟؟.

كان الفكر الديني العراقي خلال عصور ما قبل الأسرات أي في عهد حضارات العُبيد والوركاء وجمدة نصر يعتمد على المؤثرات البيئية والبشرية الخاصة، هذه المؤثرات التي كانت إحدى ميزاتها البارزة عدم الانتظام وعدم الاستقرار؛ ففيضانات دجلة والفرات وروافدهما غير موحدة التوقيت ومياه الخليج العربي تهدد بتقدمها نحو الشمال أمن وحياة إنسان القرى الجنوبية الواقعة على ضفاف المجاري المائية، هذا وقد ظلت البلاد السومرية منذ وقت مبكر عرضة لتغلغل عناصر بشرية مختلفة، وقد أثر كل ذلك في تطور الفكر الديني العراقي القديم، حيث نجده يختلف عن الفكر الديني المصري القديم الذي اتجه إلى عقيدة الخلود للإنسان والآلهة معاً، فيما خص الإنسان العراقي القديم الآلهة وحدهم بتلك الصفة والتجأ إلى المعبد لحمايته من غوائل الطبيعة المضطربة وكوارثها ولتوفير الطمأنينة التي يفتقدها.

ففي عصر العُبيد بنى السومريون المعابد للإله "آن"[2]، وفي عصر الوركاء شيدوا الزيقورات كمعابد للإله آن[3]. ومنذ البداية فقد أولى الفكر الديني في بلاد الرافدين للسماء

---

[1] عبد الله الحلو، صراع الممالك في التاريخ السوري القديم ما بين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية، بيسان للبشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1999، ص: 62.

[2] آن: إله السماء السومري ، وهو"آنو" في البابلية.

[3] رشيد الناضوري المرجع السابق، الكتاب الثالث، ص: 47.

أولوية خاصة وآمن بوجود قوة خفية متحكمة في السماء جسدها الإله آن وحملها الصفة الإلهية، بالإضافة إلى الاعتقاد في قوى أخرى عديدة اتجه إلى تأليهها هي الأخرى كالأرض والهواء والشمس والقمر والنجوم والبحر والنهر والزرع، وقد اتجه الإنسان العراقي القديم كذلك إلى تأليه الكم الهائل من القوى الفعالة في مختلف مظاهر حياته حتى في جوانبها الخاصة، مما أدى إلى كثرة الآلهة الثانويين في الحياة الدينية، كما عبد السومريون مختلف ظواهر الطبيعة الحيوانية كالأسود والثيران والحيّات، إلا أن ما يميز الديانة السومرية هو ذلك التنظيم المحكم للآلهة في بانتيون (مجمع الآلهة) متكامل على غرار تنظيم المجتمع البشري. وقد كانت الآلهة في ديانة السومريين لها مميزات ومزايا البشر، تأكل وتشرب وتتزوج وتنجب وتحارب وتقتل .. وغيرها من مختلف مظاهر السلوك الإنساني.

لقد كانت حوادث الطوفانات أو الفيضانات الكبيرة في العراق القديم من أهم وأخطر الحوادث التي كان يتعرض لها ذلك الإنسان، وتظهر أهميتها التاريخية ابتداءً من فترة التحول إلى العصور التاريخية وظهور حياة المدن الكبيرة وظهور الكتابة، فكان اهتمام إنسان بلاد الرافدين بظاهرة الطوفان لما لها من أثر في حياته فعمل على تفسيرها تفسيراً دينياً، فعزاها إلى غضب الآلهة على البشر. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن هذه الحادثة (حادثة الطوفان) أولاها الأدب السومري عناية كبيرة، كما نجد تفاصيل عنها أكثر في الآداب السامية الأكادية والبابلية والآشورية، التي لم تختلف ملامحها الفكرية كثيراً عن ملامح الفكر السومري خاصة من الناحية الموضوعية اللهم إذا كانت ثمة اختلافات من الناحية الشكلية بفعل الاختلاف في اللغة والتبدل السياسي الذي كان ميزة من ميزات العراق القديم، إذ نجد مثلاً الإله "مردوخ" (إله بابل) يحتل رأس البانتيون في عهد الدولة البابلية، فيما تصبح الأولوية للإله "آشور" في عهد الدولة الآشورية.

وهكذا كان الدين في بلاد الرافدين منذ أقدم العصور يتصدر المنظومة الثقافية لتلك المجتمعات، وكانت كافة أشكال التعابير الثقافية لديهم مربوطة بالدين، فقد ارتبط

التنظيم السياسي على مر التاريخ العراقي القديم بالديانة، وقد ظلت العلاقة بين الدولة والقوى الإلهية قائمة. صحيح أن النظام السياسي في بلاد الرافدين ظل متصفاً بالصفة الإنسانية، إلا أن ذلك لا يعني أبداً القطيعة بين نظام الحكم وبين الآلهة، فقد نُظر إلى الحكام على أنهم نواب للآلهة وممثلين لها، أو حسب ما تقول الوثائق السومرية أن نظام الحكم نزل من السماء. فقد كانت الصفة الثيوقراطية للسلطة حاضرة عبر مختلف مراحل التطور السياسي في بلاد الرافدين في العصور القديمة. ففي عهود المدن–الدول تشير النصوص السومرية إلى وجود مجالس من الشيوخ يشرفون على الحكم في مدنهم مما جعل البعض يرجح شيوع نوع من الحكم الديمقراطي في المدينة–الدولة السومرية[1] وأن الحكم الفردي أو الملكي كان استثناءً وخروجاً على الحياة السياسية الطبيعية في دولة المدينة السومرية وأنها لم تستمر إلا عندما اشتدت وطأة النزاع والحرب بعد مضي خمسة قرون على نشأة دولة–المدينة[2] إلا أن الأرجح . حسب ما كشفت عنه الآثار، وما نطقت به النصوص السومرية ذاتها . هو أن النظام الملكي الثيوقراطي كان النظام السائد منذ فجر السلالات، فقد كان المعبد يحتل موقعاً وسطاً في المدينة، وكانت تتبعه مجموعة من المخازن والأماكن لمختلف ورشات العمل[3]، كما كانت كل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة لها حق السيادة والأولوية يفوق هيكلها سائر الهياكل عظمة وغنىً[4]. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار أن المعبد كان يمثل نوعاً من الإدارة الإلهية للمدينة وأنه كان المركز الذي تصدر منه القرارات.

على كل فقد تلقب رأس الحكم في بادئ الأمر بلقب "إنسي" (أو باتيسي أو إيشاكو) بمعنى النائب أو الوكيل[5] ولعل في ذلك إشارة إلى أنه يعتبر وكيلاً ونائباً عن إله المدينة في حكم هذه الأخيرة. ويستشف من الأساطير السومرية مدى تجذر مبدأ

---

[1] صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: 62.

[2] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: 93.

[3] عبد الله الحلو، المرجع السابق، ص: 35.

[4] أندريه إيمار وجانين أوبواية، المرجع السابق، ص: 139.

[5] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: 454.

الحكم الإلهي في العقلية السومرية، حيث نجدهم يخلطون بين أسماء أبطالهم التاريخيين وأسماء آلهتهم مثل الملك اتانا Etana أحد حكام الأسرة الأولى في كيش، حيث ورد في أسطورة اتانا:

"...

عشتار[1] كانت تبحث عن راعٍ

وتبحث في الأعلى والأسفل عن ملك

وإلّيل (انليل) كان يبحث عن منصة عرش لاتانا

الشاب الذي تبحث عنه عشتار بكل اجتهاد

وتبحث دون نهاية

وها إن ملكاً يتم تعيينه على اليابسة ..."[2].

وعندنا ملحمة اينمركار Enmerkar وهو أحد حكام الأسرة الأولى في أوروك الذي تنسبه الأسطورة إلى الإله أوتو (إله الشمس)، حيث جاء في الأسطورة:

"في سالف الأزمان كان السيد الذي اصطفته انانا في قلبها المقدس،

الذي اختارته انانا من بلاد شوبا في قلبها المقدس

إنه اينمركار ابن الإله أوتو

من أخته ملكة الخير ..."[3].

وخليفة اينمركار على أوروك الملك دموزي الذي صار يجسد الصورة الأسطورية للإله الميت الذي صار عقيدة ثابتة في المنطقة فيما بعد[4]. وجلجامش حفيد اينمركار وأحد خلفائه على عرش أوروك الذي جعلت منه الأسطورة شخصاً يجمع بين صفات البشرية وصفات الألوهية، وقد جاء في ملحمة جلجامش:

---

[1] عشتار: الاسم الأكادي للآلهة "انانا" السومرية، وهي من أبرز الآلهة في مجمع الآلهة السومري والأكدي. ولها صفات متباينة؛ فتعد أحياناً إلهة للخصب والحب، وأحياناً أخرى إلهة للحرب. جعلتها بعض النصوص زوجة للكثير من الآلهة، بينما قالت عنها نصوص أخرى أنها عشيقة الآلهة. أسامة عبد الرحمن النور، محاضرات في التاريخ الثقافي القديم للبشرية، المرجع السابق، ص: *23*.

[2] ستيفاني دالي، أساطير من بلاد ما بين النهرين، المرجع السابق، ص: *234*.

[3] صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: *70*.

[4] نراجع بهذا الخصوص: ألزة زابيرت، رمز الراعي في بلاد الرافدين ونشوء فكرة السلطة الملكية، ترجمة: محمد وحيد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، *1988*.

"...

جلجامش ابن لوغال بندا، الكلي القوة

ابن البقرة السامية، البقرة الوحشية نين سون.

إنه جلجامش الكلي السناء

الذي شق ممرات في الجبال

...

من باستطاعته القول أنا ملك بجانب جلجامش

كتبت الشهرة لجلجامش عند ولادته

ثلثاه إلهي وثلثه فانٍ.

صممت بعلة-إيلي[1] شكل جسده

جعلت شكله كاملاً"[2].

وذكرت ملحمة جلجامش قصة ملك شروباك[3] المسمى زيوسدرا[4] مع الطوفان حيث كان الشخص الذي اختاره الإله انكي وأنقذه من ذلك الطوفان ومنحه صفة الخلود، ورد في ملحمة جلجامش:

"مثل إلهٍ قد أعطوه (الإلهان آن وانليل)

النفس الأبدي مثل إلهٍ قد أنزلوه إليه

وعلى ذلك زيوسدرا الملك،

---

[1] بعلة-إيلي: سيدة الآلهة، وتسمى نين خرساك (سيدة الجبل) ونين ماخ (السيدة السامية) ونين تو (سيدة الولادة)، ومن ألقابها شاسور (سيدة الرحم) وتبشوت إيلي (صاهرة الآلهة). ستيفاني دالي، المرجع السابق، *384*.

[2] ستيفاني دالي، المرجع السابق، ص: *76*.

[3] شروباك: (تل فارة الحديثة) تقع في أواسط بلاد ما بين النهرين، وهي مدينة البطل الأسطوري في قصة الطوفان زيوسدرا (أوتنويشتم). ستيفاني دالي، المرجع السابق، ص: *388*.

[4] زيوسدرا: من أسمائه أترخاسيس (أي الفائق الحكمة) وأوتنابشتم (واجد الحياة). ورد في الآداب العراقية القديمة على أنه الرجل العظيم الذي بنى سفينة وأنقذ البشرية من الهلاك، فقد استطاع البقاء على قيد الحياة بعد الطوفان الذي عم الأرض بمعية زوجته وقد أسبغت عليه الآلهة نوعاً من الخلود. وقد ورد اسم زيوسدرا في قائمة الملوك السومريين، وأنه في السنوات التي سبقت الطوفان كان أوبار-توتو (الذي دعي والد أترخاسيس في ملحمة جلجامش) ملكاً على شوروباك. وقد ورد في نص آخر قائمة الملوك السومريين أنه هو نفسه كان حاكماً لمدينة شوروباك. ستيفاني، المرجع السابق، ص: *21*.

حافظ اسم الزراعة والبذرة البشرية،

وفي أرض العبور

أرض دلمون[1]، المكان، حيث تشرق الشمس أسكنوه"[2].

لقد كان الاستناد إلى مبدأ الاختيار الإلهي أساساً للسلطة في كل الحكومات التي عرفتها سومر حتى في عهد ذلك الملك ذي الحس السياسي والاجتماعي القوي ملك لجش "أوروكاجينا" (2378 . 2371 ق.م) والذي يمكن اعتباره أول مصلح اجتماعي معروف، قاد أوروكاجينا ثورة ضد تعاظم نفوذ البيروقراطية الكهنوتية في مدينة لجش، وحد من سلطات الكهنة وانحاز إلى العامة[3]، وقد ظل مع كل ذلك حريصاً على تشبثه بمبدأ الاختيار الإلهي له، وقد أعلن في أحد قراراته كيف أقر ربه بأسه في قلوب ستة وثلاثين ألفاً من رعاياه وكيف وفقه إلى أن يسيروا على هديه ويعيد حرية (Ama-ar-gi)[4] الأهلين الذين قاسوا المظالم[5]. وقد عُبد كذلك الملك لوغال زاغيزي (2371 .2347 ق.م) ملك أوما الذي أطاح بحكم أوروكاجينا، وقاد البلاد السومرية إلى الوحدة، فقد ادعى هذا الملك أنه الابن المولود للربة نيسابادا (ربة الكتابة)، وأنه رضيع اللبن المقدس من نين حورساج، كما ادعى أن أرباب سومر دعوه ونصبوه في هياكلهم إنسياً (أو إيشاكو أو

---

[1] دلمون: لم يتمكن العلماء من التعرف بصورة نهائية حتى الآن على مكانها، إلا أن الاتجاه السائد يعتبرها جزيرة البحرين في الخليج العربي، رغم أن ثمة اتجاه آخر يميل إلى البحث عن إمكانية وجود رابطة بين حضارة وادي السند وبين دلمون. وتلعب دلمون أهمية كبيرة في الديانة السومرية؛ فيها منح بطل الطوفان السومري زيوسدرا الخلود الأبدي، وهناك أسطورة دلمون أو كما تسمى أسطورة الفردوس المفقود، والتي يظهر فيها الإله انكي وزوجته نين خرساج اللذان كانا الزوجين الوحيدين في أرض دلمون، وقد أدى الزواج المقدس بينهما إلى إنجاب الإلهة نين مو وهي الإلهة الباعثة على النمو والإنتاج. محمد العزب موسى، حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، ط3، القاهرة، 2000، ص: 65 . 94.

[2] رشيد الناضوري، الكتاب الأول، المرجع السابق، ص: 224.

[3] صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق ، ص: 91.

[4] آمارجي *Ama-ar-gi*: ترجمت إلى كلمة "حرية". وردت كلمة الحرية لأول مرة في التاريخ في وثيقة مكتوبة في سجل خاص بالإصلاح الاجتماعي الذي أصدره أوروكاجينا قبل 2350 سنة قبل الميلاد. ففي تلك الفترة العصيبة من تاريخ لجش حيث تدهورت الأوضاع الاجتماعية والسياسية، "جاء إلى الحكم . حسب ما يذكر كاتب الوثيقة . حاكم صالح يخاف الآلهة هو أوروكاجينا الذي أعاد العدل وأرجع "حرية المواطنين الذين قاسوا المظالم الكثيرة فأزال ناظر الملاحين من الإشراف على السفن، وأزال ناظر الماشية من الإشراف على الماشية الكبيرة والصغيرة .. أبطل وظيفة ناظر صيد السمك، وأزال جابي الفضة التي كان دفعها مفروضاً على جز صوف الغنم، وإذا ما طلق الرجل امرأته لا يحق للإيشاكو ولا لوزيره الحصول على أي رسم ...". صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: 110.

[5] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص495.

باتيسي) للبلاد كلها. في نص منسوب إلى أحد رجال زاغيزي يقول على لسانه "عندما عهد انليل رب الدنيا بملكية هذه الأرض إلى لوغال زغيزي أقر العدالة في الأرض ... وصفت السيادة لانليل حينذاك من البحر الأسفل ودجلة والفرات إلى البحر الأعلى واستقرت أحوال البلاد في سلام، وسقيت الأرض بماء السعادة ..."[1]. وقد سعى سرجون الأكادي في سبيل توطيد سلطته السياسية والمعنوية، وقد أصبح ملكاً على أراضي شاسعة، إلى الاهتمام بالدين فلم يتعرض بسوءٍ لديانة السومريين بل سمى نفسه كاهن الإله انليل، وجعل ابنته كاهنة لإله القمر "نانّا"، على أن سرجون قد بنى في عاصمته الجديدة "أكاد" معبداً للإلهة التي رأى أنها تحميه وتحبه، وأنها هي التي اختارته للحكم. جاء في أحد الألواح السومرية على لسان سرجون:

"أنا سرجون ملك أكاد العظيم ...
كانت ولادة أمي وضيعة ... أما أبي فلم أعرفه ...
وأخو أبي كان يعيش في الجبال ...
مدينتي أزوبارنو على ضفة الفرات ...
وأمي الوضيعة جاءت بي خفية إلى هذه الدنيا
فألقت بي في النهر الذي لم يبتلعني ...
بل حملني إلى اكي الذي يسقي الأرض ...
واكي أخرجني من النهر ...
واكي رباني ...
واكي جعلني بستانياً عنده ...
لقد أحبتني الإلهة عشتار ...
وجعلتني سيداً على المملكة ..."[2].

---

[1] المرجع نفسه، ص: *460*.

[2] عبد الله الحلو، المرجع السابق ، ص: *61*.

وقد امتاز حكم حفيد سرجون الملك الأكادي نرام سين (2260 – 2223 ق.م) بالقوة، وقد وصلت أخبار هذا الملك مدونة على المنحوتات الحجرية التى تمثل الملك منتصراً على أعدائه، ومنها المنحوتة المعروفة بمسلة النصر حيث تخلد انتصارات الملك العسكرية على اللولوبيين، ويشاهد على المنحوتة الملك يحمل القوس والرمح ويلبس خوذة ويصعد جبلاً شاهقاً، وقد تساقط الأعداء تحت قدميه (شكل 3).

وفي العصر السومري الثاني عندما برز أورنامو مؤسس سلالة أور الثالثة (2113 . 2006 ق.م)، والذي يرجع إليه الفضل في إصدار أول شريعة معروفة "قانون أورنامو"[1]، وقد جاء فيها أن الإله ننّا هو الذي اختار أورنامو ليحكم مدينة أور وبلاد سومر بصفته نائباً عنه يمثله على الأرض. وعندما كان حمورابي مؤسس الامبراطورية الأولى يقبض بقوة على إمبراطوريته الواسعة الأرجاء، صور نفسه على أنه كان يتلقى الأوامر من الآلهة ويطبق شرعهم على العباد، جاء في إحدى المخطوطات التي تسجل ما قام به من مشروعات الري في سومر وأكاد قوله: "عندما وكل إليَّ آنو (إله السماء) وبعل[2] مقاليد الحكم في سومر وأكاد ..."[3]. والناظر إلى ذلك القانون المنقوش على حجر تذكاري والمعروف بشريعة حمورابي يجده يحمل صورة حمورابي متربعاً على العرش وكأنه يتلقى الأوامر من السماء[4] (شكل 4).

وفي عهد الآشوريين كان الدين يشكل إحدى دعائم الحكم التي لا يمكن إهمالها، إذ كان الإله آشور على رأس الدولة من الوجهة الرسمية، وتصدر الأوامر باسمه، كل

---

[1] **قانون أورنامو: تعتبر شريعة أورنامو أقدم التشريعات المكتوبة في العراق بل وفي العالم بأسره، فقد عثر على أجزاء من نسختين يغلب عليهما الأسلوب السومري، كتبت إحداهما من طرف طالب في مدينة أور، وكتب الأخرى طالب من مدينة نفر بعد وفاة أورنامو بنحو ثلاثة قرون، مما قد يعني أن هذا التشريع جاوز إطاره المحلي وطبق في مدن أخرى، وأن فعاليته استمرت لفترة طويلة. بدأ كاتب التشريع بالنص على اختيار المعبودين آنو وأنليل للمعبود ننّا ملكاً على مدينة أور، ثم اختيار أورنامو نائباً عنه أو ممثلاً له على الأرض. وتضمنت المواد الأولى من هذا التشريع مواد تهدف إلى ضبط الموازين والمكاييل وتوحيدها، كما أقر القانون المذكور تجريم الاعتداء على النفس والممتلكات، وحدد غرامة لشهادة الزور وأجاز إظهار البينة عن طريق الامتحان بإلغاء المتهم في النهر. كما نظم التشريع الأحوال الشخصية ...إلخ. وكانت بنود هذه الشريعة هي الأساس لما تبعها من تشريعات. عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *119*.**

[2] **بعل: وتعني سيد، يقابله الإله مردوخ في بابل، والإله آشور في بلاد آشور.**

[3] **هربرت جورج ولز، المرجع السابق، ص: *212*.**

[4] ***Paul J. Alexander, the Ancient World to a. d. 300, the University of Michigan, Second Edition, pp. 2 – 5.***

القوانين قرارات تمليها إرادته؛ تُشن الحروب لتأتي له بالغنائم والمجد، كما كان الملك يحمل الناس على أن يصفوه بأنه إله[1].

إذا كان الملك في مصر يرتقي العرش على أساس بنوته لأبيه الملك الإله الذي انتقل إلى عالم الخلود ليعيش ضمن زملائه الآلهة، فإن الملك في بلاد الرافدين كان في العادة بشراً ونادراً ما يكتسب صفة الألوهية، بيد أن تعيينه كان يتم من قبل الآلهة، ولكن ذلك الاختيار الإلهي لا يعني عدم الاكتراث بمبدأ الوراثة، فالثابت تاريخياً أن النظام السياسي في مختلف المراحل التي مرت بها مسيرة التطور السياسي في العراق القديم كانت تنتقل من الملك إلى ابنه. إن كون الملك يتم اختياره من فبل الآلهة تجعل الشعب في بلاد الرافدين يتقبل سلطانه وينصاع لطاعته، فحسب هاري ساكز أن الملك في بلاد الرافدين ظل دوماً يمثل الواسطة بين الآلهة والناس، إذ كان يمثل الناس أمام الآلهة، وفي الحين ذاته كان الواسطة التي تنظم من خلالها الآلهة شؤون الحكم[2]، ولهذا فقد كان الملك دائماً يحيى حياة الأبهة ويحظى بالتقديس من قبل الشعب، وكانت كل الصلاحيات الدينية والاقتصادية والحربية بيده، وكان على رأس الإدارة والإدارة ممركزة حوله.

المبحث الثالث

نماذج أخرى (الصين، الهند، اليمن)

الملك ابن السماء قي الصين

[1] ول ديورانت، المرجع السابق، م*1*/ج*2*، *275*.

[2] هاري ساكز، المرجع السابق، ص: *414*.

ما يميز تاريخ الصين القديم أنه يجسد ويختزل كل مراحل وخصائص مختلف الحضارات التي عرفها الشرق القديم، فقد مثلت آثار الصين جميع الأدوار الثقافية من العصور الحجرية إلى عصور المعادن والزراعة وصولاً إلى عصر المدنية، كما تروي سجلاتها المكتوبة . التي تعتبر أروع ما كتب في التاريخ القديم من وثائق . تاريخ الحضارة الصينية منذ أقدم فترات تاريخها. لقد تفوقت الثقافة الصينية القديمة على سواها في غزارة عطائها الفكري في مجالات العقائد الدينية وتواريخ الدول والملوك، وقد كانت الفكرة الهامة التي طبعت تاريخ الصين السياسي في العصور القديمة هي اعتبار الملوك أبناء السماء أي أنهم من نسل الآلهة العليا ويسوسون الناس باسمها.

كانت البدايات الأولى للمدنية الصينية قد بدأت تتضح في أحواض الأنهار خاصة حول نهر هوانغ-هو (النهر الأصفر)، منبثقة من حضارة العصر النيوليثي التي عثر على مخلفاتها في نواحي مختلفة من الأراضي الصينية. لقد كان الناس قبيل المدنية يعيشون في القرى، يمارسون الزراعة، ويستأنسون الحيوان، ويصنعون الخزف والنسيج[1]. ومنذ أواخر الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد برزت إلى الوجود مدنية الصين الأولى، إنها مدنية تشانغ (حوالي 1750 . 1125 ق.م)، وقد أتاحت التنقيبات التي أجريت على أراضي تلك الدولة العثور على بقايا المدينة القديمة في العاصمة "آن يانغ" والقصر الملكي وآثاراً لمعبد، كما تم الكشف عن زهاء ثلاثمائة قبر منها أربعة أضرحة ملكية[2]. كانت السلطة الملكية في عهد أسرة تشانغ ذات طابع أبوي، وكان الملك يجمع ضمن سلطاته وظيفتي الملك والكاهن، وكان يُنظر إلى الملك على أنه موكل من السماء، أي من إله الأعالي، بمهمة حكم الشعب والمحافظة على النظام الطبيعي، فقد كان الصينيون يعتقدون أن رب السماء هو سيد الآلهة والبشر، وهو ملك الموتى وصانع الملوك، وهو الذي يسهر على ازدهار الامبراطورية وعلى محاصيل الزرع وجميع مناحي

---

[1] هربرت جورج ولز، المرجع السابق، ص: *170*.

[2] جماعة من المؤرخين السوفيات، المرجع السابق، ص: *40*.

حياة المجتمع[1]. كانت السلطة ذات طابع أبوي، وكان يوجد على رأس المراتب الملك (وانغ) الذي يتولى تنظيم الأمور الدينية والمسائل المدنية والإدارية، وكان يعاونه وزيره الأول (كنغ–شه) وكبار قواده، إلا أن دولة تشانغ لم تكن تتمتع بوحدة سياسية قوية فسقطت على يد أسرة تشو التي نجحت في توحيد الصين بشكل فعلي.

حكمت أسرة تشو الصين في الفترة الممتدة من حوالي 1125 إلى حوالي 221 ق.م، وقد امتدت إمبراطوريتها بطول النهر الأصفر حتى البحر ثم نحو الجنوب، وكان حكمها قوياً خاصة في النصف الأول بالمقارنة مع سابقتها تشانغ، وأكثر تألقاً في مجال المركزة السياسية. وكان أباطرة تشو قد أصبحوا كبار كهنة البلاد بدلاً من أسرة تشانغ، واتخذ الامبراطور لقب "ابن السماء"، ورغم كل ذلك فقد ظلت المركزية السياسية في ظل دولة تشو متقلقلة بسبب إتباع ملوكها أسلوب تقسيم البلاد إلى عدد كبير من الولايات على كل منها أمير تابع للدولة المركزية، وقد ظل عدد هؤلاء الأمراء والأتباع في تزايد مستمر حتى وصل سنة 771 ق.م نحو ثلاثمائة[2]، وهو الأمر الذي سيعصف بحكم أسرة تشو، حيث أخذت الصين تتعرض لعدد غير قليل من الانقسامات، وشرع الأمراء المحليون في الاستقلال بحكم ولاياتهم، وقد أغرت الانقسامات الداخلية وتفكك عرى الدولة قبائل الهان في الشمال والغرب فأخذوا في النزوح إليها لتدخل الصين ما يسمى بعصر الفوضى[3] المعروف اصطلاحاً باسم "حقبة الممالك المتحاربة في الصين"، وأثناء هذه الفترة ظهرت الديانة الكونفوشيوسية[4]، وخلال القرن الرابع قبل الميلاد بدأ التفوق

---

[1] أندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص: *600*.

[2] أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، المرجع السابق، ص:*148*.

[3] هربرت جورج ولز، المرجع السابق، ص: *173*.

[4] الكونفوشيوسية: أهم الفلسفات والأديان في الصين لما لها من أثر ثقافي على المجتمع الصيني خلال تاريخه، خاصة في مجال الأخلاق والسياسة والأدب. كانت هي الفلسفة أو الديانة الرسمية للصين منذ ما يزيد على ألفي عام تقريباً. مؤسسها كونفوشيوس، وهو الاسم اللاتيني لِ"كونغ–فو–تزو" الذي عاش في أخريات القرن السادس وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد. نشأ كونفوشيوس كشخص من العامة أيام كانت سلالة شو تعاني من قلاقل سياسية واجتماعية وأخلاقية، وكانت ظروفه بائسة منذ الطفولة، فقد مات أبوه وهو طفل وترعرع في رعاية أمه، وعرف الفقر وشظف الحياة منذ سنواته المبكرة، ولعل تلك التعاسة هي التي زودت كونفوشيوس بذلك الحس الاجتماعي العميق المتجسد في التعاطف مع عامة عصره الكادحة. أكد في فلسفته على أهمية الفضيلة والمعرفة، وكانت فلسفته ذات نزعة إنسانية وعملية، كان يتحاشى التنظير للأفكار الميتافيزيقية خاصة عن الإله والموجود الأعلى، فقد أقر بوجود "السماء" كموجود

لصالح إمارة تسين التي تمكنت من طرد آخر ملوك أسرة تشو كما تمكنت من توحيد البلاد.

بلغت دولة تسين ذروتها في عهد الملك تشينغ (246 . 210 ق.م) الذي تلقب "شيه–هوانغ–تي" (وتعني الإمبراطور العام الأول). لقد أخضع شيه–هوانغ–تي جميع الإمارات الصينية الأخرى، وفتح قسماً من منشوريا ومن منغوليا، وبنى سور الصين العظيم[1]، كما عمل على توسيع شبكة الري وبناء الطرق، كما عمل على إخضاع الجميع للقوانين التي سنها، كان معادياً للديانة الكونفوشيوسية. كانت فترة حكم شيه–هوانغ–تي أول توحيد سياسي فعلي للصين، إلا ان موت هذا الامبراطور كان نذيراً بقيام سلسلة جديدة من الاضطرابات السياسية والثورات التي انتهت بسيطرة أسرة الهان.

تمكن الهان من تصفية امبراطورية تسين عام 206 ق.م، يدعمها في ذلك أتباع الديانة الكونفوشيوسية الناقمون على ملوك تسين، وتمكن الهان من التخفيف من حدة الاستبداد، وتخلى ملوكهم عن لقب "الإمبراطور الأول" (هوانغ–تي)، كما عمل الحكم الهاني على تقليص عدد الأقسام السياسية والإدارية الصغرى والحد من حكمها الذاتي. وأعلنت الكونفوشيوسية ديناً رسمياً للدولة، وقرب الملوك الهان المثقفين الكونفوشيوسيين، وعينوهم موظفين ومستشارين في مختلف مصالح الدولة، من جهتهم عمل رجال الديانة الكونفوشيوسية الذين تبوأوا مناصب عالية في الدولة على تكريس المبدأ الإلهي للحكم، فقد وضع تشونغ–شي مستشار الإمبراطور "وو–تي"

متعالٍ يسير الإنسان دون أن يعطي فكرة محددة عن السماء كإلهٍ مشخصٍ. بلغ كونفوشيوس عند الصينيين مرتبة كبيرة حتى أن بعض الكتب في عهد أسرة "هان" وصفته بأنه ابن الآلهة أو ابن إمبراطور سماوي. يونغ شوون كيم، الفكر الشرقي: مقدمة في فكر آسيا الفلسفي والديني، ترجمة: طلعة مراد بدر وحميد علي مفتاح، منشورات جامعة عمر المختار، البيضاء–ليبيا، *1997*، ص: *92*، *93*.

[1] سور الصين العظيم: السور الكبير الذي بناه شيه–هوانغ–تي بهدف حماية الحدود الشمالية للبلاد من هجمات البرابرة، وذلك عندما قام بتوصيل الأسوار التي كانت موجودة فيما بينها، يبلغ طول هذا السور ألف وخمسمائة ميل (*1500*ميل)، وتتخلله في عدة أماكن أبواب ضخمة على النمط الآشوري. وهو أضخم بناءٍ أقامه الإنسان في جميع عصور التاريخ، يقول عنه فولتير"إن أهرام مصر إذا قيست عليه لم تكن إلا كتلاً حجرية من عبث الصبيان لا نفع فيها". وقد احتاج تشييد هذا السور إلى عشر سنين وإلى عدد هائلٍ من العمال، ويرى البعض أن شيه–هوانغ–تي وجد في أعدائه المقيمين في داخل البلاد مورداً سهلاً يستمد منه حاجته إلى اليد العاملة لتشييد هذا البناء العظيم.، الذي يقول الصينيون عنه إنه أهلك جيلاً من الناس وأنقذ كثيراً من الأجيال. ول ديورانت، المرجع السابق، م*1*/ج*4*، ص: *98*.

(140– 87 ق.م) المبدأ القائل بأن الأسرة . أية أسرة . إنما تحكم على أساس انتدابها من السماء، وأن هذا الانتداب يمكن أن يلغى، وأن من علامات سحبه قيام الاضطرابات الاجتماعية وحدوث النكبات الطبيعية[1]. وقد استمر هذا التوجه طيلة فترة حكم الهان الذي انتهى عام 220 م تاريخ بداية عصر الإمبراطورية في الصين.

لقد كان تاريخ الصين القديم مطبوعاً بطابع العنف، إذ كانت الأسر تحكم وتتساقط، من أسرة تشانغ إلى أسرة تشو مروراً بعصر الممالك المتحاربة في الصين إلى أسرة تسين إلى أسرة الهان، وقد كانت الصراعات والانقسامات الداخلية ظاهرة صينية مألوفة، وقد دفع ذلك ببعض الملوك مثل شيه–هوانغ–تي إلى اتباع أقسى الأساليب الاستبدادية، وقد ورد في الأساطير الصينية أن جوسين (1154–1125 ق.م) آخر ملوك أسرة تشانغ قوله "لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات وأحب أن أتثبت من صدق هذا القول في بي–كان (وزيره)"، كما ذكرت الأساطير الصينية كذلك أن "تاكي" زوجة الملك جو كانت مضرب المثل في القسوة، كانت تقيم في بلاطها حفلات الرقص الخليع، وكان الرجال والنساء يسرحون ويمرحون عارين في حدائقها، فلما غضب الناس من هذه الفعال عمدت إلى كم أفواههم باختراع ضروب جديدة من التعذيب، فكانت ترغم المتذمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية في النار أو يمشوا على قضبانٍ مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل، فإذا سقط الضحايا في الحفرة طربت الملكة حيث تراهم تشوى أجسادهم في النار[2]. ولعل في الحوار الذي دار بين كونفوشيوس وعجوزٍ صينية ما يعكس لنا ما كان يعانيه الإنسان الصيني القديم من استبداد الحكام، فقد مر كونفوشيوس صحبة طائفة من أتباعه ذات يوم في أحد القفار بعجوزٍ تبكي بجوار أحد القبور، فأرسل إليها كونفوشيوس يسألها عن سبب بكائها وحزنها فأجابته قائلة "إن والد زوجي قد فتك به نمر في هذا المكان، ثم ثنى النمر بزوجي، وها هو ذا ولدي قد لاقى المصير نفسه". ولما سألها كونفوشيوس سبب

[1] أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، المرجع السابق، ص: *243*.

[2] ول ديورانت، المرجع السابق، م*1*/ج*4*، ص:*17*.

إصرارها على الإقامة في هذا المكان الخطر أجابته قائلة "ليس في هذا المكان حكومة ظالمة"، فالتفت كونفوشيوس إلى طلابه وقال لهم "أي أبنائي اذكروا قولها هذا، إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر"[1]. على كل فمهما يكن للعنف من دورٍ في التاريخ السياسي للصين القديمة، فإن الفكر الديني الصيني قد أولى أهمية خاصة للمسألة السياسية، فهو فكر ينحو منحىً سياسياً واضحاً أكثر من غيره من الأديان الشرقية القديمة الأخرى.

لقد ظل العقل الصيني يجاري ذلك الانتظام الملاحظ في عمليات البيئة الطبيعية للصين، ولا غرابة في مجتمعٍ يعيش حياة الزراعة أن تسيطر على عقله تلك الظواهر الدورية التي يجسدها تعاقب الفصول ونمو النباتات وإثمارها، والتكرار المتسق لحركات الأجرام السماوية، فكان الناس يحسون أنهم جزء من هذه البيئة، وقد عبروا عن هذه النظرة بعبارة "تاو" التي وإن أصبحت تعني مؤخراً النهج فإنه من المرجح أنه قد شاع استخدامها قديماً حتى قبل المدنية وكانت تعني الانتظام[2]، وهذا التاو يجمع بين تينك الحالتين اللتين طالما نظر الصينيون القدماء بهما إلى ثنائية الوجود وهما: "ين" و"يانغ"، ويمثل الين حالة السلبية والتلقي، فيما يمثل اليانغ حالة القوة والنشاط، فقد اعتبر العقل الصيني القديم الين واليانغ هما الميكانيزمين التكيفيين للمجتمعات الإنسانية، واعتبر الصينيون هذا التاو ككلٍّ يسيطر على كل شيءٍ، مما أدى إلى أن ينتشر بينهم نوع من التقبل السلبي لمجريات الأمور، لا يعني هذا أن الصينيين ظلوا دوماً ينظرون إلى الطبيعة وعناصرها كأشياء موات، بل لعل الإحيائية (الأرواحية)[3] Animism كانت

---

[1] المرجع نفسه، ص: *45*.

[2] ألبان جريريجوري ويدجري، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، *1972*، ص: *7*.

[3] الإحيائية (أو الأرواحية): مصطلح وضعه العالم الانثروبولوجي البريطاني ادورد تايلور *Edward Tylor* في مؤلفه الحضارة البدائية في عام *1871*. والكلمة من أصل مغولي. كانت هذه الفكرة جزءً من نظريته حول الدين البدائي التي أشارت إلى الشعوب التي تعتقد بوجود أرواح في الكائنات الحية والميتة كالحيوانات والنباتات والأنهار والبحار والجبال والوديان ..إلخ. يقول تايلور أن الإنسان القديم أراد تفسير بعض الظواهر التي كانت تلازمه كالأحلام والأشباح والنوم والموت وهذا ما دفعه للاعتقاد بوجود الأرواح في جميع الكائنات الحية

منتشرة بينهم، إذ كانوا يعتبرون أن لكل عنصر في العالم المحيط بهم روح؛ الأنهار، والأشجار، والأرض ...وغيرها. وقد عبد الصينيون القدماء كل هذه العناصر الطبيعية. ويرى البعض أن الديانة الصينية القديمة ارتبطت في بداياتها بظاهرة الشامانية[1]، أي أن الناس كانوا يمارسون طقوس عبادة آلهتهم المتعددة عن طريق الشامانات[2]، وشيئاً فشيئاً اتجهت المفاهيم الدينية إلى المزيد من التعقد، فاعتبر الصيني أن أسمى الأرواح منزلة هو "تشانغ-تي" وهو الموجود المتعالي أو رب السماوات، وعبروا عنه باسم "تاان" (أي السماء).

لقد ترامى الأمر الخصائص السالفة الذكر فيما يتعلق بالفكر الديني إلى أن أصبح الصينيون القدماء ينظرون إلى الملوك بوصفهم أبناء للإله الأعلى (أي أنهم أبناء السماء)، فقد ورد في الأساطير الصينية القديمة أن الملوك الأولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف (18000) عام، وأن الناس "كانوا قبل هؤلاء الملوك السماويين كالوحوش الضارية يلبسون الجلود ويقتاتون باللحوم النيئة، ويعرفون أمهاتهم ولكنهم لا يعرفون آباءهم"[3]، كما تذكر كتب التاريخ الصيني القديمة أنه جاء بعد هؤلاء الملوك الإمبراطور "فوشي" في عام 2850 ق.م على وجه التحديد، وأنه هو الذي علم الناس بمعاونة زوجته المستنيرة الزواج والموسيقى والكتابة والتصوير وصيد السمك بالشباك وعلمهم استئناس الحيوان، ثم خلفه "سن نونغ" الذي يرجع إليه الفضل في إدخال الزراعة إلى البلاد وتعليم الناس حرفة التجارة، ثم حكم بعد ذلك إمبراطور يدعى "هوانغ-دي" لم يطل عهده أكثر

والجامدة. وقد أصبحت الإحيائية فيما بعد عند جل الأنثروبولوجيين بمثابة المرحلة الأولية لنشوء وتطور الدين.(عبد الهادي الجوهري، المرجع السابق، ص: *12*، *13*.

[1] الشامانية: هي مجموعة من المعتقدات والطقوس التي يحاول من خلالها رجل يدعى الشامان (والكلمة من أصلٍ مغولي) استحضار القوى الخفية في سبيل تجنب كارثة لها علاقة بسوء الحظ والنحس أو التصدي لها، فالشامان باستحضار الأرواح الخفية المساعدة والصديقة يقوم بإبعاد تأثير الأرواح الشريرة التي تتسبب في الكوارث والمجاعات والأمراض، ومن أجل بلوغ هذا الهدف يلجأ الشامان إلى طقوس وعمليات سحرية، مستخدماً في بعض الأحيان المخدرات. أما اليوم فقد أصبحت الشامانية مصطلحاً يطلق على جميع الظواهر السحرية الشبيهة بتلك التي تأسست عليها التسمية (أسامة عبد الرحمن النور، محاضرات في التاريخ الثقافي القديم للبشرية، المرجع السابق، ص: *27*.

[2] يونغ شوون كيم، المرجع السابق، ص: *72*.

[3] ول ديورانت، المرجع السابق، م*1*/ج*4*، ص: *15*.

من مائة عام . حسب ما تذكر المؤلفات الصينية القديمة .، انصب اهتمام هذا الملك على مجال العلوم بشكل خاص، وبعده حكم "يو" قرناً آخر وهو الملك الذي قال عنه الصينيون أنه كان رجلاً عادلاً رحيماً، كان آخر هؤلاء الملوك الخمسة "شون" الذي تذكر الوثائق المذكورة آنفاً أنه هو الذي غير المبدأ الذي كان سائداً قبله في وراثة الملك، وذلك بأن أصبح الإمبراطور يعين من يخلفه على العرش، وجعل شون الملك وراثياً في أسرته[1].

ولا شك أن الوثائق السالفة الذكر التي نقلت أخبار هؤلاء الملوك ذات طابع أسطوري واضح، لا يظهر ذلك من خلال طغيان البعد الميتافيزيقي فيها فحسب، بل حتى في التواريخ التي وضعها كتاب هذه الوثائق عن سنوات حكم ملوكهم. ورغم ذلك فهي تبقى دليلاً قوياً على وجود الفكرة الثيوقراطية في الفكر السياسي الصيني القديم، تلك السمة التي سادت الملامح السياسية خلال مختلف فترات حكم الأسر التي تعاقبت على الملك في الصين القديمة.

وحتى تعاليم الكونفوشيوسية التي كانت لها كبير الأثر في جماهير الشعب الصيني، وكذلك التاوية[2] كانت كلها تنحو منحىً سياسياً محافظاً، ولم تدع إلى تغيير جذري في النسق السياسي، إذ نجد كونفوشيوس يسدي ثناءه على الملك الأسطوري "يو"، يقول كونفوشيوس "إن الناس أصبحوا أفاضل أتقياء بمجرد النظر إلى يو ..."[3]، وهو ما

---

[1] المرجع نفسه، ص: 16، 17.

[2] التاوية: اسم مأخوذ من التاو أي الطريق. بدأت التاوية فلسفة وتحولت إلى دين، تعزى لمؤسس أسطوري يدعى "لاو دزو" تروي الأسطورة أنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وأنه يتقدم كونفوشيوس بعشرين عاماً تقريباً، ينسب له كتاب "الطريقة والفضيلة" (تاو تي شينج) الذي يعتبر إنجيل التاوية. وهناك "شوانغ تزو" الذي شكل فكره جزءً هاماً من التاوية، والذي يعتبر شخصية تاريخية حقيقية وهامة في القرن الرابع قبل الميلاد. سادت التاوية في بداية أمرها فكرة تصوفية إذ أن المعروف واللامعروف والموجود واللاّموجود تماثل في التاو المطلق، وفكرة التاو كمصدرٍ حقيقي لكل الظواهر المؤقتة هي أساساً الفكرة الفريدة في التاوية التي كان لها فيما بعد أثر ذا مغزى واسعٍ على العقل الصيني حول الكون والإنسان. فالتاو في التاوية هو جوهر الكون الغامض وهو أيضاً فيما وراءه، فالتاو هو الحقيقة المتضمنة للكل، وكل ما أنجز في الكون يرجع للتاو. يونغ شوون كيم، المرجع السابق، ص: 15.

[3] يونغ شوون كيم، المرجع السابق، ص: 104.

درج عليه منشيوس[1]، الذي يعتبر الخليفة الأعظم لفكر كونفوشيوس، حين وصف الملكين الأسطوريين "يو" و"شون" بأنهما يجسدان القيادة النموذجية العظيمة، وقال أن إرادة السماء هي معيار القرارات العظيمة التي اتخذها هذان الملكان[2]، وقد مر بنا ما صار إليه توجه أصحاب الديانة الكونفوشيوسية في عهد أسرة الهان وإقرارهم بشكلٍ صريح مبدأ الرقابة السماوية الإلهية للملوك.

الملك الكاهن في الهند

في الوقت الذي كانت فيه الحضارة تنمو ويشتد عودها في وادي الرافدين ووادي النيل كانت ثمة حضارة أخرى لا تقل شأناً وعظمة قد نهضت على أرض وادي السند في غرب الهند وشملت وادي السند كله، وقد كشفت البحوث الآثارية عن العديد من مدن هذه الحضارة على طول نهر السند، كانت أهمها مدينتا "موهنغو–دارو" و"هارابا" على الضفة الغربية لنهر السند، وقد كشفت آثار هاتين المدينتين عن قيام مدنية راقية كانت لها كتابتها الخاصة منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

لقد سبق حضارة موهنغو–دارو وهارابا ظهور القرى التي كانت تعرف استخدام البرونز والحديد، وما فتئت هذه القرى أن تطورت إلى حضارة مدنية متجانسة ضمت العديد من المدن التي ربما تكون قد بدأت منذ 2500 ق.م تخضع لنفوذ المدينتين القويتين حينئذٍ موهنغو–دارو وهارابا[3]. ويبدو من مراكز العمران أن هذه المدنية الهندية كانت تفوق حضارة العالم الأولى في تلك الأيام (الحضارة السومرية) في طريقة تشييد

---

[1] منشيوس: هو الاسم اللاتيني لِ"مينغ تزو" (*371 – 289* ق.م)، عاش . مثل كونفوشيوس . في فترة قلاقل سياسية واجتماعية وأخلاقية وايديولوجية، ومثله تنقل لعدة سنوات كان يسدي خلالها النصيحة للحكام حول لإدارة والحكم والأخلاق، ويتفرد منشيوس بتأكيده المطلق على الخير كطبيعة أصلية للإنسان وأن الإنسان يمتلك معرفة فطرية عن الخير ومقدرة طبيعية على فعله، فالشر عنده تصور بعدي يرجع إلى التأثير الخارجي. يونغ شوون كيم، المرجع السابق، ص: *102*.

[2] يونغ شوون كيم، المرجع السابق، ص: *104*.

[3] وليم هاولز، المرجع السابق، ص: *448*.

المدن وتنظيمها، فبينما كان السومريون يقيمون مدنهم بغير انتظام أو تخطيطٍ محكمٍ كان الدرافيديون (أصحاب المدنية الهندية الأولى) يتبعون خطة دقيقة في شق الشوارع وتشييد المباني، كانت المدينة مقامة على مساحة كبيرة من الأرض، وقد شقت شوارعها بدقة وانتظام، واصطفت على جنبات الطرق المستقيمة المنازل ذات الطبقات والدكاكين والمحلاّت، كما وجدت آثار الآبار والحمّامات ونظام دقيق للصرف في كثيرٍ من المنازل[1]. وعلى الرغم من صعوبة إعطاء تصور عن الحياة السياسية في هذه المدن بسبب الدمار الهائل الذي حلّ بالكثير من إنجازاتها الحضارية وعدم العثور على الكثير من البينات الآثارية التي يمكن أن تلقي الضوء على هذا المجال من الثقافة الهندية القديمة، ولأن الكتابة التي خلفوها هي الأخرى لما تفك رموزها بعدُ. رغم ذلك فإن الاعتماد على ما تم الكشف عنه من البينات الآثارية والتخمين بشأنها من شأنه أن يلقي بعضاً من الضوء ولو كان خافتاً على الناحية السياسية من ثقافة هارابا وموهنغو–دارو، فالطريقة المحكمة التنظيم في تشييد المدن التي تنم عنها آثار تلك المدن وما تميزت به من مظاهر الرّفاه والاستقرار، لا شك تحتاج إلى نوع من الضبط والتوجيه السياسي القوي، وحسب وليم هاولز أن هذا النوع من الضبط السياسي كان يتركز حول شخص الملك الكاهن الذي كان يشرف على العمارة وتنظيم العمل وجمع المحصول ودرس الحبوب وتخزينه[2]، كما يرجح البعض أن القصور التي تم الكشف عنها في هارابا وموهنغو–دارو شاهدٌ قوي على وجود سلطة دولة، أي أنها كانت مقراً للملوك[3]، ويميل الرأي الغالب إلى أن نظام المدينة–الدولة هو الذي كان سائداً في الهند، حيث لم تكن البلاد في تلك الفترة دولة موحدة. ومن بين آثار حضارة هارابا بعض الرسوم الموجودة على الأختام وعلى أواني الفخار، وهي رسوم ذات دلالات دينية وربما سياسية، ففي ختمين ذوي ثلاثة وجوه يظهر إنسان في وضعية جلوس وفي أحد الختمين تحيط به

---

[1] **ول ديورانت، المرجع السابق، م*1*/ج*3*، ص: *16*.**

[2] **وليم هاولز، المرجع السابق، ص: *451*.**

[3] **جماعة من المؤرخين السوفيات، المرجع السابق، ص:** *36*.

طائفة من مختلف الحيوانات[1] ويظهر من هذه الرسوم أن السكان الهنود القدماء عرفوا . على غرار باقي المجتمعات الشرقية القديمة . عبادة الطبيعة، وربما يكون الشخص الذي يظهر على هذه الأختام وهو محاط بهذه الكائنات الطبيعية المؤلَّهة يمثل شخص الملك الكاهن.

إن ما تمتعت به هارابا وموهنغ-دارو من تطور وازدهار حضاري سينهار نهائياً ويؤول إلى الدمار بفعل الغزو الهندوربي الذي بدأ يجتاح الهند منذ وقت مبكر من الألفية الثانية قبل الميلاد، فقد ظلت الهند طيلة النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد تتعرض لموجات غزو من القبائل الآرية المتدفقة من شواطئ بحر قزوين عبر أراضي بلوخستان وأفغانستان وشرق إيران. وقد كان هؤلاء الآريون قبائل بدوية يعتمدون في عيشهم على رعي الماشية، وكانوا يتألفون من تسع قبائل أهمها قبيلة "الباهارات"، كل قبيلة يقودها أمير يسمَّى "الرّاجا" يحكمها ويدير شؤونها، وكانت كل القبائل مجتمعة تحت قيادة الملك الأكبر "مهراجا"[2]. وقد تطلع الآريون إلى السماء وتصوروها عامرة بالآلهة والأبطال وهم "الديفا" (الآلهة) ورئيسهم أبو السماء وإله الأرض والمحيطات وحارس الكون وهذا الإله هو "فارونا" ومعه آلهة آخرون مثل إله الشمس ويطلقون عليه أسماء كثيرة منها سوريا وسافتري ومترا، وللشمس قرينة جميلة اسمها "أوشاس" وهي الشفق الجميل الذي يوحي بأجمل الغناء وأعذب الألحان. كان أحب الآلهة عند الآريين "إندرا" الفارس الهندي المثالي الذي يركب عربته الحربية ويحمل سلاحه ويعبر وجه السماء وقت الرعد والبرق، وأهم عمل قام به من أجل البشر أنه خلصهم من العملاق "فريتا" الذي كان يسجن السحب في كهوف بعيدة من الجبال حتى لا تنزل أمطارها على الأرض[3].

---

[1] صمويل كريمر أساطير العالم القديم، المرجع السابق، ص: *267*.

[2] جماعة من المؤرخين السوفيات، المرجع السابق، ص: *36*.

[3] محمد مرسي أبو الليل، الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها، مؤسسة سجل العرب، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، *1965*، ص: *39*.

وما إن انتصفت الألف الثانية قبل الميلاد حتى كان الاجتياح الآري للهند قد بلغ الذروة، فقد أخضعوا السكان المحليين (الدرافيديين) وبسطوا سيطرتهم كاملة ونشروا لغتهم السنسكريتية بشكل واسع، وبدأوا يتحولون إلى حياة المدينة بفعل معرفتهم الجديدة لحرفة الزراعة، فأسسوا دويلات أو إمارات ظلت تحتفظ بالتنظيم القبلي حيث كان لكل قبيلة "راجا"، وكانت كل قبيلة تتكون من عدة جماعات قروية مستقلة عن بعضها البعض نسبياً، كان يحكم الجماعة القروية مجلس من رؤوس العائلات[1]. ومن العلاقات الجديدة بين الوافدين الجدد والسكان الأصليين نشأ ذلك النظام الذي يعتبر أهم ما يميز تاريخ الهند ألا وهو نظام الطوائف المغلقة.

لقد انقسم كامل سكان الهند إلى أربع أو خمس نرفانات (طبقات)، حيث تأتي طبقتا البراهمة (الكهنة) والكشتريا (المحاربون) في قمة الهرم الاجتماعي، بعدهما تأتي طبقة الفيسياس (الرجال الأحرار)، ثم طبقة السّودرا (العبيد)، وفي أسفل الهرم الاجتماعي توجد طبقة الباريا (المنبوذين)، وكانت بين هذه النرفانات حواجز صارمة. هذا التصنيف الاجتماعي كان يتم على شاكلة الدين متمثلاً في العقيدة الهندوسية[2]، فقد تمكنت العناصرالمتغلبة أن تعطي نظام الطوائف بعداً دينياً مما أكسبه طابعاً يتميز بالستاتيكية والصرامة، فقد شاءت الإرادة البراهمية أن يوضع للناس نظام تحدده التقاليد الدينية التي يصعب التمرد عليها، فالمعتقدات الدينية كانت لها دور متعاظم في المجتمع الهندي، ويظهر ذلك في أن التصورات العقدية والأفكار المرتبطة بالآلهة التي تعبر في مجملها

---

[1] *J. M. Robert, the First Civilizations, an Illustrated World History 2, pp. 110 , 111.*

[2] **الهندوسية: تعرف الديانة الهندوسية بالدين اللاّتاريخي، ذلك أنه ليست ثمة بداية تاريخية محددة لها، كما أنه من الصعب تحديد مؤسسٍ بعينه لها. ومع ذلك فقد تم وضع تقسيم مرحلي للتطور العام للديانة الهندوسية، يقسم إلى أربع مراحل رئيسية: أولها الفترة الفيدية التي امتدت من عام *2500* إلى *1000* ق.م، وهي منسوبة إلى نصوص وترانيم الفيدا التي تعتبر أول كتب الهندوس لدرجة وصفها البعض بأنها إنجيل الهند، وكلمة الفيدا تعرف بأنها تعني المعرفة القدسية التي يفترض أنه قد أُوحي بها إلى نفر متميز من البشر ليقوموا بنقلها إلى الأفراد العاديين. أما المرحلة الثانية من مراحل الهندوسية فهي المرحلة البراهمية (*1000- 500* ق.م). والمرحلة الثالثة يمثلها العصر البوذي (*500-200* ق.م). وأخيراً المرحلة الهندوكية (*200* ق.م - *1200* م). محمود أبو زيد، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص: *165*، *166*.**

عن أبعاد الديانة البراهمية إنما تتصل اتصالاً مباشراً بقانون مانو[1] الوضعي الذي ينظم حياة الأفراد والجماعات على أساس نظام الطوائف والطبقات الاجتماعية، وإن كانت العوامل الاقتصادية والقرابية تقوم في هذا الأخير (أي نظام الطوائف) بدور كبير، إلا أنه يقوم أصلاً على أساس ديني هو بلا شك الذي يعطي نظام الطوائف ما نراه فيه من صرامة وثبات. لقد ساد الاعتقاد في تلك المراحل الموغلة في القدم بأن الإله "براهما" نفسه هو مصدر كل هذه القوانين، وإن كان من الثابت علمياً أن هذه المجموعة التشريعية كانت من وضع جماعة من أئمة البراهمة في سبيل الحفاظ على الأوضاع الاجتماعية وإحاطتها بالقداسة[2]، فكان يحق لطبقتي البراهمة والكشتريا دون غيرهما من الطبقات الأخرى التمتع بالسلطات الدينية والسياسية. وإذا كان يبدو أن وظائف البراهمة تنحصر في الجانب الديني والمهام الطقسية بينما تتولى الكشتريا وظائف الإدارة والحرب، فإن ثمة عرى قوية كانت تربط بين الطبقتين المذكورتين، أي أنه لم يكن ثمة فصل حقيقي بين ما هو ديني وما هو سياسي، بل وأكثر من ذلك فقد كانت صلاحيات البراهمة تمتد إلى مختلف الميادين في الدولة، مما جعل الملك في بعض الأحيان يخشى نفوذهم، الأمر الذي تطلب منه الجمع بين وظيفتي الملك والكاهن، وقد توطدت هذه النزعة في الفترات اللاحقة من تاريخ الهند.

كانت الهند في القرن السادس قبل الميلاد مؤلفة من عدة دول أو إمارات أشهرها دولة "ماغادا" الواقعة على المجرى الأوسط لنهر الغانج ودولة "كوسالا" إلى الشمال الغربي من ماغادا، وكان الصراع بين الدولتين قائماً، إلا أنه انتهى منذ القرن الخامس قبل الميلاد بانتصار ماغادا تحت زعامة ملكها "سيناك" لتصبح ماغادا أكبر دولة في

---

[1] قانون مانو: مانو هو شخصية أسطورية مقدسة يقول الهندوس أن براهما كشف له عن القوانين الصالحة للبشر. وقوانين مانو من المقدسات. ويفترض أن هذه القوانين وضعت قبل الميلاد بنحو مائتي(*200*) سنة، مع أن البعض يرجح أن بعض موضوعاتها يرجع إلى ما هو أقدم من ذلك بكثير. والكتاب أقسام: ستة منها عن خلق العالم وعن النظام البراهمي، والقسم السابع عن الملوك والحكام، والقسمان الثامن والتاسع عن القوانين الصالحة للبشر، والقسم العاشر عن الطبقات، والقسم الحادي عشر عن التوبة، والقسم الثاني عشر عن عودة الروح وخلاص البشر. محمد مرسي أبو الليل، المرجع السابق، ص: *62*.

[2] محمود أبو زيد، المرجع السابق، ص: *168*.

الهند[1]. وفي القرن الرابع قبل الميلاد تعرضت الهند للغزو المقدوني بقيادة الإسكندر الكبير الذي فتح القسم الشمالي الغربي منها أثناء حملته الشهيرة، وبعد رحيل الاسكندر بدأت في الهند حركة تحرر بقيادة شاندرا غوبتا (322 – 297 ق.م)، وقد أسس شاندرا غوبتا دولة قوية بلغت ذروتها في عهد حفيده أسوكا (273 – 232 ق.م)، الذي نشر سلطته على القسم الأكبر من الهند، وناهض نفوذ الكهنة البراهمانيين وأعلن البوذية[2] ديناً رسمياً للدولة.

الملك المكرب في اليمن

قامت في جنوب شبه الجزيرة العربية منذ النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد العديد من الدول التي لا تزال تواريخ بداياتها ونهاياتها أو أغلبها على الأصح غير محددة على وجه الدقة، كما لا تزال المعلومات المتعلقة بأوجه الحياة الثقافية فيها معلومات مهلهلة، وقد ثبت من خلال ما كشفت عنه الآثار وما ذكرت المصادر المدونة أن دول العربية الجنوبية . كباقي المدنيات القديمة في الشرق . قد قامت على قاعدة اقتصادية تعتمد على النشاط الزراعي، بالإضافة إلى ذلك كان لموقعها الاستراتيجي ضمن أويكومين[3] العالم القديم دور كبير في جعل اليمن الجنوبي يطَّلع بدور كبير في

---

[1] إحسان حقي، تاريخ شبه الجزيرة الهندية، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1978، ص: 18.

[2] البوذية: نشأت في ظل المحيط الديني والاجتماعي للهندوسية، وقد تبنت الكثير من الأفكار الهندوسية ورفضت الكثير منها. والبوذية تنسب إلى مؤسسها التاريخي "بوذا" وهو لقب يعني المتنور أو اليقظ أما اسمه فهو "سيدارثا جوتاما" وجوتاما اسم عائلته، وقد أحيطت شخصية سيدارثا بهالة من الخرافات والأساطير، وتقول الأسطورة التي تُدعَى "المشاهد الأربعة" إن سيدارثا أمير ولد في مملكة شمالية بالهند في القرن السادس قبل الميلاد، ووفر له أبوه الملك كل ما يلزمه كأمير، تزوج في سن السادسة عشرة من أميرة من مملكة مجاورة وأنجب أبناء. اشتهر بطلعته الوسيمة ولونه الصافي، كان ذا ثروة وسطوة، تمتع بالحياة المترفة والراقية في القصور. وقد نأى به أبوه عن رؤية أي بؤس أو شر خارج جدران القصر، إلا أن سيدارثا كان تواقاً لمعرفة ما يجري حوله في العالم الخارجي، وذات يوم بينما هو خارج القصر يمارس ركوب الخيل رأى مشاهد غيرت مجرى حياته؛ فقد شاهد سيدارثا أولاً عجوزاً أشيب الشعر، تساقطت أسنانه، بوجه مجعد، منحني القامة متكئاً على عكاز وهو منهك القوى. أما المشهد الثاني فكان لرجل مريض يعاني من ألم عميق. والمشهد الثالث منظر جنازة والناس فيه يندبون بحزن شديد. والمشهد الرابع لزاهد قد كسا التراب وجهه وجسمه يتجول باحثاً عن التحرر. وبعد أن خبر سيدارثا هذه المشاهد كلها توصل إلى إدراك عميق لرعب وبؤس الشيخوخة والمرض والموت، فودع حياة القصور والترف واتجه إلى حياة الغابة والزهد، وهو في الواحد والعشرين من عمره، وتفرغ للتأمل (يونغ شوون كيم، المرجع السابق، ص: 53، 54.

[3] أويكومين: تعبير إغريقي شاع استعماله في العصر الهليني بعدما اتسع العالم الهليني عقب فتوحات الإسكندر الكبير. والمعنى الحرفي للأويكومين: الجزء المسكون من العالم، وإن كان الأغارقة الذين وضعوا الكلمة حصروا مدلولها عمليا في الجزء المسكون من العالم الذي

مجال التجارة الإقليمية والدولية في العالم القديم. كانت السلطة السياسية في العربية الجنوبية تتبع الأسلوب الملكي المستند إلى الأساس الديني حيث كان الملك يحمل لقب "المكرب" أي المقرب من الآلهة.

من الممالك التي قامت في جنوب شبه الجزيرة العربية مملكة معين (حوالي 1300–630 ق.م) في منطقة الجوف الخصبة بين نجران وحضرموت، والدولة القتبانية (ما بين القرن 11 – سنة 22 ق.م)، ودولة حضرموت (حوالي 1020 ق.م –300 م) التي قامت في شرق اليمن على ساحل بحر العرب، والدولة السبئية (800 – 115 ق.م)، والدولة الحميرية (115 ق.م – 525 م) التي قامت على أنقاض الدولة السبئية. ولعل أهم هذه الدول الدولة السبئية التي تمثل أوج مجد حضارة العربية الجنوبية القديمة، فقد تمكن السبئيون بفعل احترافهم مهنة الزراعة وسيطرتهم على الطريق التجاري الممتاز، أن يؤسسوا دولة قوية امتد نفوذها من اليمن جنوباً إلى نجد والحجاز شمالاً[1]. ويقسم المؤرخون تاريخ الدولة السبئية إلى مرحلتين: الأولى مرحلة حكم المكارب (800 – 620 ق.م) وهي المرحلة التي تلقب فيها حكام سبأ باللقب "مكرب"، أما المرحلة الثانية فهي التي حمل الحكام فيها لقب "ملك" فقط دون مكرب.

لُقب أقدم حكام سبأ بلقب "مكرب"[2] وهو لقب يحمل معنى "مقرب" ويدل على التقريب من الآلهة، فكأن "المكرب" هو المقرب من الآلهة أو الوسيط بين الآلهة والناس[3]. فقد تلقب المؤسس الأول لدولة سبأ الملك "سمه علي" بِلقب "مكرب سبأ"، وكان

كانت تقيم فيه المجتمعات المسمّاة مدنية. وكان يقابل الأويكومين الإغريقي عند الصينيين قولهم "جميع ما هو تحت السماء". وقد أصبح استعمال هذا المصطلح حديثاً يعني مستوطن البشرية. آرنولد توينبي، تاريخ البشرية، المرجع السابق، ص: 39، 40.

[1] ضرار صالح ضرار، العرب من معين إلى الأمويين، منشورات دار مكتبة الحياة، ط4، بيروت، 1978، ص: 17 . 20. عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، مؤسسة شباب الجامعة، 1989، ص: 135.

[2] المكرب: جاء في كتب اللغة (كرب الأمر يكرب كروباً): دنا، يقال: كربت حياة النار أي قرب انطفاؤها، وكل شيءٍ دنا فقد كرب. وورد الكروبيون: سادة الملائكة، والملائكة الكروبيون أقرب الملائكة إلى العرش. فللفظة معنى التقريب. ابن منظور، لسان العرب المحيط، م3، دار لسان العرب، بيروت، د.ت، ص: 237. محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، م1، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص: 454.

[3] جواد علي، ج.2، المرجع السابق، ص: 268. *James B. Pritchard, Ancient Near East, Vol 2, a New Anthology of Texts and Pictures, Princeton University Press, pp. 231 - 239.*

هو وخلفاؤه من المكارب الآخرين يجمعون بين السلطتين الدينية والزمنية، وقد اهتموا ببناء المعابد لإلههم الخاص"المقه" الإله القمر في "صرواح" وهي العاصمة السبئية الأولى قبل أن تنتقل العاصمة إلى مأرب. وإن كان هؤلاء المكارب اليمنيون يجسدون الحكومات الكهنوتية كما هو الحال في سومر، إلا أنه لم يتم التمكن من معرفة أصول الحكم عند هذه الحكومات حتى يمكن تقييم الدور السياسي للمكرب؛ في إطار علاقته مع الشعب من جهة، ومع الآلهة من جهة ثانية، وكيف كانت طريقته في إدارة شؤون الحكم؟؟.

من خلال المعلومات المتوفرة يلاحظ أن السلطة الكهنوتية فاعلة، وأنه كانت للمعابد وضعية خاصة في الحياة الاجتماعية إلي جانب وظيفتها الدينية والسياسية. وكانت كل الوظائف الدينية والسياسية مركزة في أيدي المكربين (أي المقربين إلى الآلهة)، الذين تقبل شفاعتهم وهم الوسطاء بينها وبين البشر، وكان هذا المكرب (الكاهن) هو الذي يحكم باسم الآلهة والناطق بلسانها، ويقابله "باتيسي" أو "إشاكو" في بلاد الرافدين[1]. وتتجه بعض الآراء بناءً على نقوش الكتابات اليمنية المكتشفة إلى أن هذا النظام الثيوقراطي لم يكن مقتصراً على الدولة السبئية وحدها بل عرفته دول العربية الجنوبية الأخرى، وحسب ما ذكره ويندل فيليبس استناداً إلى النقوش المكتشفة في تمنة (تمنع) عاصمة القتبانيين، أن من بين هذه النقوش نقش يذكر اسم مكرب حكم في القرن السادس قبل الميلاد[2]، بل ويذهب البعض إلى أن أول من حمل لقب مكرب إلى جانب لقب ملك هو الملك القتباني "يدع أب ديبان بن شهر" الذي يرجح أنه حكم في الفترة ما بين (750 – 735 ق.م)[3]، كما يظهر من الكتابات الحضرمية. حسب ما ذكره جواد علي . أنه قد تعاقب على حكم حضرموت عدد من المكربين، قبل أن يتحول النظام إلى سلطة

---

[1] عمار عبد القادر مختار الكيلاني، بعض تأثيرات قوانين حمورابي على الذهنية العربية حتى ظهور الإسلام، رسالة ماجستير، شعبة الحضارات المقارنة بكلية العلوم الاجتماعية التطبيقية، جامعة الفاتح، طرابلس، *1999*، ص: *94*.

[2] ويندل فيلبسون، كنوز مدينة بلقيس: قضية اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن، تعريب: عمر الديراوي، دار العلم للملايين، ط*1*، بيروت، *1961*، ص: *183*.

[3] محمد بيومي مهران، الحضارات العربية القديمة، دار المعرف الجامعية، الإسكندرية، *1996*، ص: *200*.

ملكية زمنية[1]، إلى غير ذلك من الشواهد التي تشير إلى أن حكومات الدول التي قامت في جنوب شبه الجزيرة العربية كانت تستند إلى أساس ديني.

لقد كان النظام السياسي في اليمن الجنوبي، على غرار ما هو كائن في بلاد الرافدين ومصر والصين، يتصف بالطابع الثيوقراطي، غير أنه منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد أخذت الملكية طابعاً زمنياً، وتم التخلي عن الصفة الدينية، فقد مثل عهد آخر مكارب سبأ وهو "كرب أيل وتر" (620 – 600 ق.م) خاتمة لعهود المكارب، حسب أغلب المؤرخين، وبداية لعهد السلطة الزمنية، لقد نبذ هذ الملك السبئي لقب "مكرب" واقتصر على لقب "ملك"[2]. إلا أن الملك قد احتفظ بمكانته المقدسة في العربية الجنوبية، حتى أنه كان يقوم بالقسمة مع الآلهة في الغنائم، بينما كان المعبد يمثل المركز الديني، ومارس العرافة، وبه تقدم النذور للآلهة، ويمتلك الأراضي التي يتم تأجيرها للمزارعين وفق عقد خاص عرف بِ(وتف)، وله الضرائب التي كانت تجبى باسمه، وكانت قيمتها العشر (10/1) من جملة المحاصيل الزراعية[3]. وحسب جواد علي أن هذا الانفصال بين السلطتين الزمنية والدينية لم يكن مقصوراً على سبأ وحدها بل عرفته كل دول الجنوبية العربية الأخرى.

---

[1] جواد علي، ج2، المرجع السابق، ص: 135.

[2] محمد بيومي مهران، الحضارات العربية القديمة، المرجع السابق، ص: 200.

[3] محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985، ص: 205.

الفصل الثالث

تطور النظام السياسي في سومر
خلال العهد السومري القديم

تمهيد

أعقب العصر شبه التاريخي في سومر عصر تعددت التسميات التي أطلقت عليه كما اختلف في تحديد تاريخه. فقد وضع له البعض مصطلح عصر السلالات أو فجر السلالات السومرية كما أطلق عليه البعض عصر ما قبل سرجون (الملك الأكادي الذي حكم في نهاية هذا العصر)، كما كان يسمى "عصر اللبن المشوي–المحدب" لشيوع استعمال هذا النوع من اللبن في أبنية هذا العصر وأطلق عليه بعض الباحثين "عصر لجش" نسبة إلى المدينة السومرية التي اشتهرت بملوكها العظام وإنجازاتهم المعمارية و الحربية. والملاحظ أن كلاً من هذه التسميات تعبر عن واحد من الأوجه الحضارية المميزة لهذا العصر من التاريخ السومري. ولعل إطلاق المصطلح "العهد السومري القديم" أكثر شمولية و انطباقاً.

بداية العهد السومري القديم غير معروفة على وجه الدقة. إذ ليس هناك وثائق مكتوبة تكفي لتحديد هذه البداية لهذا قد اعتمد أغلب المؤرخين و الآثاريين على نوع الأثر وفن صناعته إضافة إلى الطبقة التي يوجد فيها. فالكتابة المسمارية القديمة هي أحسن الوثائق في تحديد بداية هذا العصر إلا أنها قليلة جداً ولا تفي بهذا الغرض. دونت هذه الكتابة على ألواح ومسلات من الطين نقشت بالصورة و الكتابة كما نقشت على تماثيل وآثار أخرى. وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً، أي إلى ما بعد منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وجدنا كتابات تصويرية نقشت على رقم من الطين وجدت في مواقع مختلفة نذكر منها الطبقة الرابعة من الوركاء وأسفل طبقات أور وغيرها من الطبقات العائدة إلى الطور الأخير من عصر أوروك وعصر جمدة نصر في ملتقى الألفين الرابع و الثالث قبل الميلاد[1]، تلك الكتابات التي تطورت فيما بعد إلى نوع من الكتابة عرفت بالكتابة المقطعية الرمزية، إلا أنها لم تكف آنذاك لتدوين الأخبار وما شابه ذلك بل تقتصر على مجرد قوائم بأسماء أشخاص ومواد، لكنها كانت البداية المهمة لتطور

[1] *Robert Adams, Land Behind Baghdad: a History of Settlement on the Diyala Plains, the University of Chicago Press, pp. 38 – 42.*

الكتابة المسمارية، وقد توصل علماء اللغات المسمارية إلى أن هذه الكتابة كانت مدونة باللغة السومرية[1]، ومع ذلك فقد اتجه أغلب الباحثين إلى اعتبار هذه الكتابات لا ترقى إلى مستوى يجعلها تمثل العصر التاريخي المدون، وفضلوا اعتبارها تمثل طوراً انتقالياً اطلقوا عليه . حسب ما مر بنا سابقا . الحقبة شبه الكتابية.

وعليه فمحاولة تعيين بداية العصر التاريخي في سومر تستدعى الرجوع إلى المكتشفات الآثارية الأخرى كالأختام الاسطوانية مثلاً، فقد تمكن المنقبون في الآثار السومرية القديمة من تمييز صنفين من الأختام الاسطوانية العائدة إلى هذه الفترة: النوع الأول وهو المعروف باسم "البروكايد " المرتبط بالمجموعة الأخيرة من أختام جمدة نصر ذات الزخرفة الهندسية. إلا أنها تميزت بابتعاد طراز الحفر فيها عن استعمال المثقب واستبداله بطريقة الكشط بخطوط مختلفة العمق والشكل حسب الزخرفة. وقد اعتبر علماء الآثار أن هذا النوع من الأختام المحفوف بخطوط هندسية بطريقة القشط. والتي تؤلف نقوشها أشكالاً هندسية تتخللها في أغلب الأحيان رسوم الماشية كالماعز والغزلان أو الطير أو السمكة، اعتبروها عصراً جديداً أو بداية عصر فجر السلالات يترواح تاريخ بدايته بين (3000 – 2850 ق.م). أما الصنف الثاني من هذه الأختام وعدده قليل فهو ما كان مطبوعاً على كتل من الطين استعملت كأغطية لجرار الفخار وما شابه ذلك سميت بأختام فجر السلالات الأول. ذلك أن نقوش هذه الأختام وطبعاتها القديمة على الطين تختلف اختلافاً كبيراً عن أختام البروكايد السالفة الذكر، فالحفر فيها ذات طابع خشن غير دقيق المعالم نقشت صوره بخطوط عريضة وعميقة تمثل مشاهدها في الغالب أجزاء من ملاحم وأساطير سومرية عرفت فيما بعد بشكل واضح و دقيق في الدورين الثاني والثالث من العهد السومري القديم[2]. ورغم شح المصادر الكتابية فقد وفرت

---

[1] جورج رو، المرجع السابق، ص: *112*، *113*.

[2] فرج بصمه جي، "الحقبة الزمنية بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية"، **سومر**، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق لنشر نتائج أعمالها ودراساتها ومختلف الأبحاث الأثرية عن الوطن العربي ص: *33* . *40*، المجلد *44*، بغداد، *1986*، ص: *36*.

التحريات الآثارية للباحثين من البينات ما يجعلهم يتفقون على أن بداية العصر التاريخي و بداية ظهور نظام الدولة ينحصر في الربع الأول من الألف الثالث. وأن ظل وضع تاريخ محدد يشكل مسالة اختلف بشأنها الباحثون فقد وضع البعض تاريخ 3000 ق.م كبداية محددة لظهور الدولة في سومر، فيما ينزل به البعض إلى حوالي 2900 أو 2850 ق.م. في هذه الحدود إذن نشأت في منطقة سومر العديد من التجمعات المدينية الطابع سميت بالمدن–الدول بلغ عددها حوالي ثلاثة عشرة أو أربعة عشرة مدينة–دولة أهمها: أريدو Eridu (أبو شهرين)، باد–تبيرا Bad-tbira (تلول المدينة في منطقة لجش)، لرك Larak، سبار Sippar (أبو حبة)، شروباك Shuruppak (تل فاره)، كيش Kish (تل الأحيمر)، أوروك Uruk (الوركاء)، أور ur (المقير)، لجش Lagash (الهبا)، أدب Adab (بسمي)، ماري Mari، أوما Umma (جوخه)، لارسا(السنكرة) (خريطة 3). وتقسم هذه المرحلة من تاريخ بلاد ما بين النهرين المسماة "العهد السومري القديم" والتي يطلق عليها أيضاً "عصر فجر السلالات" إلى ثلاثة فترات رئيسة:

– العهد السومري القديم الأول (عصر فجر السلالات الأول) 3000 – 2800 ق.م. ويمتاز هذا الطور بأنه يمثل مرحلة انتقالية بين الدور شبيه التاريخي والدور التاريخي، ويحتمل أن سلالات ما قبل الطوفان يرجع البعض منها إلى هذا الطور والبعض إلى الطور شبه الكتابي، كما يحتمل أن بطل الطوفان الوارد في قصص بلاد الرافدين باسم "زيوسدرا" أو "أوتنبشتم" كان يعيش في هذا العصر.

– العهد السومري القديم الثاني (عصر فجر السلالات الثاني) 2800 –2550 ق.م ويمثل هذا الطور بداية التدوين بالكتابة المسمارية المتطورة. وأشهر السلالات التي برزت في هذا الطور سلالة كيش الأولى وسلالة أوروك الأولى.

– العهد السومري القديم الثالث (عصر فجر السلالات الثالث) 2550 – 2340 ق.م. في هذا الطور بلغت الحضارة السومرية أوج ازدهارها، حيث يفوق هذا الطور الطورين السابقين له بكثرة ما وصل إلينا من آثاره المتنوعة الكثيرة، وفي مقدمتها وفرة النصوص

الكتابية عن حكام السلالات الملكية، ومن الأسر التي برزت في هذا الدور سلالة أور الأولى وسلالة لجش الأولى.

المبحث الأول
النظام السياسي السومري في طور النشأة
بين سلطة المعبد ودور المجالس العرفية

أولاً - دولة المعبد في سومر

كانت كل مدينة-دولة سومرية مستقلة عن الأخرى سياسياً، وكانت تضم إلى جانب مركزها الأساس تجمعات سكانية صغيرة تابعة ومساحات من الأراضي الزراعية. وقد كانت النقطة البؤرية في المدينة- الدولة السومرية تتجسد في المعبد الذي كان العصب المركزي الذي تكونت حوله حياة المدينة، ومنه كانت الآلهة تسوس الناس عن طريق رجال الدين.

أ - نشأة المدينة حول المعبد

يرتبط الاجتماع الإنساني في جنوب العراق بمختلف التجارب التي واجهها ذلك الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ حتى خلال العصور التاريخية. فقد بدأ الإنسان السومري حياته في تلك المنطقة بإنشاء القرى وإقامة الحياة الزراعية والصناعية المستقرة فيها، ولكنه سرعان ما واجه منذ البداية بيئة أرضية وجوية ومائية نهرية وبحرية متغيرة لا تنعم بالاستقرار ولا تبعث على الطمأنينة. وقد وصل مداها إلى درجة تهديد حياة ذلك الإنسان السومري ومصيره وتعريض مصالحه الاقتصادية للخطر. الخوف الناجم عن العنف البيئي جعل ذلك الإنسان المعرض دوماً للمفاجأة التي لا يعلم ما إذا كانت تحمل إليه الشر أو كانت تحمل إليه الخير، يجعله تنمو لديه نزعة الاتجاه إلى الماورائيات والاحتماء بالتفسيرات الدينية والتقرب إلى القوى الخفية الخيرة والشريرة، التي اعتقد أنها

تتحكم في الكون، واتخاذ مكان محدد لممارسة عبادتها. وعلى ذلك فلعلنا نجد البذرة الأولى في مكان الاجتماع لإقامة الطقوس بمثابة الكعبة التي يحج إليها الناس، أي المكان الذي كانت تنجذب إليه مجموعات بشرية في فترات موسمية لأداء الطقوس الدينية[1]. يقول توينبي "... لعل هذه المدن قامت أصلاً كمراكز للعبادة، حيث كانت الجماعة يلتئم شملها في أوقات معينة للقيام بطقوس دينية، ولتنظيم الأعمال العامة العائدة بالفائدة عليها، وكلا الأمرين كانا متلازمين. ولعل مراكز العبادة هذه كان يستقر فيها أصلاً فيئه قليلة من السكان، ولكنها تطورت بعد لتصبح مدناً، حيث تحيط المنازل بالمعابد وحيث يتزايد عدد الأقلية غير الزراعية.."[2] لأنه إلى جانب ما كانت تتوفر فيه من المزايا كانت تتركز فيه قوى روحانية معينة أو قوى خارقة للعادة. وكانت مراكز العبادة في سومر تتمثل في الزقورات، والزقورة عبارة عن هرم مدرج أو رابية تبنى على شكل مصاطب بحيث تبدو أشبه بعدد من الصناديق المصفوفة إحداها فوق الأخرى ويشيد في قمتها معبد صغير أو"بيت" للإله، ويبنى له سلم يمر خلال السقف مخصص للإله.

لقد أكدت الدراسات التي قيم بها في السهل الرسوبي أنه في نهاية الألف الخامس أو بداية الألف الرابع قبل الميلاد انتشرت قرى زراعية صغيرة في الجزء الجنوبي من هذا السهل وأخذت تمتد شمالاً باتجاه الوركاء، وقد عرفت هذه القرى نظاماً اجتماعياً جديداً تميز بإشراف كهنة المعابد على تسيير الشؤون العامة، ويرجع إلى هؤلاء الكهنة الفضل في إنجاح مهمة المعبد وسيادته[3]. وقد عثر على بقايا أقدم المعابد في أريد وتعود إلى دور العُبيد، وتعتبر أريدو إحدى خمسة مدن التي حكمت فيها سلالات ما قبل الطوفان، فقد عثر فيها على سلسلة متعاقبة من المعابد الصغيرة المشيدة من اللبن، وكانت بعض

---

[1] لويس ممفورد، المدينة على مر العصور: أصلها وتطورها ومستقبلها، الجزء الأول، أشرف على ترجمته وقدم له وعلق عليه: إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة _ نيويورك، *1964*، ص: *15*.

[2] آرنولد توينبي، تاريخ البشرة، المرجع السابق، ص: *64*.

[3] عدنان مكي عبد الله، المرجع السابق، ص: *60*.

المعابد تشيد فوق مصاطب مرتفعة[1]، وقد اعتبرت الأصل الذي تطورت عنه ما يسمى بالأبراج المدرجة (الزقورة) في حضارة وادي الرافدين، وكان الهيكل يدعى منزل الإله، حيث كان الناس يعملون في خدمته.

في أنقاض العصور الشبيهة بالكتابية كانت الهياكل أكثر المميزات بروزاً، ففي هذه الفترة في أوروك كان هيكل الإله آنو (الهيكل الأبيض)[2] مبنياً على تلة اصطناعية يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً تغطي مساحة تقدر بـ420.000 قدم مربع، وهو يشرف على السهل على أميال عدة وبقرب قاعدته مذبح عظيم آخر مكرس للإلهة انانا[3]. ويفهم من بناء المعابد العظيمة والزقورات التي تجهزها مدى الجهد الجماعي الشاق الذي يقتضيه هذا العمل العظيم، كما يظهر مغزى الزقورات من الأسماء التي يحملها الكثير منها، فزقورة الإله انليل في نيبور مثلاً تدعي منزل الجبل، حبل العاصفة، والرابطة بين السماء والأرض. وكلمة "جبل" في بلاد ما بين النهرين لها دلالة دينية، فهي تعني المكان الغمر الذي تتركز فيه قوة الأرض الخفية وبالتالي كل الحياة الطبيعية[4] أي أنه يكون في جوهره المجال الغامض لنشاط القوي التي فوق قدرة الإنسان.

ولقد أوجد السومريون الظروف التي أصبح الاتصال فيها مع الآلهة ممكناً عندما شيدوا الجبال الاصطناعية لهياكلهم. هذه البناية الضخمة المشيدة لتوطيد الرابطة مع القوة التي تعتمد عليها المدينة لم تكن تعلن عن عظمة الآلهة وجبروتها فحسب، ولكن عن قدرة المجتمع الذي تمكن من بذل مثل هذه الجهود. كانت هذه الهياكل العظيمة عامل التحام قومي، وبالتالي موضوع اعتزاز قومي، كما أنها أيضاً شيدت لترسيخ معنى المواطنة. كانت كل مدينة ترتبط بآلهة طبيعية معينة، وكانت المدينة تعتبر ملكاً خاصاً لإله واحد مع أن الآلهة الآخرين كانت تعبد فيها أيضاً، كان إله المدينة ينظر إليه أحياناً

---

[1] المرجع نفسه، ص: *61*.

[2] هو المعبد المكتشف في مدينة خفاجي ، سمي بالعبد الأبيض أو البيضاوي لأن شكله الخارجي بيضاوي. طه باقر، المرجع السابق، ص: *265*.

[3] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: *69*.

[4] المرجع نفسه، ص: *70*.

كسيد إقطاعي متغيب يصعب الاتصال به. وتمشياً مع الفكرة الدينية في بلاد الرافدين فإنه لا يمكن إدراك العلاقة بين المدينة وبين سيدها المقدس إلا إذا اعتبرنا هذه العلاقة نوعاً من التوكل التام. يقول علماء النفس الاجتماعيون أن الإنسان الذي يعيش في عالم من العنف المفروض من قبل الطبيعة وغوائلها (الفيضانات، الآفات الزراعية، الأمراض والأوبئة...) والتي لا يستطيع لها ردعاً، والتي تشكل تهديداً فعلياً لقوته وأمنه، هذا الإنسان المقهور يعيش في عالم من الضرورة وفقدان السيطرة على المصير، تبدو له أخطار الطبيعة مضخمة، وبنفس القدر تتضخم لديه مشاعر العجز والقلق، هل ستحمل له هذه الطبيعة العاتية البلاء والشقاء من خلال قسوتها أم الخير والرخاء من خلال عطائها!. هذا الإنسان المعرض دوماً للمفاجأة لم يكن له من ضمانه فعلية سوى تلك التي يؤمنها له التمسك بالماورائيات والتقرب من القوى المسيطرة على الكون[1].

وقد اعتبر الإنسان السومري . منذ البداية . السماء ذات أولوية خاصة في فكره الديني، ذلك أنها كانت بالنسبة إليه مصدراً للأمطار المتجمعة في مجاري الأنهار وبالتالي مصدراً أساسياً لري الأراضي الزراعية مصدر حياته، وقد عبر في لغته السومرية عن السماء بكلمة "آن" An كما استمر في متابعة الاعتقاد في وجود قوى أخرى عديدة اتجه أيضاً إلى تأليهها كالأرض والهواء، والشمس والقمر، والبحر والنهر، كما اتجه السومريون إلى خلق تنظيم جماعي لكافة القوى الإلهية وذلك في جمعية عمومية (البانتيون). وعلى الرغم من أن الإله "آن" إله السماء كان الإله الأول في الفكر الديني السومري، إلا أن الإله "انليل" Enlil إله الهواء والرياح والجو نجح في الاستحواذ على السيادة على كافة الآلهة السومرية، وكانت له صفتان؛ صفة خيرة تهدف إلى مساندة الإنسان السومري في مختلف شؤون حياته وخاصة الزراعية، وصفة شريرة كإله للزوابع والعواصف تهدد حياة ومصير السومري على سطح الأرض، وكان إلى جانب هذا الآن والإنليل الإله انكي Enki إله الماء والأرض والعالم السفلي والحكمة، وكانت

---

[1] **مصطفى حجازي، المرجع السابق، ص:** *36*.

ثمة قوة إلهية رابعة تمثلها الإلهة نينحرساج Ninhurag إلهة الأمومة والإنجاب والجبل. تلي هذه المجموعة الرباعية مجموعة أخرى أقل شأناً مثل إله القمر "نانا" Nanna وإله الشمس أوتو[1] autu. وتنسب أسطورة سومرية قديمة إلى انليل أنه شق قشرة الأرض بفأس حتى ينبثق الناس منها كالنبات، ثم تحيط الآلهة الأخرى بانليل ويجبرونه أن يخصص لهم خدماً من السومريين الذين يطلعون من الأرض[2]، فقد اعتبر السومريون سيد الهواء انليل الإله الأهم بين آلهة البانتيون السومري الأخرى واعتبروه المسؤول الأول عن تشييد المدن ورعايتها بفضل ما يتوفر من أسباب الرخاء والوفرة من بركاتة. وقد تحدثت نصوص الميثولوجيا السومرية عن هذا الاعتقاد السومري في رعاية انليل للمدينة فبدونه:

"لا تؤسس البيوت ولا تشيد المدن
ولا تبنى الزرائب أو ترفع حظائر الغنم
ولا تجلب الفيض الأنهار
ولا يعطي البحر كنوزه الوفيرة
ولا يضع السمك بيضه في الأحواض
ولا تنشر الطيور أعشاش لها في الأرض الرحيبة
من دون انليل لا تفتح أفواهها الغيوم المحملة بالغيث
ولا تمتلئ الحقول بالحب الكثير
ولا تضع البقرة عجلها
أو تلد النعجة حملها"[3].

نشأة المدينة حول المعبد مكنت هذا الأخير من أن يلعب دوراً رئيساً في إطار النظام الاجتماعي الجديد وما يتطلبه من تعاون اجتماعي في ظل الكيان السياسي

---

[1] رشيد الناضوري، المرجع السابق، الكتاب الثالث، ص: *56*.

[2] صمويل كريمر أساطير العالم القديم، المرجع السابق، ص: *77*.

[3] أسامة عبد الرحمن النور وأبو بكر يوسف شلابي، تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات، المرجع السابق، ص: *678*.

الجديد المتمثل في مدينة–الدولة وكانت المدن السومرية في بداية عصر فجر السلالات عبارة عن وحدات سياسية واقتصادية ينطبق عليها مصطلح دولة–المدينة، وكانت هذه المدينة–الدولة المكونة من مدينة مركزيه هي العاصمة يتبعها عدد من القرى والأرياف والأراضي الزراعية. وكان المعبد مدار حياة المدينة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي مركزها السياسي وكان المعبد يحتل موقعاً متوسطاً في المدينة على مرتفع اصطناعي وكل معبد كانت تتبعه مخازن وأماكن للأعمال الإدارية وأماكن أخرى لمختلف ورشات العمل التي يعمل فيها أصحاب مهن متعددة، كما اعتبرت الأرض الزراعية ملكاً للآلهة يعمل فيها الفلاحون خدمه للآلهة وطلباً لمرضاتها[1]، وهكذا كان المعبد بهذا الشكل يشكل نوعاً من الإدارة الإلهية لدولة– المدينة السومرية فكانت تصدر من هذه المنشأة المقدسة القرارات، وكانت تمارس من داخلها كل الصلاحيات التي تتطلبها حياة المدينة–الدولة، وقد تولى كهنة المعابد مهمة الإشراف على تنسيق الجهود وتدبير الأمور.

ب ـ سلطات المجموعة الهيكلية

لقد تهيأ لرجال الدين منذ بداية المدنية في سومر أن يكونوا بمثابة أول مؤسسة تتولى مهام تصريف الشؤون العامة في دولة–المدينة والمتمثلة أساساً في تنظيم الأعمال الاقتصادية سيما الزراعية إضافة إلى واجباتها الدينية، هذا النفوذ الذي تهيأ لجماعة الكهنة في الميدان الاقتصادي والميدان الاجتماعي لا شك أنه كان يمتد إلى الناحية السياسية والفترة الأولي من تاريخ العهد السومري القديم هي الفترة التي يفترض أن الهيكل كان يتمتع بسلطات سياسية واسعة جداً في المدينة–الدولة السومرية أي فترة ما قبل الطوفان والفترة التي تلت الطوفان مباشرة وذلك باعتبار الهيكل نوعاً من الإدارة الإلهية لمجتمع المدينة–الدولة.

---

[1] عبد الله الحلو، لمرجع السابق، ص: 35.

كانت الشرور الاجتماعية . حسب عبارة توينبي . المصاحبة للمدنية والمتمثلة في التباين الطبقي والحرب ستؤثر على الدور الريادي للمعبد في الفترات اللاحقة من هذه الفترة من التاريخ السومري. رغم أن الأدلة النصية لا تتوفر بشكل يمكن من تقديم تصور عن النظام الذي كان سائداً في عهود الأسر السومرية الأولى من عصر فجر السلالات السومرية، إلا أن التحريات الآثارية يمكن الركون إليها في سبيل محاولة تركيب نمط الحياة كما كانت في بداية فجر السلالات. كان كل مواطن ينتمي إلى أحد الهياكل وكان جميع أهل الهيكل من كهنة وموظفين وفلاحين ورعاة وصيادين ومهنيين وتجار وعبيد يعملون لخدمة الهيكل وتحت رعاية. وقد تولى رجال الكهنوت تنظيم هذه الوظائف المختلفة إذ كانوا ينقسمون إلى فئات، فقد عرفت على الأقل أربعين وظيفة كهنوتية، ويحلو للبعض أن يسمي هؤلاء الكهنة الذين يعتبرون الوسيط الضروري بين المؤمنين والآلهة برجال البيعة[1]. وكان على رأس جماعة الهيكل الكاهن الأعظم وربما كان بمثابة الملك. وجماعة الهيكل هي التي تعين العاملين في الإدارات المختلفة، وإليها تأتي الموارد التي تغطي بها النفقات في المدينة.

وقد كان للجماهير السومرية إيمان بزعمائها، هذا الإيمان مبني على الإيمان بالآلهة التي تتمتع بالقدرة والحكمة في نظر كل من الزعماء والجماهير، فكان ذلك عامل التحام اجتماعي مكن مجتمع المدينة الوليد من التغلب على التحديات التي تواجهه وفي مقدمتها تلك المتعلقة بشق الغرين وإقامة المنشآت الضرورية لذلك، وإن ظل الخلاف بين الباحثين يحوم حول طبيعة السلطات التي تمتع بها المعبد في الحياة المدينة مع بداية تشكل الدولة في سومر، في ما إذا كان المعبد هو محور الإدارة السياسية في الدولة السومرية، وفي هذه الحالة حول ما هي طبيعة ذلك النظام الذي يتزعمه المعبد؛ هل هو نوع من الشيوعية الدينية التي ينظمها المعبد؟، أم إن مركزة الأمور حول المعبد كانت تعبيراً عن الوضعية الطبقية التي أصبح المجتمع السومري يعرفها؟، أم أن المعبد

---

[1] أندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص: 118.

كان على مر الفترة المدروسة من التاريخ السياسي السومري مجرد ركن من الأركان أو مؤسسة من المؤسسات التي تؤلف النظام السياسي السومري، وأن أهمية المعبد ضمن هذا النظام تتحدد تبعاً لعوامل ومراحل التطور السياسي طيلة الهد السومري القديم؟.

يرى أصحاب وجهة النظر الأولى أن كل الأعمال التي يقوم بها المواطنون في الدولة–المدينة السومرية كانت تقام لمصلحة إله المدينة الذي يجسده الهيكل، وأن كل هؤلاء العاملين كانت تتم إعالتهم من فائض الغلال التي يجنيها الفلاحون من الحقول. وقد اعتبرت الأرض الزراعية ملكاً للآلهة حيث يشتغل فيها الفلاحون خدمة للآلهة وطلباً لمرضاتهم، والفلاح كان يعتبر مستأجراً للأرض من قبل الآلهة، وكل المنتجات كانت تعتبر ملكاً للآلهة، أما الإنسان الفرد فلم يكن يملك سوى البيت الذي يعيش فيه وأمواله المنقولة وأدوات عمله، وكل من كان لدى المعبد من موظفين أو عمال يتقاضون منه أجورهم عيناً، وكانت للمعبد مخازن من كل شيء مما تحتاجه الجماعة كالشعير والزيت والصوف والتمر وعداها من منتجات مصنوعة[1]. كما أن المعبد هو الذي كان يتولى التجارة بتسيير القوافل التجارية إلى مختلف البلدان، ففي حالة احتياج الدولة إلى المواد الأولية التي لا تنتجها الأرض المحلية وسلع أخرى لا يتم صنعها في المدينة يقوم المعبد بتسيير القوافل التجارية إلى مختلف البلدان لجلب هذه السلع من جبال زاغروس وآسيا الصغرى ومن سواحل الخليج وحتى من مناطق في أفغانستان والهند، فمن أجل الآلهة كان الناس بحاجة إلى عدد كبير من السلع والمواد كالفضة والرصاص والنحاس والقصدير والذهب واللازورد وغير ذلك، وقد كان التجار يجلبون هذه المواد من أماكن بعيدة خدمة للآلهة، والتجار السومريون القدامى والمشرفون على القوافل التجارية كانوا كلهم بمثابة الموظفين عند الآلهة، وكانت تدفع لهم أجورهم ككل الذين يعملون لمصلحة المعبد، ويذكر أن التاجر لم يكن يتعاطى التجارة مع سكان المدينة نفسها التي أقام فيها وكلفه معبدها بالعمل، بل كان من واجبه مبادلة المنتوجات المحلية بغيرها في مدن أو

---

[1] عبد الله الحلو، المرجع السابق، ص: *35*.

بلدان أخرى، وكأجر له وكدليل كذلك على أنه وقف نفسه لخدمة جماعة المعبد، كان التاجر يتلقى نصيباً من محاصيل بلد المعبد إلى جانب الحق في استخدام عدد محدد من الحمير (وسيلة النقل البرى آنذاك) التي يملكها المعبد أثناء رحلاته التجارية[1]. بهذا المعنى يكون شعب المعابد هذا قد عاش في الحقيقة كمجتمع له نظام دقيق في نوع من "الاشتراكية الدينية" أو "شيوعية المعبد". ويرى أصحاب هذه النظرية أن هذا النظام الاجتماعي المعبدي، وما تميز به من سيادة مظاهر المساواة والعدالة، استمر لفترة من الزمن وإن لم يغالوا في طولها. فقبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد بفترة أخذ رجال الكهنوت يستأثرون لأنفسهم بأملاك المجتمع العامة (أملاك الآلهة) وتطورت الأمور في اتجاه الفساد. ولا تختلف وجهة النظر هذه عن وجهة النظر التي قدمها فرانكفورت إذ يرى أن النواة الأصيلة لكل مدينة سومرية هي المجتمع المعبدي، وأن المجموعة البشرية التي تنتمي إلى معبد معين تحرث جزءً من أراضي الهيكل لا يتجاوز ربعها يدعى "الأرض المشاع" أو المشتركة، وهناك قسم آخر هو "الأرض المقطعة" المقسمة إلى قطع موزعة على أعضاء المجموعة لسد حاجاتهم، وهناك قسم ثالث يدعى "الأرض المأجورة" التي تؤجر للمستأجرين بأجر يتراوح ما بين ثلث المحصول وسدسه، ويمكن دفع القسم الأكبر من الأجرة حباً لكنه ينبغي دفع قسم صغير منها بالفضة[2]. وكان الهيكل يقدم كل الأدوات الضرورية لفلاحة الأرض المشتركة. وكان القوم الأعلون منهم والأدنون يعملون كل سنة في "الحقول التي تخص الإله" فيرممون السدود والقنوات سخرة، وكان الكاهن الأعلى يعين نصيب كل فرد من الواجبات المشتركة ويساعده معاون يراقب العمل والمخازن والإدارة. ولم تكن مخازن الحب المكدس تستعمل للبذار وحسب، ولم تكن تحت تصرف الكاهن بمفرده لاستخدامها في القرابين أو لغداء أهل الهيكل، فقد كان للكهنة كما كان لأي شخص آخر نصيبهم لتأمين قوتهم، بينما يرد بعض ثمار العمل المشترك إلى المواطنين على شكل حصص إضافية أيام الأعياد ومع أن الحصص لم تكن

---

[1] المرجع نفسه، ص: 36.

[2] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: 78.

متساوية ولا كانت الواجبات المفروضة على كل الناس شاقة بنفس المقدار، فإن جميع أعضاء المجموعة كانوا من حيث المبدأ متساوين، وكان كل فرد يتناول حصة من الأرض لتأمين حاجاته، وكان الجميع يعملون في الأرض المشتركة وفي الأقنية والسدود، ولم يكن هناك وجود لأقنان محليين اللهم إذا كان بعض الأغراب أو بعض أسرى الحروب يقتنون كعبيد[1]. ولا يستبعد فرانكفورت وجود بعض نقاط الضعف في هذا النظام المعبدي المرتبطة بسوء استعمال السلطة، وإذا كان فرانكفورت يقر بوجود نظام اشتراكي ديني، فإنه يشير إلى ذلك بشكل حذر "‥ وإذا قيل بعد ذلك أن "جماعة الإله الفلاني" . المجموعة الهيكلية . كانت تعيش في ظل نظام من الاشتراكية الثيوقراطية (أي الدينية) فينبغي لنا أن نضيف أن هذا الاقتصاد المنظم كان يشكل نواة قاسية محاطة بمجال واسع من تجارة خاصة بقيت حرة"[2] ذلك أن فرانكفورت لا ينفي وجود الملكية الخاصة، كما أن الهيكل كان يتسلم من الأراضي المشتركة ومن الإيجارات ما يزيد عن حاجته عادة، الأمر الذي يؤدي إلى تكديس الفائض.

أما أرنولد توينبي فيرى أن التغلب على الغرين في سومر يرجع الفضل فيه فعلاً إلى الالتحام بين الجماهير والزعماء وهذا الإيمان قائم على العامل الديني، فقد تمكن السومريون قبل غيرهم من مجتمعات العالم القديم من استعمال الغرين في الزراعة مما مكنه من إنتاج فائض يفوق الحاجة السنوية الضرورية للاستمرار في العيش، ولكن هذا الفائض لم يوزع بالتساوي على جميع أفراد المجتمع الذين كانت لهم جهود مشتركة في إنتاج هذا الفائض، وإنما تم الاحتفاظ به لاستعمال فئة قليلة هي التي حررت طاقتها ووقتها من استعمالها في إنتاج الغذاء، فكان هذا هو الأساس الذي انبثق عنه التباين بين الطبقات، ومن ثم فقد تهيأ لهذه الأقلية أن تتولى شؤون الحكم في المدينة، ولعلها كانت في بداية نشأة المدينة السومرية تقيم في المعبد[3]. وكان هؤلاء الحكام يقومون بدور

---

[1] المرجع نفسه، ص: 80.

[2] المرجع نفسه، ص: 88.

[3] آرنولد توينبي، تاريخ البشرية، المرجع السابق، ص: 63.

الوسيط بين الجماعة والآلهة، ويرى توينبي أن الفلاح السومري لم ينظم عمله الخاص به بنفسه فقد كانت السخرة العامة لصيانة السدود والقنى جزءً من واجبات الفلاح، وكانت عملياته جمعاء تقع تحت إشراف السلطة العامة، إذ أن توزيع ما يلزمه من ماء الري اللازم في كميات معينة وفي فصول معينة كان يقتضي وجود قيادة واحدة تتمتع بقوة لا تقاوم يقول توينبي "وقد خطط لتغلب الإنسان على الغرين زعماء ذوو مخيلته وبعد نظره. وما كانت خطط هؤلاء الزعماء لتتجاوز أحلاماً بعيدة عن التحقيق لو أنهم عجزوا عن إقناع عدد كبير من رجالهم من السير قدماً نحو أهداف لعلهم لم يدركوا كنهها. وقد كان للجماهير إيمان بزعمائها ومثل هذا الإيمان بالزعماء كان قائماً على إيمان بآلهة تتمتع بالقدرة والحكمة، الأمران اللذان كانا يعتبران حقيقة بالنسبة إلى الزعماء وأتباعهم"[1].

أما صوميل كريمر فيرى أنه رغم أن الاعتقاد السائد لدى السومريين ولدى القادة السومريين أن المدينة كلها تعود ملكيتها إلى كبير الآلهة وأن المعبد كان أهم بناء في المدينة، غير أن سدنة المعبد . في نظره . لم يكنوا يملكون عملياً إلا قطعة من الأرض يؤجرونها إلى فلاحين بالمزارعة، أما ما تبقى من الأرض فيعود للملكية الخاصة التي كان يتولاها أفراد المواطنين، وكان الرق مؤسسة معترفاً بها، حيث كان الرقيق منتشراً في المعابد والقصور، وكانت كل جهة تستغل الأرقاء لمنفعتها الخاصة[2]. ولا تبتعد التقديرات التي قدمها طه باقر بشأن الأراضي الزراعية عن ما ذكره كريمر آنفاً، إذ يرجح . حسب باقر . أن حصة المعبد من الأراضي الزراعية التابعة إلى المدينة تقدر بنحو ربع الأراضي وعلى أكثر تقدير نصف الأرضي، وأما الأراضي الأخرى فتعود ملكيتها إلى الأفراد الخاصين ولهم الحق في التصرف فيها بالبيع والشراء والإيجار[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: *62*.

[2] صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق،*62*، *69*.

[3] طه باقر، المرجع السابق، ص: *336*.

ما يمكن أن نخلص إليه أن المعبد كان البؤرة التي نمت حولها وتطورت الحياة المدنية في سومر، فقد كان المعبد مركز حياة القرية الفلاحية ثم المدينة حين تطورت القرى إلى مدن ثم دولة المدينة حيث أصبح مدار حياتها الدينية والاقتصادية والاجتماعية. ومن المرجح ـ حسب طه باقر ـ أن قوام المعابد ومديري شؤونها كانوا أقدم حكام في المجتمعات السومرية المتحضرة، حيث كان الكاهن الأعلى "أينEn" حاكم المجتمع المعبدي في الوقت نفسه يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية قبل أن تنفصل السلطتان في وقت لاحق من التاريخ السياسي السومري[1]. ورغم الدور المحوري الذي يلعبه المعبد في الحياة اليومية للدولة السومرية، خاصة في بدايات الحياة المدنية في سومر في فترة يمكنه تسميتها بفترة الانتقال من نظام المشاعات القروية إلى نظام الدولة، فإنه لا يمكن اعتبار جماعة الكهنة المؤسسة السياسية الوحيدة، إذ يفترض أنه وحتى في المرحلة البدئية من قيام المدينة السومرية، والتي يحلو للبعض أن يسميها مرحلة الشيوعية الدينية أو اشتراكية المعبد، يفترض في هذه الحال أن تكون السلطة في أيدي المواطنين. و تجدر الإشارة هنا إلى أنه وحتى في الفترات اللاحقة من التاريخ السياسي السومري والتي ستشهد مزيداً من الانفصال بين السلطتين الزمنية والدينية، بسبب سيادة القصر مقابل تراجع سلطات الهيكل، فإن ذلك لم يقض على دور الهيكل ضمن البنية السياسية السومرية، فقد كان الملك وحتى في حالة اغتصاب السلطة عن طريق العنف حريصاً على أن يكون مجرد خليفة للآلهة وممثلاً عنها ومسؤولاً أمامها، وهي مهمة لا يمكن أن تجد طريقها إلى عقول العامة إلا عن طريق مؤسسة الهيكل، حيث كان الكهان والشعراء ما ينفكون يذكرون في التراتيل التي يثنون بها عليه وفي الاحتفالات التي كانت تقام في المناسبات، بأن الآلهة قد اختارته للنيابة عنها في إدارة شؤون البلاد ولمصلحة العباد.

---

[1] المرجع نفسه، ص: 382.

ثانياً - المجالس العرفية في سومر

تذهب بعض الدراسات التي تناولت القضية السومرية إلى أنه لا يجب أن نظل ننظر إلى التاريخ السياسي السومري بوصفه مختزلاً بين قطبين اثنين فقط: المعبد والقصر باعتبارهما العنصرين المحددين لتطور النظام السياسي في سومر، وباعتبارهما كذلك المؤسستين السياسيتين اللتين ظلتا تتجاذبان الصلاحيات السياسية في الدولة، بل كانت ثمة قوة اجتماعية تشهد بمشاركة المواطنين السومريين في شؤون الحكم بواسطة مجالس عرفية (مجالس المواطنين)، إذ كان لهذه المجالس دورها في الحياة السياسية وخاصة خلال الفترة السومرية العتيقة التي نتناولها بالدراسة والتي أستغرق جلها نظام المدينة–الدولة. ويرى أصحاب هذا الطرح أنه رغم اختفاء هذا المظهر في الفترات اللاحقة من التاريخ السياسي لبلاد ما بين النهرين، اللهم إذا اعتبرنا ما كان في كل مدينة بابلية في العهد البابلي القديم من وجود مجلس يضم المسنين أو الشيوخ ينظر في الأمور القضائية التي تحال إليه من محاكم المدينة بقايا أو آثار لذلك النوع من الديمقراطية الأولية في العهد السومري القديم، فيمكن اعتباره بمثابة مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني لأنه يشهد بتواجد التفكير الديمقراطي في بداية العصور التاريخية.

أ - بنية المجالس العرفية

ليس غريباً أن يكون البحث في نشأة وفى طبيعة مجالس المواطنين أو المجالس العرفية كجزء من بنية النظام السياسي في عصر فجر السلالات السومرية مثار إشكال بين الباحثين، فهذا الشكل من التنظيم السياسي الذي يعتبر مرحلة من ممارسة الديمقراطية قد يبدو للوهلة الأولى متناقضاً مع طبيعة التطور الحاصل في الميدان الاجتماعي في بداية العصر التاريخي، فقد ذكرنا سابقاً أن النظام السياسي انبثق عن التغير الذي أصاب البنية الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعات ما قبل المدنية، فقد أدى تحطم الاقتصاديات القائمة على المشعات القروية إلى تباين في الطبقات وتحكم الأرستقراطية في الفائض، وبالتالي تمكنها من التحكم في السلطة إلا أنه وحسب ما رأينا

كذلك فإن سيادة نظام المدينة–الدولة من جهة والصلاحيات الواسعة للمعبد كمؤسسة تمتعت بقدر كبير من سيادة روح المساواة ومن الالتزام تجاه مصلحة المجموع من جهة ثانية، أمران من شأنهما أن يبررا وجود نوع من المشاركة الشعبية في الحكم .

مع أن ذكر الجمعيات العمومية ومجالس كبار السن قد ورد في ألواح العصر الشبيه بالكتابي، إلا أن البينات المتوفرة عن هذه الفترة أضأل من أن تقدم لنا معلومات متكاملة عن الإطار العام لنشأة وتطور هذا الشكل من التنظيم السياسي. ومع ذلك فورود الإشارة إلى تواجد المجالس العرفية في تلك الفترة البدئية من تاريخ الدولة في سومر، يعطينا إشارة إلى أن ما يعرف بالديمقراطية الأولية تعود في نشأتها إلى بداية قيام المدن نفسها، وهى فكرة تتفق مع التساوق التاريخي لتطور فكرة السلطة، فالدولة لا شك أنها قد نهضت أولاً على أنقاض نظام العشائر الذي نشأت في رحمه منظمات الدولة. والسمة الجوهرية في الدولة تتمثل في وجود سلطة عامة منعزلة عن المجتمع وتعارضه "أركان هذه السلطة هم أخوة السلاح والمحكمة المكونة من الزعماء والشيوخ"[1]، إلا أن الجديد أن الرابطة بين الناس أصبحت تتبني على أساس مبدأ الأرض وليس مبدأ القربى. ووجود هذه المؤسسات التي تحمل سمات الديمقراطية في بداية نظام المدينة–الدولة في سومر أمر طبيعي، وهو ما لخصه فرانكفورت حيث قال: "ويحسن بنا أن نتفهم طبيعة هذا الطابع العجيب لهذا الشكل المدني من التنظيم السياسي فهو يمثل في أعلى درجاته الشعور والتأكيد الذاتيين الشديدين اللذين لاحظناهما كمميزين لتحديدات الفترة الشبيهة بالكتابية. أنه مؤسسة من صنع الإنسان يعلو على الانقسام الطبيعي الأولي لمجتمع تألف من العائلات والقبائل. وهو يؤكد أن المسكن لا القرابة هو الذي يحدد علاقات المرء"[2].

---

[1] ف. دياكوف/ ي. كوفاليوف، الحضارات القديمة، الجزء الأول، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، منشورات دار علاء الدين، ط1، دمشق، 2000، ص: 64.

[2] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: 92.

يظهر من الوثائق السومرية أن المدن السومرية كانت توجد بها جمعيات شعبيه ومجالس شيوخ. وأهم نص يمكننا أن نستخلص منه طبيعة المؤسسات الديمقراطية في المدن–الدول السومرية تلك القصيدة من شعر الملاحم التي تحكي قصة "جلجامش" حاكم أوروك و"آجا" حاكم كيش والتي تم الكشف عنها منقوشة في ألواح من الطين، وكان قد تم تدوينها بعد قرون عديدة ربما ناهزت ألف عام مضت على زمن وقوع الحوادث التي ترويها. لقد عمل الشاعر السومري من خلال قصيدته هذه على سرد قصة النزاع بين أوروك وبين كيش، ورغم أن الشاعر اتبع الأسلوب الملحمي حيث تداخلت الميثولوجيا مع المعتقدات الدينية والحقائق التاريخية، غير أنه مع ذلك يمكن تمييز إشارة واضحة وردت على لسان ذلك الشاعر المجنح الخيال تتعلق بوجود مؤسستين في أوروك يبدو أنهما لم تتمكنا من توحيد قرارهما بشأن الحرب مع كيش، إذ يستشف من وراء السطور أن مدينة أوروك قد أنقسم الرأي فيها إلى حزبين متعارضين: حزب مؤيد للحرب يمثله المجلس الذي يضم كل الرجال القادرين على حمل السلاح، وحزب رافض للحرب يريد السلم يمثله مجلس لشيوخ المدينة.

كانت الأوضاع السياسية التي تطلبت انعقاد هاذين المجلسين تتعلق بحالة حرب وشيكة الوقوع بين المدينتين المذكورتين. فقد كانت بلاد سومر في غضون الألف الثالث قبل الميلاد مؤلفة من عدد من دويلات–المدن، وقد كانت عوامل النزاع قائمة، وكانت دولة–مدينة كيش من أهم هذه الدويلات، فهي المدينة التي ذكرت الوثائق السومرية أنها تسلمت الملوكية من السماء بعد حادثة الطوفان[1]، وكانت هناك مدينة–دولة أخرى هي أوروك الواقعة بمسافة بعيدة إلى الجنوب من كيش ما فتئت أن أصبحت تزاحم هذه الأخيرة على السيطرة والنفوذ السياسي حتى قادها الحال إلى أن أصبحت تهدد سلطان كيش، وأدرك ملك كيش عندئذ مبلغ الخطر الذي يتهدده من أوروك فشرع يهدد أهلها بشن الحرب إذا أبوا الاعتراف به سيداً عليهم. في هذه الفترة بالذات التأم في أوروك كل

---

[1] طه باقر، المرجع السابق، ص: 288.

من مجلس الشيوخ ومجلس الرجال القادرين على حمل السلاح للبت في أي السبيلين على أوروك أن تختاره: الخضوع والإذعان إلى سلطان كيش والركون إلى السلم، أم إشهار السلاح وخوض الحرب دفاعاً وحفاظاً على الاستقلال.

تبدأ قصة النزاع بين كيش وأوروك . حسب ما ترويه القصيدة الملحمية . بذكر وصول الرسل الذين أرسلهم آجا إلى مدينة أوروك وهم يحملون إنذاراً نهائياً إلى ملكها جلجامش وقبل أن يجيب جلجاش أولئك الرسل قصد مجلس مدينته المنعقد وحث أعضاءه على أن لا يخضعوا لمطالب كيش وأن يعلنوا الحرب بدلاً من ذلك، إلا أن الشيوخ وقفوا موقفاً مختلفاً عن رأى جلجامش إذ فضلوا السلم على الحرب واختاروا الإذعان والخضوع لمدينة كيش، فأغضب جلجامش قرارهم ذلك فقصد مجلس الرجال المحاربين من أهل مدينته وكرر عليهم طلبه فقرر أعضاء هذا المجلس خوض الحرب ضد كيش ورفضوا الخضوع لها فسر ذلك جلجامش:

"إن مبعوثي (رسل) آجا بن اينميبراجيسي شرعوا بالسفر من كيش إلى جلجامش في أوروك،

فعرض السيد جلجامش الأمر على مجلس شيوخ مدينته وقال لهم:

علينا أن لا نذعن لبيت كيش لنحارب بالسلاح، ولكن مجلس شيوخ المدينة المنعقد أجاب جلجامش:

لنذعن إلى بيت كيش ولا نحارب بالسلاح.
أما جلجامش سيد كُلّاب، الذي حقق أعمال البطولة من أجل الإلهة انانا،
فلم يسر لكلمات شيوخ مدينته
إن جلجامش سيد كُلّاب، مرة أخرى،
عرض الأمر على مجلس "محاربي مدينته" وطلب إقرارهم كلمته،
لا تذعنوا لبيت كيش لنضربه بالسلاح،

فأجاب مجلس المحاربين جلجامش قائلين له:

لا نذعن إلى ببيت كيش ولنضربه بالسلاح.

وعندئذ سُر جلجامش سيد كلاب،

لكلام محاربي مدينته وابتهجت روحه"[1].

هذا النص هو أهم الوثائق السومرية التي يركن إليها مؤيدو نظرية الديمقراطية التي يروا أنها سادت سومر في الفترات المبكرة من تاريخ الدولة فيها. ومن أشد المؤيدين لهذه النظرية تحمساً واندفاعاً عالم السومريات صمويل كريمر الذي يؤكد . اعتماداً على النص أعلاه . أن سومر قد عرفت فعلاً النظام الديمقراطى وفى مرحلة متقادمة من تاريخها "أجل إن أول برلمان سياسي معروف في تاريخ الإنسان المدون قد التأم في جلسة خطيرة في حدود 3000 ق.م ولقد كان مثل برلماننا مؤلفاً من مجلسين: الأعيان (الشيوخ) ومن مجلس العموم (النواب) المؤلف من المواطنين الذكور القادرين على حمل السلاح، وكان "برلمان حرب" دعي للانعقاد ليتخذ قراره في أمر خطير يخص الحرب والسلم، لقد كان عليه أن يختار بين السلم بأي ثمن كان وبين الحرب مع الاستقلال"[2]. ولكن كريمر مع تحمسه لنظرية الديمقراطية السومرية والاندفاع وراءها وإطلاقه الفرضيات التنظيرية لخدمة النظرية، إلا أنه مع ذلك يعترف بعدم التمكن من الحصول على بينات كافية تمكن من تقديم معلومات متكاملة عن بنية هذا النظام. فالنص المذكور، لم يتعرض لعدد الأعضاء في المجلسين، وكيف كان ينتخب أعضاء المجلسين؟ وما هي الطريقة المتبعة في المداولات ؟ وكيف كان يتم الحصول على نتيجة رأى المجلس النهائية؟ وما هو الأسلوب المتبع في التصويت؟.

وقد اختلف الباحثون في ما إذا كانت الجمعية العمومية تضم جميع المواطنين البالغين في المدينة، أم أنها كانت تضم فقط الرجال القادرين على حمل السلاح أي

---

[1] صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: *86*.

[2] المرجع نفسه، ص: *81*.

الشباب[1]. ويرى بعض الباحثين استناداً إلى بعض الدراسات الأنثروبولوجية أن السلطة العليا في أقدم مجتمع سومري كانت بيد مجلس عام يضم جميع المواطنين، ولعله ضم النساء والرجال، وكان يجتمع ليقرر ما يجب عمله في الحالات الطارئة والتي تنذر بالخطر، وكان لكل مواطن حق الكلام، غير أن رأي بعضهم سيما الرجال المسنين كان من الطبيعي أن يكون أكثر وزناً من رأي الآخرين، وكان النقاش يستمر حتى الوصول إلى قرار نهائي وبالإجماع، حيث لم يكن هناك أسلوب أخذ رأي الأغلبية، وكان القرار النهائي يعلن عادة من قبل مجموعة صغيرة تدعى مشرعي القانون[2].

وأمام شح المصادر المتعلقة بالمجالس العرفية في سومر لا يبقى أمامن الباحث إلا التخمين في سبيل تقديم تصور شامل عن طبيعة هذه المؤسسات، فورود أخبار الجمعيات الشعبية في الوثائق التي تعود إلى فترة متقدمة جداً من تاريخ الدولة في سومر لا شك يجعلنا نقبل بوجود دور للقوى الاجتماعية في الحياة السياسية السومرية، إلا أن ذلك لا يجعلنا نذهب بعيداً في إطلاق الفرضيات التي تجعل سومر قد عرفت فعلاً النظام الديمقراطي كما هو معروف اليوم أو كما كان سائداً في المدن اليونانية في النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد بل علينا أن نضع تلك المؤسسات السياسية التي عرفتها المدنية السومرية في بداية تشكل الدولة في سومر في إطارها التاريخي، فتفكك نظام العشير وتشتت المشاعات وتكدس الفائض أمور أدت إلى تحكم مجموعة من الأسر الغنية وأصبحت العلاقات تبنى على أساس الجوار أو الأرض بدلاً من الدم، وكلما توطد تفوق الأغنياء والنبلاء تترك الديمقراطية البدائية المكان لفوقية سياسة جديدة هي الديمقراطية العسكرية لها قائد ومجلس شيوخ وجمعية شعبية[3]. من هذا المنظور فلعله من الممكن اعتبار المجالس العرفية في سومر في بداية العصر التاريخي

---

[1] مجموعة من الباحثين العراقيين، العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، *1981*، ص: *185*. محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، *1990*، ص: *97*.

[2] هاري ساكز، المرجع السابق، ص: *57*.

[3] ف. دياكوف/ س. كوفاليوف، المرجع السابق، ص: *63*.

استمراراً لنظام الديمقراطية العسكرية. ولعل في الصلاحيات المحددة ضمن اختصاصها ما يؤكد ذلك.

ب – صلاحيات المجالس العرفية

مثل ما هو حاصل بشأن بنية المجالس العرفية في سومرلا تزال الوثائق أضأل من أن تمكننا من تقديم تصور متكامل لنوع وحجم الصلاحيات الداخلة في اختصاص هذه المجالس. ورغم أن النص الذي اعتمدنا عليه في الفقرة السابقة يرينا أن تلك الجلسات التي عقدت في أوروك كانت بدافع نقاش أمور الحرب، ورغم أنه لم تتوفر نصوص أخرى تمكن من معرفة ما إذا كانت المجالس الشعبية ومجالس الأعيان في سومر لا تملك من الاختصاصات إلا حق التشاور في أمور الحرب أم لها صلاحيات أخرى أوسع، رغم كل ذلك فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن المجالس العرفية كانت لها صلاحيات متعددة في إطار النظام السياسي لدولة–المدينة خلال العهد السومري القديم.

لقد افترض فرانكفورت أن السلطة السياسية في دولة–المدينة في سومر كانت في الأصل بأيدي المواطنين وأن السيادة كانت تنحصر في مجلس يضم جميع المواطنين الأحرار، يقوم بإرشادهم جماعة من الشيوخ، الذين كانوا بالإضافة إلى ذلك مسؤولين عن الشؤون اليومية في المدينة[1]، وبناءً على ما أحرزه السومريون مند فجر التاريخ من تألق في مختلف المجالات المرتبطة بحياة التمدن، كالمدن ذات المباني العامة الكبيرة، والتجارة النشطة التي امتد مداها إلى الأقطار المجاورة والبعيدة، وما أحرزوه من خلق، وإبداع في المجال الديني والفكري والعلمي، بناءً على هذا فلا يستغرب كريمر أن يكون السومريون قد أحرزوا في حقل السياسة كذلك تقدماً مهماً وخطوا الخطوات الأولى نحو الحكومة الديمقراطية بالهيمنة على سلطات الملوك والاعتراف بحقوق المجالس السياسية[2]، ويرى رشيد الناضوري أن وظيفة الجمعية العمومية التي تضم جميع

---

[1] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: 91.

[2] صميل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: 83.

المواطنين في المدينة–الدولة السومرية تتمثل في الاجتماع وقت الحاجة للبت في موضوع يهم المدينة بأسرها مثل عملية اختيار المسؤولين في حكومة المدينة، ويذكر أن انتخاب الحاكم الذي يرأس الحكومة يتم بناءً على قرارات الجمعية العمومية[1]. ويكاد يتم الاتفاق بين جل الباحثين على أن المجالس العرفية في المدينة–الدولة السومرية كانت تتولى إدارة جميع الشؤون العامة رغم اختلافهم (أي الباحثين) حول توزيع الصلاحيات بين مجلس المواطنين ومجلس الشيوخ، وأن أهم القرارات التي كان على المجلسين اتخاذها هي القرارات المتعلقة بالحرب واختيار المسؤول الأعلى للمدينة إذ كانت هذه المجالس تنتخب المسؤول المدني "انسي Ensi" الذي تنحصر سلطاته في الشؤون الزراعة وما تتطلبه من مشروعات تتصل بعمليات الري، كما كانت تنتخب كذلك المسؤول العسكري "لوجال Lugal" وأهم مهامه التفرغ لمواجهة الظروف الاستثنائية والمخاطر الحربية[2]، وحسب هاري ساكز أن من بين القرارات التي كان على المجلس الشعبي اتخاذها باستمرار هو اختيار مواطن يدعى بالسومرية "اين En" وهى كلمة تعنى "السيد" وكان هذا الشخص في بداية عصر فجر السلالات موظفاً دينياً بالدرجة الأولى إذ كان يلعب دوراً أساساً في الزواج المقدس. وأما في حالات الهجوم من الخارج فكان على المجلس أن يجتمع ليختار له قائداً حربياً "لوجال Lugal" والمعنى الحرفي لهذا اللقب "الرجل الكبير" أو "الرجل العظيم"[3]، وحسب ما يلاحظ مؤيدو نظرية الديمقراطية السومرية أنه لم تكن وظيفة ال"اين" أو ال"انسي" أو ال"لوجال" دائمة ولا وراثية، بل كانت تتوقف على موافقة أعضاء الجمعية العمومية، ولكن سرعان ما تمكنت بعض الشخصيات القوية من جعل هذه الوظائف دائمة.

ورغم كل ما ذهب إليه الباحثون فلا يمكن تجاوز حدود ما توحي به الوثائق ولا يمكن تحميل النصوص أكثر مما تحمله. ما يستفاد من النص الشعري الذي يتناول

---

[1] رشيد الناضوري، المرجع السابق، الكتاب الأول، ص: 252.

[2] المرجع نفسه، ص: 253.

[3] هاري ساكز، المرجع السابق، ص: 58، 85.

قضية تعامل أهل أوروك مع أمر الحرب مع كيش، هو أن اجتماع أهالي أوروك جاء في ظروف طارئة وغير اعتيادية بسبب التهديد المعلن من ملك كيش، وطبيعي أن يتوجه الملك في تلك الفترة البدئية من تاريخ نشأة الدولة إلى أهل المدينة لأخذ رأيهم بشأن الحرب، سيما وأن الجيش في الدولة السومرية حينئذ كان لا يزال يتكون من المواطنين العاديين ولمّا يصبح بعد مؤسسة مستقلة، فجلجامش لم يعرض أمر الحرب في البداية على مجلس المواطنين "أو مجلس الرجال المحاربين في المدينة" بل عرضه على مجلس شيوخ المدينة ولما لم يظفر بموافقة الشيوخ على قرار خوض الحرب ضد كيش، التجأ مباشرة إلى المحاربين مخاطباً فيهم الروح المعنوية بأن لا يذعنوا للبيت الكيشي بل ليحاربوه بالسلاح. من هذا المنظور نستطيع تصور أن ما كان سائداً في سومر أقرب إلى نظام الديمقراطية العسكرية الأقرب بدوره إلى الأسلوب البدائي منه إلى النظام الديمقراطي.

ومهما يكن فإن هذا الشكل من التنظيم كان قد انهار في عصور الأسر الأولى بفعل التطورات السياسية التي شهدتها المدن السومرية على مر الألف الثالث قبل الميلاد. تلك التطورات التي يطبعها عدم الاستقرار، حيث كان الصراع المستمر بين تلك المدن على السيادة خاصة على الأراضي الزراعية ومياه الري والقنوات التي تمون الأراضي الزراعية بحاجتها من المياه، إذ كانت مثار نزاع مباشر بين المدن–الدول السومرية. ظروف الصراع هذه أدت إلى أن أصبح ال" لوجال" يتمتع، بشكل دائم، بالصلاحيات الممنوحة له ثم تنتقل بالوراثة داخل بيته. هكذا كانت نشأة النظام الملكي في سومر. وإن كانت آثار الديمقراطية البدائية ظلت قائمة في مدينة–الدولة السومرية بعد نشأة الملكية مثل ما كان عليه الوضع في أوروك أيام حكم جلجامش في الفترة العائدة إلى عصر فجر السلالات الثاني (2700 – 2550 ق. م)، فإن ذلك كان لفترة قصيرة وفى الظروف الاستثنائية فحسب إذ ما فتئ أن انهار نهائياً وساد الحكم الفردي.

المبحث الثاني

الملكية في العهد السومري القديم

لم يكن الملوك هم الذين دفعوا بالناس إلى حياة الزراعية والاستقرار والمدنية، بل يرجع الفضل في ذلك لخصوبة التربة وللأفكار الخاصة بالآلهة وتقبل وانقياد عامة الناس لهذه الأفكار. وهكذا فقد كانت أقدم الحكومات حكومات كهنوتية، فجميع حكام سومر الأولين كانوا من الكهنة، ارتقوا العروش في مدنهم لأنهم رؤساء الكهنة. غير أن الحكومات الكهنوتية كانت لها أسباب عجزها، خاصة في ظل ظروف الصراع المستمر بين المدن–الدول السومرية مما فتح المجال للزعماء والقواد المحاربين كي يحتفظوا بسلطات واسعة مكنتهم من الاشتراك في إدارة شؤون الحكم حتى في حالة السلم، ثم تطور مركز الزعيم إلى أن أصبح يشكل مؤسسة متميزة تتخذ من القصر مقراً لها.

ظهور القصر يعني ظهور منافس للمعبد على السلطة ولو كان ذلك بشكل غير معلن وإذا كان الصراع بين المعبد والقصر لم يكتب له أن يستمر طويلاً حيث استطاع القصر أن يشق طريقة بسرعة لكسب السبق في انتزاع السلطة العليا في المدينة، فإن

ذلك لم يعن القضاء على مؤسسة الهيكل وعلى دورها في الحياة السياسية في سومر، بل ظل الهيكل المؤسسة الثانية التي لا غنى للقصر عنها كما ظلت للمجموعة الهيكلية صلاحياتها وامتيازاتها الخاصة، ولكن ذلك في إطار علاقة التبعية لمؤسسة القصر، هذا ولا يستبعد أن تكون السلطة الملكية في بعض الحالات منبثقة من المؤسسة الكهنوتية، وهو ما ذهب إليه بعض الباحثين[1] ذلك أن الكاهن الأعلى والحاكم التنفيذي، الذي كان يمارس سلطاته باسم إله المدينة في ظل سيادة المعبد عند فجر المدنية، قد تطورت سلطاته بمرور الزمن، فأصبح ملكاً مستقلاً مع محافظته على رابطته بالآلهة.

ولم ينف مؤيدو نظرية الديمقراطية السومرية وجود المنصب الملكي في بداية نشأة الدولة في سومر، إلا أنهم يرون أن المنصب الملكي لم تكن له إلا سلطات محدودة، حيث كان يحكم لفترة محدودة من الزمن وذلك في حالة الطوارئ. وعند انتهاء هذه الظروف كانت السلطة تعود إلى مجالس المواطنين. بيد أن خطر الطوارئ كان أمراً مترقباً، فالمساحات الزراعية القريبة من المدن ومسائل التجفيف والري وتأمين سلامة نقل المؤن من شأنها أن تجعل النزاع بين المدن المتجاورة مسألة كثيرة الانتشار، ومن ثم تصبح الظروف ملائمة لجعل القصر الملكي يحكم بشكل دائم[2]. ولقد أطلق على حكام المدن–الدولة السومرية خلال المراحل المتعاقبة من تطورها السياسي عدد من الألقاب المختلفة للتعبير عن صيغ قيادة الدولة لكن الألقاب لم تكن محددة بشكل دقيق. فقد كان حاكم دولة–المدينة رئيساً لكهنة المعابد المختلفة باعتباره "الراعي" المختار من قبل إله المدينة والمسؤول بصفة مباشرة أمامه. في النصوص القديمة العائدة لمدينة أوروك كان يطلق على الحكام اسم "اين" وهو لقب يترجم عادة إلى كلمة "المولى" وتارة إلى "الملك" أو "الأمير" ومن المنطقي إمكانية اعتباره الكاهن الأعلى لإله المدينة ورئيس المعبد الذي نمت حوله المدينة السومرية أصلاً. وفي غضون عصر فجر السلالات عرف الحاكم تسميات مختلفة، فقد شاع استخدام اللقب "إنسي" ويقرأ أحياناً "باتيسي"، وقد تقرأ الكلمة

---

[1] وليم هاولز، المرجع السابق، ص: 442.

[2] هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص: 93، 94.

مقطعة "با- تي- سي" وهي تعني "(با) الرئيس الذي يخطط (سي) منطقة المعبد (تي)" وعموماً فالكلمتان "إنسي" و"باتيسي" تترجمان إما إلى "حاكم" أو "مشرف"، وهناك اللقب "إيشاكو" ومن معانيها "بواب الإله"، أما كلمة "لوجال" فتعني "الرجل (لو) العظيم (جال)" وتترجم عادة إلى "ملك"[1]. وعموماً فقد كان التمييز بين هذه الألقاب موضع جدل بين الباحثين، ونشير هنا إلى أن تعدد الأسماء ربما يرجع إلى اختلاف في التسمية التي كانت كل مدينة دولة تطلقها على حاكمها، إلا أنه مهما اختلفت التفسيرات المقدمة بشأن هذه الألقاب . كما مر بنا سابقاً . وحول دورها في تفسير طبيعة نظام الحكم في سومر، فلقد تلقب رأس الحكم في المدينة السومرية في البداية بلقب "انسي" وربما تعني هذه الكلمة "النائب" أو "الوكيل" إشارة إلى سلطاته الدينية والمدنية[2]، وظلت الصبغة الدينية الصق بلقب "إنسي" فترتب على ذلك أن انفسح المجال أمام كهنة الآلهة السومرية ليكون لهم شأن فعال في أوضاع وسياسات دويلات-المدن السومرية. وظلت المعابد تحظى بنصيب كبير من ثروات المدن وأراضيها وضرائب أصحابها حتى أصبحت بأملاكها شبه وحدات اقتصادية وإدارية قائمة بذاتها. ثم مال حكام المدن إلى تغليب الصبغة السياسية في سلطاتهم وتلقب كل منهم بلقب "لوجال" بمعنى الرجل العظيم وبما يرادف لقب "ملك"، واتسعت سلطاتهم المدنية على حساب سلطات الكهان، وإن ظلوا من الناحية الشكلية يعتبرون ممثلين لمعبوداتهم على الأرض، ويدعون أنهم يصدرون في تصرفاتهم عن وحيهم سيما في أوقات الحروب[3]. وتجدر الإشارة إلى أن التنظيم السياسي لدويلات-المدن إنما كان يرتبط بالأفكار الدينية السومرية، حيث اعتقد الإنسان السومري بأن للآلهة جمعيتها العمومية التي تضم جميع الآلهة، وكان على رأس هذه الجمعية المعبود "آنو" إله السماء وملك الآلهة، آمن السومري بأن الملكية قد أنزلت من السماء. وكلما اشتد الصراع بين الدويلات السومرية وزاد احتداماً، وكلما أشتد الضغط من الأقوام

---

[1] جورج رو، المرجع السابق، ص: *187*. رشيد الناضوري، المرجع السابق، الكتاب الأول، ص: *253*.

[2] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *454*.

[3] محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، المرجع السابق، ص: *98*.

البدوية إلى الشرق والغرب من سومر زادت الحاجة إلى القيادة العسكرية واحتل الـ"لوجل" (الرجل العظيم أو الملك) مكان الصدارة. وإذا كان الملك في بدايات تشكل النظام السياسي السومري يتم اختياره من قبل مجلس المدينة، فإنه ما فتئ أن احتفظ بالصلاحيات الممنوحة له بشكل دائم، ثم تدرج به الأمر لكي يصبح النظام ملكياً بكل امتيازاته وخصوصياته ويغدو مؤسسة وراثية تعتبر مسؤولة عن الواجبات المقدسة والوطنية، وأصبح الملك يجمع بين يديه أعمال القيادة العسكرية ورئاسة القضاء وزعامة رجال الدين وإدارة معبد الإله[1]. وفي مقدمة واجبات الملك صد الأعداء عن البلاد وتوسيع أراضيها وبسط سلطانها وزيادة نفوذها، بالإضافة إلى بناء المعابد وترميمها، وقد ظلت المدن–الدول في سومر تتحارب في ما بينها وتفرض إحداها سلطانها من حين لآخر على الأخرى، حتى تمكن "لوجال زاجيزي"، ذلك الملك القوي الذي تمكن من توطيد سلطانه في اثنتين من المدن–الدول السومرية هما أوما وأوروك، تمكن من توسيع سلطانه بضم كامل المدن–الدول السومرية الأخرى، وفرض التوحيد السياسي على كافة البلاد السومرية. وما إن استتب الأمر للملك زاجيزي خلال وقت قصير وشرع في تنظيم إمبراطوريته، حتى فاجأه ظهور ملك طموح هو الآخر من خارج الكيانات السومرية هو سرجون الأكادي "سرجون الكبير" الذي أطاح بحكم لوجال زاجيزي وأخضع بلاد سومر لسلطانه في حدود عام 2340 ق.م واضعاً بذلك نهاية لفترة العهد السومري القديم. وقد عرفت سومر خلال عصر ما قبل سرجون العديد من الأسرات الملكية تتابع الملوك فيها واحداً بعد الآخر حسب ما تبينه الوثائق السومرية التي بين أيدينا.

أهم المصادر السومرية الخاصة بالموضوع تلك الوثيقة المعروفة باسم " أثبات الملوك السومرية" التي يرجع تأليفها إلى زمن سلالة أور الثالثة (2112 – 2004 ق،م) أو لعله قبيل ذلك في الفترة القصيرة التي حكم فيها "أوتو–حيجال" ولكن آخر نسخة منها تعود إلى عهد سلالة ايسين (2017– 1794 ق.م) حيث تنتهي جداول الملوك التي

---

[1] **جورج رو، المرجع السابق، ص:** ***187.***

توردها هذه الوثيقة بآخر ملوك هذه السلالة. وعلى الرغم من مواطن الضعف في هذه الوثيقة مثل عدم ذكر بعض السلالات والملوك ممن عرف من مصادر أخرى أنهم حكموا في عصر فجر السلالات مثل سلالة لجش الشهيرة، كما يلاحظ على وثيقة أثبات الملوك السومرية المبالغة في أرقام السنين المخصصة لحكم الملوك. وعلى الرغم من ذلك فهي تعتبر مصدراً مهماً من مصادر الملكية في العهد السومري القديم، فهي تتضمن مادة تاريخية ترجع إلى بداية العصر التاريخي بل إلى أقدم من ذلك فهي تذكر أسماء المدن الأولى التي كانت قبل الطوفان، ثم تذكر أسماء المدن التي حكمت بعد الطوفان، بالإضافة إلى أسماء الملوك وسنوات حكمهم. وعندنا الوثيقة المعروفة باسم "نص تمال" المدون على لوح من الطين والذي وجدت منه نسخة في نفر من العصر البابلي القديم وهي عبارة عن سجل بأسماء الملوك الذين قاموا بتجديد المعبد المسمى "تمال" في نفر المخصص للإلهة "تنليل" زوجة الإله "انليل". بالإضافة إلى ذلك فهناك العديد من النصوص الأدبية. ثم إن هناك وثيقة أخرى متأخرة جداً سجلها في العصر اليوناني أحد كهنة الإله مردوخ (إله مدينة بابل) وهو بروسوس، وكان ذلك في عهد انطيوخوس الأول الذي حكم من 281 –261 ق.م. وتختلف المعلومات الواردة في وثيقة بروسوس عن ما ورد في وثيقة أثبات الملوك السومرية من حيث عدد الحكام وأسمائهم وسنوات حكمهم[1]. لقد حكمت سومر خلال الفترة السومرية الباكرة العديد من السلالات الملكية تعاقب على عروشها الكثير من الملوك، ونظراًً لهذا العدد الكبير من الملوك ونظراً لتعدد السلالات الملكية والتي لا شك أن بعضها كان معاصراً للبعض فلعل محاولة تقديم تصور شامل عن طبيعة المؤسسة الملكية عبر مختلف المراحل التطورية التي مر بها النظام السياسي السومري في عهده العتيق، لعلها تكون ممكنة عن طريق التعرض لنماذج من الملوك البارزين الذين حكموا في فترات زمنية مختلفة تبعاً للتسلسل المرحلي للعصر السومري القديم.

[1] الوثائق المذكورة نعتمد بشكل أساس على ترجماتها الموجودة في: صمويل كريمر، من ألواح سومر المرجع السابق. وطه باقر، (م.س) (م.س) ورشيد الناضوري، المرجع السابق.

أولاً - ملوك ما قبل الطوفان (العهد السومري القديم الأول)

تبدأ قائمة الملوك السومرية بذكر خمسة مدن عرفت الملكية في فترة ما قبل الطوفان، كما تذكر أسماء ثمانية ملوك حكموا خلال هذه الفترة. وتخصص الوثيقة لحكم هؤلاء الملوك جملتهم فترة من الزمن تربو على ربع المليون سنة (238.000 سنة). أما وثيقة بروسوس فترفع عدد الملوك الذين حكموا في ما قبل الطوفان إلى عشرة ملوك مجموع فترة حكمهم تبلغ (432.000 سنة). وقبل مناقشة مضمون الوثيقتين نورد أسماء ملوك ما قبل الطوفان وسنوات حكمهم بالإضافة إلى أسماء المدن التي حكموا فيها، وذلك طبقاً لما هو وارد في كل من الوثيقتين المذكورتين وذلك على النحو التالي:

ما جاء في وثيقة الأثبات السومرية:

المدينة	الملك	مدة الحكم بالسنوات
أربدو Eridu	ألوليم Alulim	28000
	ألجار Algar	36000
باد–تبيرا Bad-Tbira	اينمنلو–أنا Enmenluàà-Anna	43000
	اينمنجال=أنا Enmengal-Anna	28000
	دموزي Dimuzi	36000
لرك Larak	اينسيبازي–أنا insipasi-Anna	28000

سبار Sippar	اينميدر–أنا Enmdur-Anna	21000
شروباك Shuruppak	أوبار–توتو Ubar-Tutu	18000

أما قائمة ملوك ما قبل الطوفان الواردة في وثيقة بروسوس فهي كالتالي:

الملك	**مدة الحكم بالسنوات**
ألورس Alarus	36000
ألاباروس Alaparos	*10800*
أملون Amelon	46800
أمنون Amemnon	43200
مجالاروس Megalaros	64000
داؤنوس أو دؤس Daonos **أو** Daos	36000
ايودور راخوس Eudor Rackos	64800
اميمبسينوس Emempsinon	36000
أوتيارتس Otiartes	28800
اكزيزيوسوثروس Xisouthros	64000

ويلاحظ على هاتين الوثيقتين أنهما تقدمان أرقاماً خيالية يصعب التصديق بها. ولعل ذلك ما جعل التشكيك في وجود ملوك ما قبل الطوفان مسألة واردة، إذ اعتبر المشككون أن الواقع هو أن السلالات الحاكمة ذاتها أرادت أن تنتحل لها أسلافاً يصعب التصديق بوجودهم وزعموا أن هؤلاء الأسلاف وجدوا قبل كارثة الطوفان[1]. غير أن المبالغة في طول فترات حكم ملوك ما قبل كارثة الطوفان لا تبرر نفي وجود هؤلاء الملوك أصلاً، إذ أن وثيقة أثبات الملوك السومرية نفسها نجدها تذكر أسماء ملوك معروفين من الناحية التاريخية وتشير إلى الفترات التي حكموا فيها بتواريخ غير معقولة،

---

[1] **وليم هاولز، المرجع السابق، ص:** *422.*

خاصة بالنسبة لحكام كيش مثل الملك "إتانا" الذي أوردت الوثيقة المذكورة أنه حكم (1560 سنة) والملك "آجا" آخر حكام كيش (625 سنة) وكذلك بعض حكام أوروك مثل اينمركار (420 سنة) و "لوجال بندا" (1200 سنة). وهناك وجهة نظر ترى أنه ربما لم يكن في حوزة جامع قائمة الملوك السومرية غير أسماء ثمانية ملوك من الذين حكموا في فترة ما قبل الطوفان، فاضطر إلى تطويل فترة حكم كل واحد منهم حتى يغطي الحقبة الزمنية التي تصورها طويلة جداً، والتي تفصل بين تاريخ ظهور أول سلالة سومرية حاكمة وبين زمن حدوث الطوفان العظيم[1]. وعلى أية حال فلعل الأرقام الخيالية المخصصة لفترات حكم ملوك ما قبل الطوفان في سومر تعكس فكرة شائعة لدى المجتمعات القديمة مؤداها أن الإنسان في الأزمان الأقدم كان يتمتع بعمر طويل وصفات جسمية خارقة وهذا الأسلوب الأسطوري في تدوين التاريخ لم يكن معروفاً عند السومريين فحسب، بل عرف عند أمم شرقية قديمة أخرى، فهو لا يختلف عن ما جاء في كتب التاريخ الصينية القديمة وروته الأساطير الخاصة بالصين من أن "بان كو" أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالي عام 2.229.000 ق.م بعد أن ظل يكدح في عمله هذا ثمانية عشر ألف (18.000) عام، وأن ملوك الصين الأولين حكم كل منهم 18.000 عام[2]. كما يذكر بالأعمار الطويلة المخصصة للأنبياء القدامى، أو العشرة رؤساء الآباء[3] حسب ما هو وارد في التوراة من سيدنا آدم عليه السلام حتى سيدنا نوح

---

[1] **محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، المرجع السابق، ص: *102*.**

[2] **ول ديورانت، المرجع السابق، م*1*/ج*4*، ص: *14*، *15*.**

[3] **أسماء الرؤساء أو الآباء العشرة وأعمارهم مرتبة حسب ما هو وارد في التوراة:**

آدام *Adam*	*930* سنة
شيت *Seth*	*912* سنة
أنوش *Enos*	*905* سنة
قينان *Cainan*	*910* سنة
مهالئيل *Mahalaleel*	*895* سنة
يارد *yared*	*962* سنة
أخنوخ *Enoch*	*365* سنة
متوشالح *Eekuselah*	*969* سنة
لامك *Lameeh*	*777* سنة

عليه السلام، ولا يستبعد وجود صلة بين ما جاء في وثيقة بروسوس المذكورة آنفاً مع رواية التوراة بخصوص الطوفان والتي تقول أن الذي بقي على قيد الحياة بعد الطوفان هو الملك العاشر في حقبة ما قبل الطوفان (نوح). ولكنه من الواضح في وثيقة بروسوس اعتمادها على النص السومري لأنها تدعو بطل الطوفان "اكزيسوثروس" (أي زيوسدرا) وهي التسمية المعروفة لبطل الطوفان في الآداب السومرية. وإذا كانت وثيقة الأثبات السومرية تكتفي بذكر حادثة الطوفان التي جرفت البلاد في فترة حكم ثامن ملوك ما قبل الطوفان والذي تذكره الوثيقة باسم "اوبار–توتو" (ملك شروباك) دون أن تذكر له أي دور في ذلك الطوفان، فإن ما ذهبت إليه وثيقة بروسوس بشأن دور آخر هؤلاء الملوك بقصة الطوفان في صفة بطلها يجد ما يدعمه إذا ما تم الرجوع إلى المصادر الأدبية السومرية، فقد ورد في ملحمة جلجامش، التي تعتبر من أعظم أقدم الأعمال الأدبية الإنسانية، ذكر اسم مدينة شروباك واسم ملكها "أوبار–توتو" بوصفه والد "اترخاسيس" (أي زيوسدرا) بطل الطوفان. ففي الجزء الأخير من ملحمة جلجامش[1] والذي يتناول قصة وصول جلجامش إلى اترخاسيس بحثاً عن الخلود الأبدي، ورد على لسان اترخاسيس مخاطباً جلجامش:

"دعني أكشف لك ياجلجامش

عن قضية في غاية الحذر.

ودعني أخبرك عن سر الآلهة.

شروباك مدينة أنت تعرفها بنفسك،

تقع على ضفاف نهر الفرات.

نوح *Noah* *950* سنة

نراجع بهذا الخصوص: الكتاب المقدس، العهد العتيق، المجلد الأول، سفر التكوين، الفصلين الخامس والتاسع، منشورات دار المشرق العربي، بيروت، *1986*، ص: *14*، *15*، *21*.

[1] النص المعتمد هو النص البابلي الذي يعود تأليفه إلى القرن السابع قبل الميلاد والمكتشف منقوشاً على الألواح التي وجدت في مكتبة أشور بانيبال في نينوى. ستيفاني دالي ، المرجع السابق، ص: *71*.

كانت المدينة عريقة في القدم عندما

قرر آلهتها أن على الآلهة العظماء صنع طوفان

كان هناك والدهم آنو،

ومستشارهم المحارب الّيل (انليل)

وكان نينورتا الحاجب الأكبر،

وأنوناكي مراقب القناة.

وأقسم إيا البعيد النظر يمين السرية معهم،

وهكذا أعاد تلاوة خطابهم لكوخ من القصب، ياكوخ القصب،

يا كوخ القصب، يا كوخ القصب، ويا جدار الآجر

يا رجل شروباك، يا ابن أوبار– توتو،

فكك منزلك، وابن سفينة

تخلَّ عن مقتنياتك، واجمع الأشياء الحية

انبذ الأملاك المنقولة وانقذ الحياة!

..."[1].

ورغم أن نص الملحمة لم يذكر بشكل صريح ما إذا كان أترخاسيس ملكاً على شروباك، إلا أنه من الوارد أن تكون عبارة "رجل شروباك" الواردة في النص أعلاه ذات دلالة سياسية، أي أن المقصود برجل شروباك "ملك شروباك"، كما يخاطب النص ذاته أترخاسيس بعبارة "يا ابن أوبار–توتو"، وعندنا في وثيقة أثبات الملوك السومرية أن أوبار–توتو هو ملك شروباك (آخر مدينة عرفت الملوكية في فترة ما قبل الطوفان)، وهو ثامن ملك سومري ضمن قائمة ملوك ما قبل الطوفان. وذكر بروسوس زيوسدرا باسم "اكزيسوثروس" على أنه الملك العاشر. ومن هنا نستطيع، إذا ما اعتمدنا على ما ورد في نص ملحمة جلجامش، أن نستشف أن "زيوسدار" ابن "اوبار– توتو" كان ملكاً على شروباك إبان حدوث الطوفان، وبذلك نكون قد تجاوزنا العدد الذي تقدمة وثيقة الأثبات

---

[1] ستيفاني دالي، المرجع السابق، ص: 138.

السومرية، ولكننا لم نصل بعد العدد الذي تقدمة وثيقة بروسوس. ولكن طالما أن بروسوس ذكر زيوسدرا بالاسم، فلعله من المقبول أن يكون زيوسدرا حفيد أوبار–توتو، فيكون أباه الملك التاسع في قائمة بروسوس. وطالما لم يوجد في الوثائق السومرية تاريخية كانت أو أدبية ما يدعم ذلك فيظل هذا الرأي مجرد افتراض قابل للدحض سيما أن وثيقة بروسوس قد تكون متأثرة برواية التوراة عن الطوفان العظيم وإذا ما كشفت الآثار عن اسم الملك التاسع في قائمة ملوك ما قبل الطوفان ليكون عدد الملوك السومريون في فترة ما قبل الطوفان عشرة ملوك عاشرهم "زيوسدار" فإن سؤالاً خطيراً سيثور لا محالة حول ما إذا كانت ثمة صلة فعلية بين قصة الطوفان الواردة في التوراة وقصة الطوفان السومرية؟.

ومهما يكن فما يفهم من الوثائق المذكورة آنفاً أن نظام الحكم في بداية العصر التاريخي في سومر كان نظاماً ثيوقراطياً صرفًا، ويتبين من عبارة "هبطت الملكوية من السماء" التي تبدأ بها وثيقة الأثبات السومرية ذات دلالة مهمة على عقيدة السومريين بأصل نظام الحكم، إذ كانوا يعتقدون أن الآلهة هي التي تحكم الكون والبشر عن طريق انتداب من ينوب عنها في ممارسة الحكم من بني البشر. كما أن ثمة مسألة أخرى أساسية تستحق الإشارة إليها وهي أنه في الفقرة الأولى من وثيقة الأثبات، المتعلقة بقائمة ملوك ما قبل الطوفان عند ذكر انتقال الملكية من مدينة إلى أخرى أنها تستخدم عبارة لا تخلو من دلالتها السلمية، إذ تشير الوثيقة إلي ذلك بأن الملكية تركت المدينة الفلانية وانتقلت ملكويتها إلى المدينة الفلانيه مثل "تركت أريدو وانتقلت ملوكيتها إلى باد–تبيرا" "تركت باد–تبيرا وانتقلت ملكويتها إلى لرك" وهكذا حتى تنتهي الفقرات المتعلقة بأثبات ملوك ما قبل الطوفان. أما في باقي النص الذي يتناول أثبات ملوك ما بعد الطوفان فنجده يستخدم عبارة لا شك لها دلالتها الحربية مثل "دحرت كيش ونقلت ملوكيتها إلى "أي–انّا" (أوروك)" "دحرت أوروك ونقلت ملكويتها إلى أور"..إلخ. هذا الاختلاف في النظرة إلى طريقة انتقال السلطة من أسرة إلى أخرى أو من مدينة إلى أخرى يتلاءم مع ما توصلنا إليه سابقاً من أن النظام السياسي في سومر في المرحلة

البدئية من تشكله كان نظاماً كهنوتياً يطبعه السلم، وهو ما تمثله مرحلة ملوك ما قبل الطوفان، فيما كانت السلطة في فترة ما بعد الطوفان تعتمد أكثر على العنف بسبب سيادة ظروف الصراع وهى الفترة التي أخد القصر فيها يتقدم على الهيكل في فترة العهد السومري القديم الثاني.

ثانياً – سلالات العهد السومري القديم الثاني

تميز العهد السومري القديم الثاني (2800– 2550 ق.م) بتطور ملحوظ في الحياة السياسية حيت برز العديد من الدول–المدن، واشتهر من حكامها ملوك عظام طفقت شهرتهم الآفاق بسبب أعمالهم الحضارية والعسكرية وظلت أخبارهم تتداولها الأمم اللاحقة إلى درجة أن بعضهم تحول إلى شخصيات أسطورية وأصبحت تلعب دوراً كبيراً في الميثولوجيا العراقية القديمة عموماً، ومن أهم السلالات الحاكمة التي برزت خلال هذه الفترة سلالة كيش الأولى وسلالة أوروك الأولى.

أ – سلالة كيش الأولى

يشغل موقع مدينة كيش مجموعة من التلال الأثرية الواسعة المحاذية للمجرى القديم لنهر الفرات، وتنتشر هذه التلال ضمن منطقتين تبعدان عن بعضهما حوالي 3,5 كلم هما تل الأحيمر وانغارا أو النغرة (بكاف معقودة)، وتقع كيش على بعد 15 كلم إلى الشرق من مدينة بابل[1] وكانت مدينة كيش هي المدينة الأولى التي تلقت الملوكية من السماء مباشرة بعد الطوفان حسب ما هو وارد في وثيقة الأثبات "وبعد الطوفان هبطت الملوكية وحلت في كيش وصارت كيش مركز الملوكية" حيث حكمت فيها أولى سلالات ما بعد الطوفان. ويستدل من ذلك على أن كيش كانت واحدة من أهم المدن في جنوب بلاد الرافدين خلال العصر السومري المبكر، وقد بلغ عدد ملوك سلالة كيش الأولى

[1] طه باقر، المرجع السابق، ص: *267*. أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص*169*.

حسب ما هو وارد في أثبات الملوك السومرية (23 ملكاً) أشهرهم إتانا واينميبراجيسي وآجا وميسيلم.

إتانا Ettana: وهو الملك الثالث عشر في سلالة كيش الأولى . حسب وثيقة الأثبات . ويفهم مما أشارت إليه الوثيقة ذاتها أن الملك المذكور كان له نفوذ واسع على الأراضي المجاورة لحدود مدينته "إتانا الراعي الذي عرج إلى السماء ووطد جميع البلاد"، كما أن إشارة الوثيقة إلى مسألة صعوده إلى السماء يحمل دلالة مؤداها إلباس الحاكم صفات إلهية، وهو ما كرسته الأسطورة المعرفة باسم "إتانا والنسر"، والتي يرجع أقدم نص مكتشف لها إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، وهو مدون باللغة البابلية مع أن الأسطورة . حسب ما يرى علماء الآثار . كانت شائعة في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد[1]. تروي الأسطورة أنه عندما كان الآلهة يقومون بمهمة خلق جهات العالم الأربع ويضعون مخططاً لبناء أول مدينة للبشر هي مدينة كيش ولما انتهوا من أعمال الخلق والتنظيم، أسسوا منصب الملوكية وراحوا يبحثون عن شخص مناسب ليكون ملكاً على المدينة، فوقع اختيارهم على "إتانا":

"الآلهة الكبار الذين يقدرون المصائر
جلسوا تشاوروا في أمور البلاد

بينما كانوا يخلقون جهات العالم الأربع ويصيغون شكله
لم يكونوا قد أقاموا ملكاً علي الناس قاطبة
ولم يكن التاج وعصابة الرأس قد أوثقا معاً
ولم يكن أحد بعد قد توج بصولجان الملك
ولم تكن منصة العرش أيضاً قد رفعت
بعد ذلك هبطت الملكية من السماء

---

[1] أسامة عبد الرحمن النور، ملحمة جلجامش والفكر الديني الفلسفي الشرقي القديم، محاضرة لطلاب الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامعي، *2005/2004*، ص: *98*. فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، المرجع السابق، ص: *268 . 251*.

كانت عشتار في ذلك الوقت تبحث عن راعٍ

كانت تبحث هنا وهناك عن ملك

وانليل يبحث عن منصة عرش لإتانا

الشاب الذي كانت عشتار لا تني تبحث عنه

..."[1].

كما تروي الأسطورة صعود إتانا علي ظهر نسر إلي السماء لجلب نبته في السماء خاصة بحمل النساء لأن امرأته كانت عاقراً، ربما ليضمن وريثاً له على عرش كيش. ومع أن نص الأسطورة غير كامل بسبب ما سقط من اللوح المدونة فيه، إلا أن ما جاء في وثيقة الأثبات من أن خلفه على العرش كان ابنه "باليخ" Balikh قد يكون دليلاً على نجاحه (أي إتانا) في مسعاه[2]. وأهم ما يستفاد من أسطورة "إتانا والنسر" أن مبدأ توريث الملك كان إحدى أسس نظام الحكم في بلاد الرافدين إلى جانب مبدأ الاختيار الإلهي، وقد تكرس الإيديولوجيا من أجل جعل المبدأين مترابطين أيما ترابط، بجعل الآلهة هي التي تختار الملوك ثم تختار من أبنائهم من يخلفهم في الملك.

هناك ملكان آخران يعتبران من أشهر ملوك أسرة كيش الأولى أحدهما الملك "اينميبراجيسي" وهو الملك الثاني والعشرون في الأسرة الكيشية والآخر هو الملك الثالث والعشرون "آجا" ابن اينميبراجيسي حسب الترتيب الوارد في وثيقة الأثبات السومرية. وقد ورد ذكرهما كذلك على التوالي في "نص تمال" كأول ملكين يقومان بتشييد المعبد المسمي "تمال" في مدينة نفر (وهو معبد ننليل زوجة الإله انليل)[3]. وقد مر بنا سابقاً كيف أن آجا بلغ من القوة ونفوذ السلطان بحيث لا يطيق بروز مدينة قوية بجواره. فلما شعر آجا بتعاظم شأن مدينة أوروك إلى الجنوب من كيش هدد أهلها بشن الحرب عليهم إذا أبوا الاعتراف به سيداً عليهم، وبالفعل فقد حاصر آجا أوروك، ولكن جلجامش نجح

---

[1] ستيفاني دالي، المرجع السابق، ص: *233 . 234*.

[2] طه باقر، المرجع السابق، ص: *303*.

[3] المرجع نفسه، ص: *296*.

في مصالحة آجا ورفع الحصار عن أوروك[1]. وهناك ملك آخر لم تذكره وثيقة الأثبات ولا وثيقة تمال ولكن اسمه ورد في مصادر تاريخية أخرى إنه الملك "ميسليم".

ميسليم Mesilim: يحدد زمنه ضمن الطور الثاني من عصر فجر السلالات (حوالي 2600 ق.م) ويرجح أنه سيطر على مناطق شاسعة من بلاد سومر ولو كان ذلك من الناحية الاسمية على الأقل، حتى أنه في بعض الأحيان يطلق على هذه الفترة "عصر ميسلم"[2]. سيطر ميسليم على مناطق واسعة من بلاد ما بين النهرين، وأطلق على نفسه لقب "ملك كيش"، وقد يكون سلطانه امتد خارج حدود بلاد ما بين النهرين، حيث اكتشفت ألواح تحمل اسمه في موقع "ابلا" في سوريا. ويبرز الدور السياسي لميسليم أيضاً خلال دوره في تسوية النزاع بين مدينتي لجش وأوما، ونقرأ ذلك من النص المشهور الذي سبق وأن عرفنا به في الفصل السابق[3]، والذي هو عبارة عن وثيقة تاريخية سجلت فيها أحداث النزاع بين لجش وأوما. وقد خاضت المدينتان حرباً طويلة وعنيفة على الأرض الغنية الواقعة بينهما. ويبدو من النص أن ميسليم عاصر بدايات النزاع فقط، إذ يذكر النص أنه تدخل في بداية النزاع وأشرف على توقيع الصلح بين الطرفين بوضعه نصبه المشهور على الحدود بين المدينتين".. وعين ميسليم ملك كيش خط الحدود بالقياس بموجب ستران وأقام نصباً هناك .."[4]. ويفهم من النص مدى ما كان يتمتع به ميسليم من اتساع نفوذ في بلاد سومر، إذ كان يقوم بتلك التسوية نيابة عن إلهته الحامية "ستران". ومهما يكن من أمر ميسليم فقد كان الملك الرابع والعشرين على رأس كيش، إذ حكم مباشرة بعد الملك آجا ابن الملك اينميبراجيسي، وكان هذان الملكان قد عاصرا الملوك البارزين في سلالة أوروك الأولى.

---

[1] **صميل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص:** ***85***.

[2] **طه باقر، المرجع السابق، ص:** ***304***.

[3] ننظر الصفحة 89 السابقة.

[4] **صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص:** ***99***.

ب – سلالة أوروك الأولى

تقع مدينة أوروك في جنوب شرقي كيش بحوالي 160 كلم، وفيها قامت دولة-مدينة عرفت بملوكها العظام الذين كان لهم ذكر في مختلف مراحل تاريخ بلاد الرافدين، كما تحدثت عنهم المصادر التاريخية والأدبية التي يعتمد عليها في دراسة الحياة السياسية السومرية. ومن خلال هذه الوثائق يعرف عن حكام أوروك ما تميزوا به من القوة والبطولة، إلى جانب تمسكهم بالأصل الإلهي للملكية، إذ أظهرتهم النصوص وكأنهم يتمتعون بقوى إلهية. وأشهر هؤلاء الملوك اينمركار ودموزي وجلجامش. مؤسس سلالة أوروك الأولى هو الملك مسكيجاشير Meskiggasher، وهو أول ملوك هذه الأسرة البالغ عددهم (12 ملكاً) . حسب ما تذكره قائنة الأثبات السومرية . ونجد الوثيقة نفسها تصفه بأنه ابن الإله أوتو (إله الشمس السومري)، وهي الصفة التي عرف بها خلفاؤه كما سنأتي على ذكره. وبعد مسكيجاشير خلفه على العرش ابنه اينمركار.

اينمركار Enmerkar: خصصته وثيقة الأثبات بعبارة "الذي شيد أوروك"[1]. وفي نص مدون باللغة السومرية يرجع إلى العهد البابلي القديم تنسب قصيدة من شعر الملاحم إلى هذا الملك الكثير من أعمال البطولة إضافة إلى خبرته في استعمال الأساليب السياسية، يظهر ذلك من دوره في الحادثة السياسية التي تتناولها القصيدة والتي تدور حول ما قام به اينمركار في سبيل السيطرة على أراضى مدينة "أرتا" (أو أراتا) الوقعة بعيداً إلى الشرق من أوروك في المنطقة الجبلية من الأجزاء الغربية من إيران. وتصور القصيدة "أرتا" على أنها تقع فوق قمة جبل شاهق، ويصعب الوصول إليها، وأنها كنت مدينة مزدهرة وغنية بالمعادن والأحجار التي تفتقر إليها أراضي مدينة أوروك مدينة اينمركار، فعزم هذا الأخير على ضم أرتا:

"في سالف الأزمان كان السيد الذي اصطفته انانا في قليها المقدس

---

[1] طه باقر، المرجع السابق، ص: *290*.

الذي اختارته انانا من بلاد شوبا في قلبها المقدس
إنه اينمركار ابن الإله أوتو
من أخته ملكة الخير ..،
التمس من انانا المقدسة:
يا أختاه انانا من أجل أوروك
دعي أهل أرتا يصوغون الذهب والفضة
دعيهم يأتون بحجر اللازورد النقي من الصّفاح
اجعليهم يجلبون الأحجار الكريمة وحجر اللازورد النقي
ولأوروك البلد المقدس ...،
ولبيت انشان حيث تقيمين هناك،
دعيهم يبنون ...،
وفي الـ "الجيبار" المقدس حيث أقمت مسكنك
عسى أن يزين أهل أرتا داخله،
وأنا سأقدم الصلوات .. في وسطه.
دعي أرتا تذعن
..."[1].

ومن اجل هذا الهدف استعمل اينمركار حرب الأعصاب على سيد أرتا ومواطنيها. وفى النهاية أفلح في مسعاه إذ قبلت أرتا بالتبعية لأوروك حسب ما ترويه القصة بأسلوب مجازي ومطنب يختلط فيه عمل الإنسان بعمل الآلهة، ويستشف من النص أن اينمركار كان ملكاً قوي النفوذ وواسع الأطماع ويتمتع بقدر كبير من الحنكة السياسية بالإضافة إلى التأكيد على صفته كنائب عن الآلهة في الحكم.

[1] صمويل كرسمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: 70.

وبعد اينمركار جاء الملك "لوجال بندا Lugal Banda" الذي تنعته وثيقة الأثبات السومرية بلقب "الراعي"، وذكرته ملحمحه جلجامش بوصفة الملك المؤله وزوج الإلهة "تنسون" الحكيمة والدة جلجامش[1]. وبعد لوجال بندا حكم الملك "دموزي Dimuzi" الذي أعطته وثيقة الأثبات لقب "صائد السمك" كما لقب هو الآخر بالراعي، ولعله هو نفسه الذي أصبح يعرف بالإله دموزي[2] الراعي والذي ارتبطت به الإلهة "انانا" إلهة الخصوبة السومرية (عشتار في السامية) ويطلق عليه أيضاً "الإله "تموز[3] Tammuz". على أن ذكر اسم دموزي من ضمن ملوك ما قبل الطوفان (ثالث ملوك باد–تبيرا) ووصفه هو الآخر بالراعي يثير تساؤلاً حول أي الملكين كان مؤلهاً: دموزي باد–تبيرا أم دموزي أوروك؟.

جلجامش Gilgamech: خامس ملوك سلالة كيش الأولى، يعتبر أشهر ملوك هذه السلالة بسبب ما ارتبط باسمه من الأساطير، تحول جلجامش من ملك لدولة–المدينة في أوروك إلى بطل شعبي نصف إلهي ليس في بلاد الرافدين فحسب، بل في مناطق أخرى من الشرق القديم، فقد دُونت ملحمة جلجامش بالإضافة إلى اللغة السومرية بالأكديه والبابلية والحيثيه وغيرها من اللغات الأخرى.

لا توجد وثائق مكتوبة معاصرة تلقي الأضواء الكافية على حياة جلجامش وأحداث عهده، كما أن النصوص التاريخية والأدبية المتوفرة لا تخلو من بعض مظاهر التناقض والاختلاف؛ فقد نصت وثيقة الآثبات السومرية على أن والد جلجامش "لُلاّ

---

[1] ستيفاني دالي، المرجع السابق، ص: *76*.

[2] دموزي إله الخصب عند السومريين، ويعتقدون أنه إنما رفع إلى مرتبة الألوهية بعد موته بسبب طقوس الزواج المقدس التي كان يمارسها مع الآلهة انانا ممثلة في كاهنتها وذلك لضمان خصب الطبيعة واستمرار دورة الزراعة السنوية. ويرى فراس السواح أن إله الخصب الشاب ابن الأم الكبرى الذي يموت في مبعث الصبا ثم يبعث في الربيع هو إله قديم عند السومريين وغيرهم من شعوب الحضارات الشرقية. ولعله أول إله ذكر عبده البشر، بعد أن كانت عبادتهم مقتصرة على الأم الكبرى. فهو يرى أن دموزي ليس إلهاً جديداً على البانتيون السومري، وليس تطابق الاسم بين دموزي الإله ودموزي الملك إلا من قبيل تسمي الملك باسم الإله. فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش، سومر للدراسات، نيقوسيا–قبرص، الطبعة السورية بإشراف العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط7، دمشق، ص: *30 -26*.

[3] نراجع بهذا الخصوص: ألزة زابيرت، المرجع السابق.

lulla" كاهن كُلاب (جزء من أوروك)[1]. أما النص الملحمي "ملحمة جلجامش" فقد جاء فيه أن والده "لوجال–بندا" والذي يلقبه نص الأثبات "الراعي" وليس "لُلا". وتحاول ستيفاني دالي التوفيق بين الروايتين بطرح احتمالين: الأول اعتبار لوجال–بندا بدأ حياته بوصفه "لُلا" في كُلاب قبل أن يعتلي عرش أوروك، أما الاحتمال الثاني فهو أن يكون جلجامش قد انتصر على أوروك ثم تبنى . وهو الخارج عنها . والداً له من الحكام المشهورين[2] ولعل الأرجح أن يكون "لُلا" لقباً قصد به لوجال–بندا.

ومهما يكن فقد حكم جلجامش أوروك فترة من الزمن غير محددة بشكل دقيق لعلها تقع ضمن الإطار الزمني المحصور بين 2700 ق.م و2500 ق.م جاء في الملحمة المنسوبة إليه أنه كان ملكاً محارباً عرف بقوة سلطانه واتساع نفوذه. جاء على لسان المؤلف في بداية النص:

"ارفع اللوح اللازودي واقرأ
قصة ذلك الرجل، جلجامش، الذي تكبد
شتى أنواع المشقات.
كان متفوقاً على جميع الملوك، سيد محارب ذو
قوام عظيم
بطل ولد من أوروك، ثور بري نطاح.
يسير في المقدمة كالقائد،
وينتقل إلى المؤخرة داعماً لأشقائه
شبكة قوية، ذوداً عن رجاله،
موجة الطوفان الهائجة التي تقدر حتى على تحطيم
سور حجري.
جلجامش، ابن لوجال–بندا، الكلي القوة،

---

[1] طه باقر، المرجع السابق، ص: 291.
[2] ستيفاني دالي، المرجع السابق، ص: 66.

..."[1].

ولقد أوضحت الحفائر التي قيم بها في الوركاء أن المدينة كانت محاطة بسور من الطوب ومجهز بأبراج دفاعية، يبلغ طوله تسعة كيلومترات وهو أقدم سور مدينة معروف في بلاد الرافدين[2]. وهذا يدل على الطبيعة الحربية للمدينة. وقد سبق وان تعرضنا لقصة النزاع بين أوروك وكيش، ووجدنا كيف أن جلجامش كان يحث مواطني مدينته على خوض الحرب ضد كيش، وكيف غضب من قرار شيوخ أوروك الرافض للحرب، وسر لقرار محاربي المدينة الذين اختاروا الحرب.

لقد كان جلجامش أحد الملوك العظام الذين كان لهم دور في مرحلة عصر فجر السلالات السومرية الثاني. وقد خلفه على العرش ابنه "أور–ننجال Ur-nungal" والذي ورد اسمه في وثيقة تمال باعتباره أحد الملوك الذين قاموا بتجديد معبد تمال في نفر. وقد حكم أور–ننجال في ظروف يبدو أن وتيرة الصراع بين المدن–الدول السومرية قد أخذت تشتد، فلم يعد لملوك أوروك الستة المتبقيين ذكر، ربما بسبب ضعفهم إلى جانب ملوك أقوياء برزت أسماؤهم خلال الفترة الثالثة من العهد السومري القديم.

ثالثاً ـ سلالات العهد السومري القديم الثالث

تتميز الفترة الثالثة من العهد السومري القديم عن الفترتين السابقتين بغزارة مخلفاتها الحضارية بما في ذلك الآثار المادية والنصوص الكتابية والتي تتناول أخبار السلالات الملكية التي حكمت خلال هذه الفترة، ومن أبرز تلك السلالات سلالة أور الأولى وسلالة لجش الأولى.

أ – سلالة أور الأولى

---

[1] المرجع نفسه، ص: *76*.

[2] أحمد أمين سليم، ، المرجع السابق، ص: *173*.

لم تقتصر أخبار سلالة أور الأولى على أسماء الملوك المذكورة في أثبات الملوك السومرية. فقد كشفت التنقيبات الآثارية عن الكثير من الآثار المهمة التي ألقت الضوء على جوانب مختلفة من الحضارة السومرية سيما الجانب السياسي، ومن أشهر الآثار المكتشفة في أور العديد من المقابر الغنية يعود قسم منها إلى عصر السلالات الثالث، وهو المعروف اصطلاحا باسم "المقبرة الملكية"[1]. ويتبين من الآثار التي عثر عليها في جبانة أور مدى الثراء الذي كانت عليه هذه المدينة ومدى عظمة أسرتها الحاكمة، حيث كانت مقابر ملوكها غنية بما حوته من آثار ثمينة وتحف نادرة. ومن أهم هذه المقابر مقبرة السيدة "بو–إبي" التي عثر فيها على كأس ذهبية تعد من التحف الفنية الرائعة، ومن بين الآثار التي عثر عليها كذلك في إحدى مقابر أور لوحة خشبية مطعمة بالصدف تمثل نقوشها الحاكم أو الملك وهو يستعرض عدداً من الجنود والأسرى[2]، وقد كشف في هذه المقابر عن أسماء بعض الملوك أمكن تمييز اسمين لم يرد لهما ذكر في وثيقة الأثبات السومرية. وقد ورد في هذه الأخيرة ذكر أسماء أربعة ملوك حكموا خلال عهد هذه الأسرة، وأعطيت لهم سنوات حكم تبلغ (177 عاماً) وهي فترة مقبولة واقرب إلى الواقع على خلاف سنوات الحكم التي أعطتها الوثيقة للملوك السابقين لملوك هذه السلالة. وتقدر بداية حكم سلالة أور الأولى بحوالي 2650 ق.م[3]. وعموماً فقد اعتبر ميسانيبادا أهم الملوك في سلالة أور الأولى.

ميسانيبادا Mesanepadda : مؤسس سلالة أور الأولى وأول ملوكها. يرجح أنه عاصر أواخر حكم جلجامش. اتخذ لقب "ملك كيش" ولعله أراد بذلك ادعاء السيادة على بلاد سومر[4]، وقد نصت وثيقة تمال على أنه أول ملك يقوم بتجديد المعبد المقدس في نفر

---

[1] تضم المقبر الملكية في أور حوالي *2500* قبر. تنظر طه باق، المرجع السابق، ص: *275 . 279*.

[2] رمضان عبده علي، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته إلى مجيء حملة الاسكندر الأكبر، الكتاب الأول: إيران والعراق، دار نهضة الشرق، القاهرة، *1997*، ص: *201*.

[3] مجموعة من الباحثين العراقيين، المرجع السابق، ص: *81*.

[4] أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص: *99*.

عندما تم تخريبه لأول مرة[1]. وحسب ما يرى طه باقر فلعله من الممكن تفسير جانب من الوضع السياسي في بلاد سومر في عصر فجر السلالات الثالث بأن "ميسانيبادا" في إطار سعيه للسيطرة على البلاد استطاع أن ينتزع السيطرة على المدينة المقدسة "نفر" من الملك الكيشي "آجا"، ولعل حكمه شمل مدينة كيش نفسها فلقب نفسه "ملك كيش". وقد بدأ نجم أور في الأفول أمام تعاظم نفوذ مدينة لجش منذ أواخر النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد.

ب – سلالة لجش الأولى

تقع مدينة لجش شمال شرقي تلُو بحوالي 20 كلم في منتصف المسافة بين دجلة والفرات. وقد قامت في لجش إحدى أبرز السلالات الملكية التي كان لها دور فاعل في العصر السومري القديم الثالث، وقد حكمت هذه الأسرة في الفترة بين (2520 – 2371 ق.م). ولم يرد ذكرها في قائمة الملوك السومرية، غير أن الحفريات الآثارية كشفت عن بعض النصوص العائدة إلى هذه الفترة، التي تشير إلى عدد من أسماء الملوك الأقوياء الذين حكموا لجش واشتهروا بأعمالهم الكبيرة في مجالات متعددة حربية ودينية واجتماعية.

أورنانشه urnanshe : مؤسس سلالة لجش الأولى وأول ملوكها. وقد عرف من خلال النقوش التي تمثله أن أورنانشه كان ملكاً ورعاً ومخلصاً في أعماله، تميزت نقوشه بالمناظر العائلية التي ضمت زوجته وأبناءه وبعض أتباعه؛ ففي إحدى اللوحات الصغيرة صور الفنان السومري الملك أورنانشه في مشهد لا يخلو من مظاهر التقوى، إذ يظهر الملك يحمل فوق رأسه سلة ربما كانت تتضمن بضعة نماذج من أدوات البناء لتشييد مشروع ديني جديد. وفي لوحة أخرى صغيرة يصور أورنانشه وهو يسير في هيئة المتعبد يضع يدية على صدره وخلفه حاجبه بحجم صغير يرفع يديه على هيئة التحية، ثم أربعة من الأمراء أبنائه في صفين يسيرون على طريقة أبيهم وكلهم يرتدون ثياباً

---

[1] **طه باقر، المرجع السابق، ص:** *296*.

نصفية تمتد من أسفل الصدر إلى ما تحت الركبة[1]. كما عرف عن أورنانشه تشييده للمعابد وصنع التماثيل للآلهة، كما قام بتجديد الكثير من دور العبادة[2]. وكذلك اهتمامه بالأعمال الاقتصادية كحفر القنوات وجلب الأخشاب للبناء من مناطق نائية، فقد جاء في نصوصه أن سفنه نقلت الأخشاب الضرورية على متن النهر لبناء المعابد[3]. اشتهر بنشاطه الحربي ضد أور وأوما، جاء في أحد النقوش "أورنانشه ملك لجش ابن جونيدو مواطن من جورسار (مكان من منطقة لجش) بنى معبد الإلهة ننجرسو من الآجر وحفر قناة بجارا، بنى معبد الإلهة نانشي، بنى معبد جيرسو (موقع بالقرب من لجش)، بني معبد جاتومدو (إلهة قديمة في لجش) ... بني سور لجش... أورنانشة ملك لجش خرج للمعركة ضد ملك أور وملك أوما، ملك لجش انتصر على ملك أور ... وانتصر على ملك أوما"[4]. بعد أورنانشه حكم ولده أكورجال Akurga**l** عرش لجش ثم جاء ايناتم الشهير.

ايناتم Eannatum: حفيد أورنانشة من أقوى ملوك لجش وأشهرهم، بدأ عهده بالاهتمام بالأحوال الداخلية، فقام بشق القنوات وأعاد بناء ما تهدم في عهد والده خلال حروبه مع أوما[5]. ومهما كان ايناتم كجده بناءً عظيماً فإن ما يميزه هو شهرته في ميدان الحرب، فقد خاض العديد من الحروب مع العيلاميين في الشرق، كما خاض معارك أخرى أخضع فيها مدن أوروك وأور وكيش وماري وأوما[6] إلا أن أشهر حروبه كانت الحرب التي خاضها ضد مدينة أوما إلى الشمال الغربي من لجش على بعد حوالي 30 كلم، ويرجع النزاع بين لجش وأوما إلى فترة ما قبل ايناتم، وكان سبب النزاع بين المدينتين منطقة الحدود الواقعة بينهما والتي كانت بها قناة المياه التي كانت تغذي المنطقة[7]. وفى

---

[1] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *456، 457*.

[2] محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، المرجع السابق، ص:*103*.

[3] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *556*.

[4] أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص: *180*.

[5] محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، المرجع السابق، ص: *104*.

[6] أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص: *170*.

[7] آرنولد توينبي، تاريخ البشرية، المرجع السابق، ص: *75*.

الوثيقة السومرية التي أشرنا إليها سابقاً في أكثر من مناسبة والعائدة إلى سجلات اينتيمنا (خامس ملوك لجش) في هذه الوثيقة نجد نصاً تاريخياً يتكلم عن قصة النزاع الطويل بين كيش وأوما مند ما قبل عهد ايناتم إلى عهد خلفه آجا. وقد مر بنا سابقاً كيف تولى ميسليم (ملك كيش) مهمة تسوية النزاع بين مدينة كيش وأوما. وقد خصص الجزء الأول من النص المذكور لهذه الحادثة، فيما يتناول الجزء الثاني أخبار نقض ملك أوما (أوش) الاتفاق وسيطرته على القناة، إلى أن جاء ايناتم فشن الحرب على أوما ودمرها وأبرم اتفاقية جديدة مع حاكم أوما المسمى (ايناكلي Enakally)، وأقام ايناتم نصبه لحفظ سجل هذه الحوادث. جاء في النص: "وعندئذ عمد الإله ننجرسو بطل انليل المعلم إلى شن الحرب على أوما بأمر انليل العادل. وبكلمة انليل ألقى بالشبكة العظمى عليهم، وكدس هياكلهم وجمعها أكداساً في السهل في مواقعها المختلفة. ونتيجة لذلك عمد ايناتم حاكم لجش وعمد انتيمنا حاكم لجش على تعليم الحدود مع ايناكلي حاكم أوما وأجرى الخندق ... وأقام أنصاباً على طول ذلك الخندق ..."[1].

ورغم أن النص لم يعتمد تماماً أسلوب السرد التاريخي بل إن مؤلفه بدلاً من ذلك سعى إلى وضع الحوادث التاريخية في الإطار المقبول المسلم به بسبب سيطرة التفكير الديني في عالمه يومئذ، ففضل أن يتبع الأسلوب الأدبي الأسطوري، إذ نجده يمزج بين أعمال البشر وأعمال الآلهة، وهو ما يعكر صفو الحقيقة التاريخية التي يحمل النص بؤرتها، رغم كل ذلك فإذا ما جردت الوثيقة من ردائها اللاهوتي فنستطيع أن نعتمد عليها في سبيل تركيب الحوادث التاريخية التي تتناولها، خاصة إذا ما كانت ثمة مصادر أخرى، وفعلاً فإن نقش ايناتم المعروف اصطلاحاً باسم "لوحة العقبان"[2] تسجل أخبار تلك الحرب العنيفة التي خاضتها لجش بزعامة ايناتم ضد أوما وما قام به ذلك الملك

---

[1] صمويل كريمر، من ألواح سومر، المرجع السابق، ص: *99*.

[2] لوحة العقبان: نصب حجري أقامه ايناتم عند الحدود القديمة بين لجش وأوما. عثر على كسرات هذه اللوحة الآثاري الفرنسي "دو سارزيك" في تلّ في نهاية القرن *19*م. وقد سميت بلوحة العقبان بسبب وجود مناظر مجموعة من العقبان (الصقور) مثلت محلقة تحمل في أفواهها ومخالبها أشلاء جنود أوما المهزومين. محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، (م.س)، ص: *106*. أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص: *182*.

من أعمال بطولية في تلك الحرب. فقد صور الفنان في هذه اللوحة ايناتم يحارب برمح غليظ وقوس وعصى معكوفة راكباً عربته وراجلاً، وصور جنوده المشاة في صفوف صغيرة بتروس كبيرة، ويحملون رماحاً أفقياً، ومشاة آخرين يتسلحون بالحراب الطويلة والبلط، وجعل الجميع يستعملون ما يشبه الخوذ على رؤوسهم، كما صور جثث الأعداء عارية تحت أقدام الجنود المنتصرين، وصور بعضها الآخر تنهشها الأسود والعقبان وصغار الطيور، كما صور الفنان ايناتم يجزي الشكر للإلهة ننجرسو ويصب القرابين في حضرتها. إلى غيرها من المشاهد المعبرة عن كل مراحل سير المعركة (شكل 5). وقد دفع هذا الانتصار على أوما ايناتم إلى شن الحرب على مدن أخرى وتوسيع سلطانه ليشمل مناطق شاسعة من بلاد سومر. ففي عهده يمكن القول أن لجش أصبحت زعيمة مدن سومر كلها. وقد اتهم بتقوية حصونها وتدعيم أسوارها.

اينتيمنا Entemena : أهم خلفاء ايناتم الملك اينتيمنا الذي تذكر المصادر أنه كان رجلاً محارباً هو الآخر فقد جاء في الوثيقة المذكورة آنفاً والمنسوبة إلى عهده أنه واصل سياسة الحرب مع أوما فاستطاع هو الآخر هزيمها. جاء في النص: "... ودحره (يعنى "أور–لوما" حاكم أوما) اينتيمنا ابن اناناتم المحبوب فانهزم أور–لوما. إن اينتيمنا وضع السيف في رقاب جيش أوما ولاحقهم حتى إلى داخل مدينة أوما"[1].

أوروكاجينا Urukagina: الذي حكم حوالي (2378 – 2371 ق.م) وقد سبق أن تعرضنا بالنقاش لسياسة أوروكاجينا في الفصل السابق، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أنه أعتلى العرش بعد خلع الحاكم الذي كان قبله على المدينة، ووجه همه إلى الإصلاحات الداخلية، فقام بإصدار مراسيم إصلاحية تحد من امتيازات الكهنة والموظفين وتصب في خدمة الطبقات الفقيرة. يشار إلى أن وضع الكهنة كان قد استفاد من ظروف الحرب شبه المستمرة في لجش إبان حكم الملوك السابقين لأوروكاجينا، وذلك ربما بسبب أن الحكام السومريين لما كانوا حريصين على رد انتصاراتهم العسكرية إلى الآلهة ولما كانوا

[1] هاري ساكز، المرجع السابق، ص: *100*.

حريصين على استفتاء وحي هؤلاء الآلهة، وطلب عونهم، فإن ذلك ربما قد شجع الكهنة على أن يشاركوا ملوكهم في قيادة الجيوش، وعلى أن يذكروا أسماءهم إلى جانب أسمائهم، ونتيجة لذلك زاد سلطانهم في المدينة واتجهوا إلى المزيد من الثراء على حساب العامة.

وتعد إصلاحات أوروكاجينا في مجال التشريع أقدم ما سجله التاريخ، وقد تناولت تشريعاته مجالات عديدة، كتخفيف الضرائب ومنع إجبار الناس البسطاء على بيع ممتلكاتهم إلى الأثرياء، وألغى زواج المرأة من رجلين. لم يدم حكم أوروكاجينا أكثر من سبع سنوات، إذ ما كادت أعماله تؤتي أكلها حتى أحبط مسعاه لوجال زاجيزي الذي أخذ يمد سلطانه بسرعة ليشمل لا مدينة لجش فحسب بل أراضي سومر بأكملها.

رابعاً - لوجال زاجيزي وتوحيد سومر

يعتبر لوجال زاجيز Lugal zaggesi بطلاً سومرياً، إذ نجح في تنفيذ مشروعه الهادف إلى توحيد سومر، وهو الأمر الذي عجز عنه أسلافه من الملوك السومريين، فقد أستطاع زاجيزي أن يخضع المدن السومرية كلها ويضمها في دولة واحدة كبرى وقد استطاع أن يمد حدود دولته إلى خارج المجال السومري. وطد سلطانه بسرعة قياسية وبحد السيف في امبراطوريته الواسعة الأرجاء، والتي امتدت . كما يقال . من البحر إلى البحر، أي من الخليج العربي إلى شواطئ المتوسط في شمال بلاد الشام. ولئن كانت حروب زاجيزي التوسعية . كما يقول توينبى . أقل شر على البلاد من الحروب الأهلية المستمرة الشاملة التي عانى السومريون أضرارها[1]، إلا أن نتيجة ذلك لم يجنها زاجيزي ولا أي ملك سومري آخر بسبب قصر الفترة التي حكم فيها زاجيزي سومر حوالي (2371 – 2340 ق.م).

---

[1] **أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، المرجع السابق، ص:** ***86***.

نشأ لوجال زاجيزي من عائلة تنتمي إلى طبقة الكهنة، إذ كان أبوه كاهن الإلهة "نسابا nisaba" في مدينة أوما وعمل معه أبنه في منصب الكهنوتية[1] ولكن شخصيته القوية ومقدرته العسكرية مكنته من تبوء الحكم في أوما. ثم نقل زاجيزي مركز نشاطه من أوما إلى أوروك، وقد يكون دافعه إلى ذلك هو ما تتمتع به أوروك من سمعة حضارية وعقائدية قديمة، واعتبر نفسه ملكاً على سومر "لوجال كالاما"[2] وقد ذكرته وثيقة الأثبات السومرية بصفته الملك الوحيد والمؤسس لثالث سلالة في أوروك وحددت فترة حكمه بخمسة وعشرين عاماً[3] هاجم لجش العدوة التقليدية لأوما وأحتلها منهياً بذلك الصراع الطويل بين الدولتين، ثم واصل زاجيزي سياسة الفتح العسكري إذ احتل المدن–الدول السومرية الواحدة تلو الأخرى، ولم يكن ليقتنع بذلك فحسب بل وصلت غاراته الخليج العربي في الجنوب، وفي الشمال وصلت الأطراف القصية من بلاد ما بين النهرين وسوريا حيث دون في أحد النصوص البالغ الأهمية من الناحية التاريخية، والذي جمعه الباحثون من قطع أوان يكمل بعضها بعضاً دون عليها النص المذكور وقد عثر عليها في نيبور، دون فيه أن غزواته شملت بلاد ما بين النهرين وسوريا[4] ورغم أنه لا يعرف بالضبط ما إذا كانت هذه المعلومات تطابق الحقائق التاريخية أو مجرد ادعاءات تهدف إلى تقديم صورة مثالية للملك، إلا أنها مع ذلك تشير إلى أنه كان ثمة هدف لإيجاد سلام داخلي تحت نفوذ ملك له من القوة والسلطان ما مكنه من القضاء على جميع المنافسين، وسلام خارجي من خلال وجود حاكم له هيبته على المستوى الدولي[5]. ومن خلال النص المذكور آنفاً نلاحظ أن زاجيزي لم يهمل الاستعانة بالدين في عمله السياسي، إذ ادعى أن أرباب سومر دعوه ورددوا أسمه ونصبوه ملكاً على كل البلاد، كما ظل يعتبر نفسه كاهناً للإله "آن" إله أوروك الأكبر، جاء في النص:

---

[1] طه باقر، المرجع السابق، ص: *321*.

[2] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *460*.

[3] طه باقر، المرجع السابق، ص: *294*.

[4] أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص: *185*.

[5] هاري ساكز، المرجع السابق، ص: *67*.

"عند ما عهد انليل رب الدنيا بملكية هذه الأرض إلى لوجال زاجيزي، وهيأ له النجاح في أعين البلاد، أقر العدالة في الأرض، وغلب بأسه البلاد من مشرق الشمس إلى مغربها، وفرضوا الجزي على أهلها، وحققت السيادة له حينذاك، من البحر الأسفل ودجلة والفرات إلى البحر الأعلى[1]، وأستقرت أحوال البلاد في سلام، وسقيت الأرض بماء السعادة، وأحلوه في هياكل سومر ليكون إيشاكو، وفي الوركاء ليكون كاهناً أكبر، عندئذ جعل الوركاء تلتمع فرحاً، إنه كثور رفع رأس أور إلى السماء، وروى لارسا (مدينة إله الشمس المحبوبة) بماء السرور، وأما أوما المدينة المحبوبة ... فإنه رفعها للقوة الممجدة ..."[2].

ومهما كانت حنكة زاجيزي السياسية وأطماعه العسكرية الواسعة فقد قضى عليها سرجون الكبير حوالي 2340 ق.م وهو الأمر الذي كان بداية تغيير شامل في الخارطة السياسية السومرية، إذا انتهى عصر فجر السلالات وآل الحكم إلى الأكاديين الساميين، وتركزت دعائم الدولة الإمبراطورية في بلاد الرافدين، وكتب للسومريين أن يتراجعوا عن المسرح السياسي حتى تتاح لهم الفرصة بعد قرن من الزمان ليبرزوا من جديد في إطار عصر الإحياء السومري.

---

[1] **يقصد بالبحر الأسفل الخليج العربي. وقد اختلف في ما إذا كان المقصود بالبحر الأعلى هو البحر المتوسط أو بحر قزوين، ولعله من الأرجح أن يكون البحر المتوسط. عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص: *461*. محمد بيومي مهران، المرجع السابق، : *113*.**

[2] **محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص: *113*.**

الخاتمة

اعتماداً على فرضية التقبل والعنف التي تحاول الدراسة من خلالها تفسير سيادة النظام السياسي الملكي الثيوقراطي الذي ظل النموذج المحتذى على مر التاريخ السياسي الشرقي القديم انتقلنا عبر؛ التعرض للأطر الجغرافية للنماذج الكبرى للمدنيات الشرقية القديمة ومدى التأثيرات التي تتركها تلك البيئات في الحياة السياسية تبعاً لدرجة التعقد الثقافي لدى المجتمعات الشرقية القديمة (الفصل الأول)، وللأسس النظرية والعملية التي تحدد ملامح النظم السياسية الشرقية مبرزين ما كان يلعبه الدين من دور في مجال التأطير النظري لنظام الملكية الثيوقراطية من جانب ومن جانب ثانٍ دور العنف عملياً في العملية التطورية للنظم السياسية الشرقية القديمة (الفصل الثاني)، وصولاً إلى دراسة الحالة السومرية من 3000 إلى 2340 ق.م (الفصل الثالث). نخلص إلى أنه يمكن الربط بين البيئات الجغرافية التي ازدهرت فيها أولى النماذج الكبرى للدولة في الشرق القديم وبين المفاهيم الشرقية القديمة حول نظام الحكم المتمثلة في دينية النظام السياسي وعدم الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية.

إذ يمكن القول إن الموقع والخصائص الإيكولوجية لوديان أنهار الرافدين والنيل والسند الغانج والنهر الأصفر، والتي تتشابه في كثير من النواحي، كان لها الدور الكبير في توجيه فكر الإنسان الشرقي، فبالإضافة إلى الملاءمة الجيدة للزراعة وحياة الاستقرار ساعدت الظروف الطبيعية كحياة النبات والحيوان والجزر والأنهار وغيرها وكذلك الظواهر الكونية المختلفة على بلورة تصوراته الدينية واعتقاده في القوى الكونية المسيطرة على العالم من حوله وبضرورة وجود وساطة بين الإنسان القاطن في هذه البيئة وبين القوى الإلهية، على هذا الأساس فقد اتجه الإنسان الشرقي قديماً إلى تقبل فكرة الصفة الدينية للحكم.

ومهما كان للدين من دور في التأطير النظري للسلطة الملكية الثيوقراطية في الشرق القديم عن طريق التأسيس الإلهي لسلطة الملوك، فإنه لا يمكن إهمال ذلك الدور الكبير الذي يلعبه العنف . من الناحية العملية . في العملية التطورية للنظام السياسي الشرقي القديم. وللإشارة فقد تتم ممارسة العنف بطرق رمزية عن طريق تحكم الأرستقراطية الملكية ومن على شاكلتها من البيروقراطيين في الثروة، مقابل حرمان العامة بل وتسخير جهود هذه الأخيرة لخدمة الأرستقراطية، وأحياناً يتم استغلال الدين في سبيل تكريس النظام الاجتماعي الطبقي الذي تنبني عليه الإيديولوجيا السياسية بإضفاء طابع من الستاتيكية عليه.

لقد كان العنف الناجم عن الصراع بين العشائر والقرى عاملاً حاسماً في نشأة الدولة، حسب ما لاحظنا تاريخياً في إطار تعرضنا لأهم النماذج الكبرى للدولة في عالم الشرق القديم، في أراضي وادي النيل وما بين النهرين ووادي السند ووادي النهر الأصفر وجنوب اليمن، فقد بدأ الصراع عنيفاً في مصر ولو لفترة وجيزة، فيما بدأ هادئاً في بلاد الرافدين ولكنه امتد لفترة طويلة وظلت حدته تشتد وتتصاعد لفترة طويلة، وبين الحالة المصرية والحالة العراقية تأخذ كل من النماذج الأخرى الهندية والصينية واليمنية موضعها. ولقد ظل للعنف الناجم عن الصراع الخارجي أثره في الصيرورة التاريخية

للدولة في الشرق القديم، وملامح هذا الصراع تحدده، بالنسبة لكل دولة، الخصائص الإيكولوجية وما يرتبط بها من خصائص ديمغرافية. وإذا ما نظرنا إلى البيئات الجغرافية للنماذج السياسية المذكورة آنفاً لا نجد أكثر انطباق عليها من ما أورده ول ديورانت حين قال: "لقد كانت المدنيات القديمة جزائر صغرى في بحار من الهمجية أو محلات رخية يحيط بها الجياع والحساد من الصيادين والرعاة ذوو النزعة الحربية، وكانت حصونها عرضة للتصدع والانهيار من حين إلى حين"[1] فالشعوب البدوية التي كانت تحيط بمراكز المدنية الأصلية في العالم القديم ظلت في مواجهة مستمرة مع هذه الدول. هذا الصراع المستمر كان له الدور الأكبر في تشكيل ملامح التاريخ السياسي لدول الشرق القديم، وقد اختلف دور التأثير الخارجي تبعاً لتحدّد الظروف الإيكولوجية، ففي مصر لم يكن قوياً بالمقارنة مع دول أخرى كبلاد الرافدين والصين مثلاً، وذلك راجع إلى ما تمتعت به مصر من حماية طبيعية (نسبية) كانت عاملاً في إعاقة تقدم الموجات البشرية إليها، فيما كانت الدول الأخرى شبه مفتوحة الحدود أمام الشعوب البدوية.

ومهما يكن فقد كان الصراع في كل الحالات قوياً، وكان عاملاً مهماً في اعتماد السلطة على الدين لتأليف وتأليب الرأي الجمعي خدمة لسياسة الحرب، وفي ظروف الحرب يبرز دور ما نسميه التقبل الاجتماعي لسلطة القادة والملوك المستندة إلى الأساس الديني حيث ترتد الانتصارات العسكرية إلى مساندة القوى الإلهية ووقوفها إلى جانب الرجل القائد أو المنقذ. وهكذا كان النظام السياسي في الشرق القديم مؤسساً على إيديولوجيا معقدة تختلط فيها وتتشابك أحياناً مفاهيم العنف بمفاهيم الدين.

ومن خلال تناولنا لتطور النظام السياسي السومري في عصر فجر السلالات نلاحظ أن الملكية كانت الفكرة الأساسية التي تدور حولها الأحداث التي تناولتها المصادر التاريخية والأدبية، ذلك أن نظام الحكم كان إحدى القضايا الحساسة التي تحرك هاجس الإنسان السومري، ذلك أن البيئة الطبيعية لأرض سومر كانت لها تأثيرات

---

[1] ول ديورانت، المرجع السابق، م*1*/ج*1*، ص: *76*.

متباينة على الحياة السياسية؛ فقد فرضت الحاجة الماسة لضرورة وجود سلطة قوية تتمتع بقوة الضبط والتوجيه لتنظيم الحياة المدنية وما تتطلبه من إقامة مشروعات زراعية، ومن جهة ثانية فقد فرضت الطبيعة المستنفعية قيام شكل المدينة–الدولة وقامت العديد من المدن–الدول المتجاورة. إضافة إلى ذلك فالأرض السومرية أرض مفتوحة أمام الأقوام الغازية، من الشرق والغرب والشمال، وقد أدى ذلك إلى وجود حالة من الصراع الدائم بين المدن–الدول السومرية مع بعضها البعض ومع الأقوام الأجنبية، وتمشياً مع الفكرة الدينية للمجتمع السومري كمجتمع زراعي له نظرته إلى هذا الكون؛ إذ كان ينظر إلى الآلهة بوصفها تتحكم في كل ما يجري في هذا الكون فقد ربط بين الملكية وأصلها الإلهي إذ نجد السومريين يتناقلون أسماء حكامهم الأوائل في سياق أسطوري ويخلطون تارة بين أسماء الملوك وأسماء الآلهة.

ويبدو من خلال مختلف الوثائق التي مررنا بها أن ملوك سومر كانوا يعتبرون إلى جانب صفتهم السياسية مسؤولين عن رئاسة شؤون الديانة من الناحية الرسمية باعتبارهم خلفاء أو وكلاء عن أربابهم، وإن كانوا يتركون الممارسة الفعلية للعمل الكهنوتي لرجال الدين والذين غالباً ما يكون من بينهم بعض أبناء أو أعوان الملك. وإذا كان ملوك سومر قد توقفوا عن أن يكونوا آلهة في وقت مبكر من فجر التاريخ العراقي، إلا أنهم احتفظوا على الدوام بصفتهم نواباً عن الآلهة في حكم الناس، وكانت الوصاية الإلهية على الملوك عقيدة سائدة ومتقبلة من المجموع. كانت الآلهة هي التي ترسم الخطط وتوجه تصرفات الملوك في حالات السلم والحرب، وكانت ترافقهم في المعارك ويعلنون النصر باسمها، هذا من الناحية النظرية. ومن الناحية العملية فقد خلقت البيئة السومرية نظاماً سياسياً ميزته الأساسية العنف المتواصل، فتلك البيئة الطبيعية العنيفة بفيضاناتها الفجائية المتتابعة والمدمرة في بعض الأحيان، لها دور كبير في تشكيل شخصية الإنسان السومري القلق على مصيره الباحث عن الطمأنينة بكل الوسائل والمندفع إلى تمجيد ذاته والقابل للانفجار بشكل غير متوقع، هذا من جانب، ومن جانب ثان فإن افتقار البيئة السومرية إلى المواد الأولية التي كانت الحضارة بحاجة إليها للبناء

والعمران والنسيج كالنحاس والحديد والأخشاب ومختلف أنواع الأحجار يفسح المجال للحصول عليها ولو كان ذلك عن طريق الحرب. هذه وغيرها من العوامل تضافرت لتجعل النظام السياسي في سومر بالإضافة إلى وظائفه المدنية نظام حرب، ولا شك أن استغلال الإيديولوجيا كان ملاحظاً لجعل عمل النظام السياسي عملاً مقدساً من قبل الجمهور. فإذا كان الدين يؤهل الإنسان السومري لقبول فكرة ارتباط السلطة بالسماء، فإن العنف هو الذي كرس هذه الفكرة وأكسبها صفة التقديس والثبات وجعل الملكية تنتقل بالتوريث داخل الأسرة المالكة.

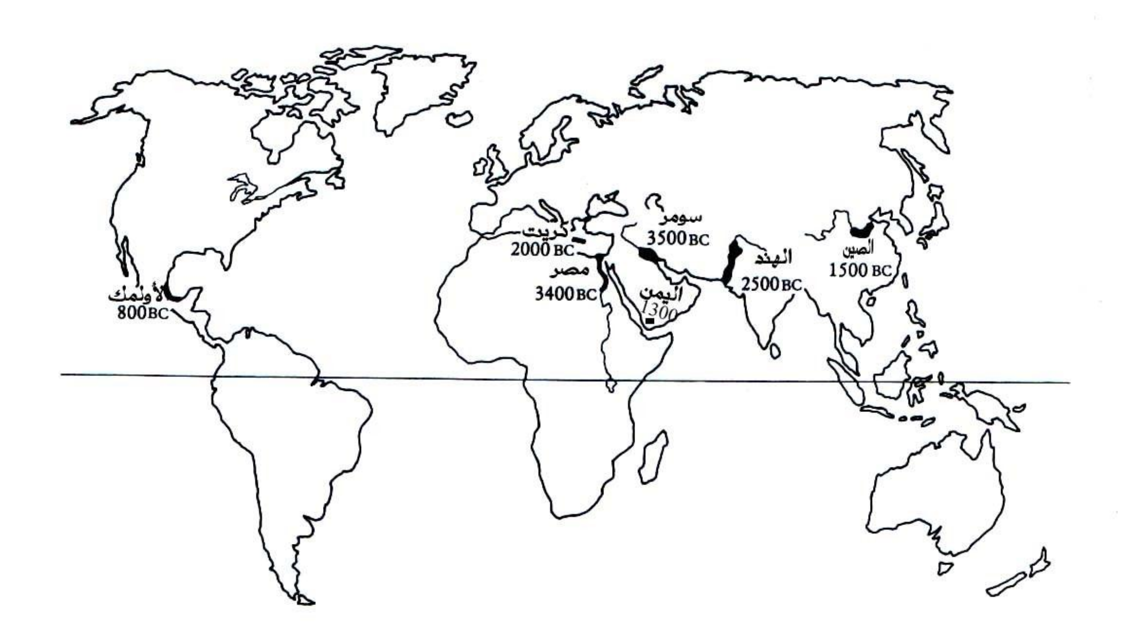
الملاحق

الخرائط

الأشكال

فهرس عام بأسماء الأعلام والآلهة والشعوب والأماكن الواردة في البحث

الخرائط



سومر
3500BC
كريت
2000 BC
مصر
3400BC
اليمن
1300
الهند
2500BC
الصين
1500 BC
الأولمك
800BC

خريطة 1 :   خريطة توضح مناطق ظهور المدنيات الأولى في العالم القديم

عن J. M. Roberts, The First Civilization, an Illustrated History, p. 12



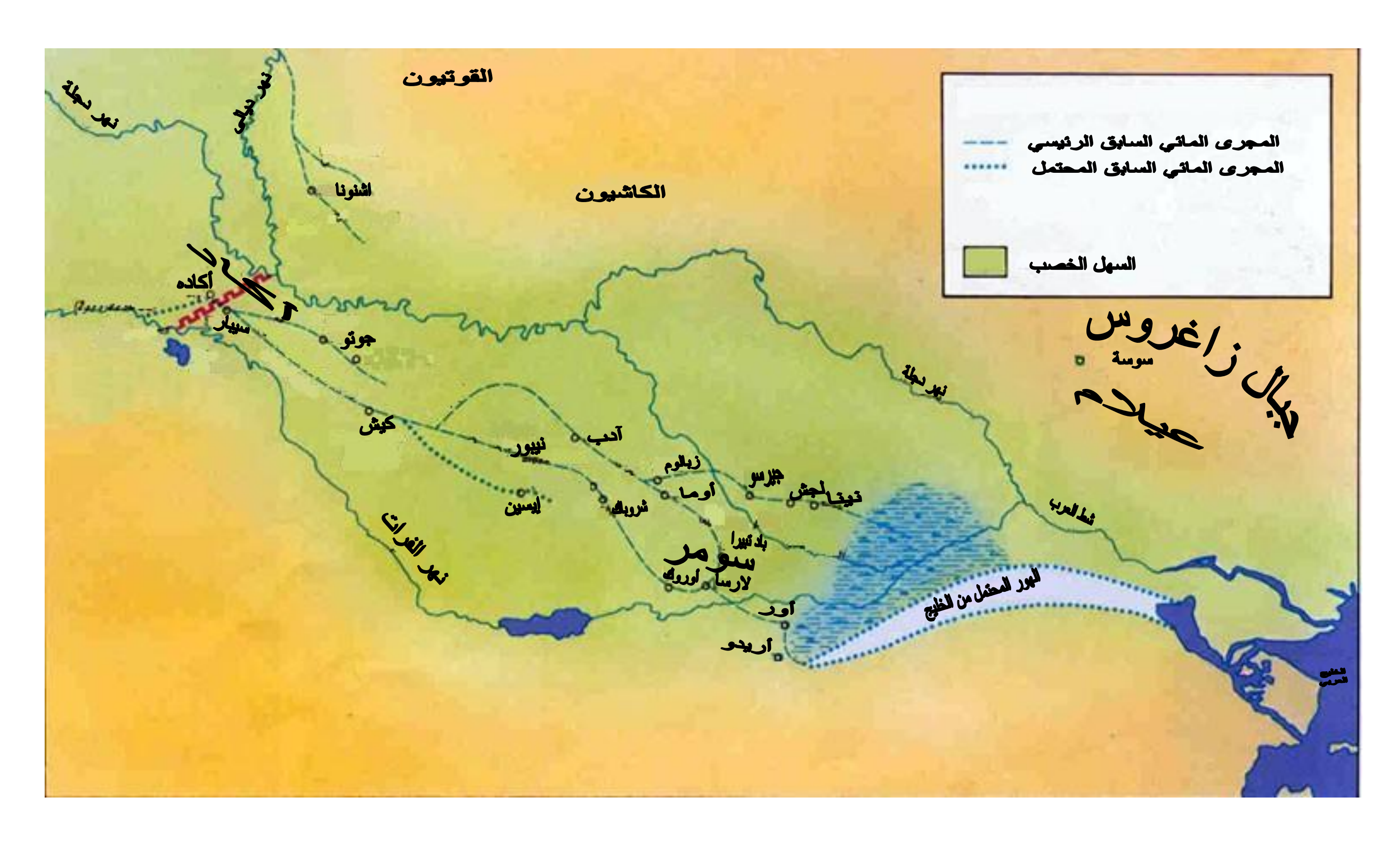
خريطة 2 : خريطة تفصيلية لبلاد ما بين النهرين القديمة

من المعهد الشرقي جامعة شيكاغو

المصدر: الموقع الألكتروني بوابة العلوم الاجتماعية العربية

Arab Sosial Science Research

http://www.assr.org/general/resources.asp?RID=111&cr=4



خريطة 3 : خريطة بلاد سومر خلال 2500 ق.م

من المعهد الشرقي جامعة شيكاغو

المصدر: الموقع الألكتروني تاريخ الحكام والسلالت الحاكمة

http://www.hukam.net/mqps_index.php?query=%C8%E1%C7%CF+%C7%E1%D3%E6%E3%D1%ED%E6%E4+%DD%ED+%C3%D1%D6+%C7%E1%D1%C7%DD%CF%ED%E4&submit=%C5%C8%CD%CB

الأشكال



شكل 1 : تمثال من الرخام لرجل ملتحٍ يرتدي عمامة عثر عليه في الوركاء يعتقد أنه يمثل سيد مدينة أوروك 3000 ق.م

المصدر: الموقع الألكتروني موسوعة الفن التشكيلي العراقي، وزارة الثقافة، جمهورية العراق،
http;/www.irakfineeart.com/caiadalwarka.htm



شكل 2 :　　　تمثال صغير من الرخام لشخص سومري عاش في حدود 2500 ق.م وجد في تنقيبات جامعة بنسيلفانيا في خفاجي

عن صمويل كريمر، من ألواح سومر، 1957.



شكل 3 :   مسلة النصر تخلد انتصار الملك نرام سين حفيد الملك سرجون على اللولوبيين

المصدر: ا الموقع الألكتروني موسوعة الفن التشكيلي العراقي، وزارة الثقافة، جمهورية العراق،

http;/www.irakfineeart.com/caiadalwarka.htm



شكل 5 :   رأس مسلة قانون حمورابي

عن ثروة عكاشة، الفن العراقي القديم، ج4، المؤسسة العربية
للدراسات والنشر، مطبعة فينيقيا، بيروت، د.ت.



شكل 5 : مسلة العقبان: النقش الذي يخلد انتصار ملك لجش ايناتم على أهل أوما

عن صمويل كريمر، من ألواح سوكر، 1957.

فهرس عام بأسماء الأعلام والآلهة والشعوب والأماكن الواردة في البحث

الأعلام

الآلهة

الشعوب

الأماكن

المصادر والمراجع

- إحسان حقي، تاريخ شبه الجزيرة الهندية، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1978.
- أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم: تاريخ العراق . إيران . آسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1997.
- ــ، دراسات في تاريخ مصر الفرعوني، ج1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990.
- أحمد رشيد وهناء الحسن رشيد، علم البيئة، معهد الإنماء العربي، فرع لبنان، بيروت، 1981.
- أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1990.
- أرسطو طاليس، السياسة، ترجمه من الإغريقية إلى الفرنسية وصدره بمقدمة علم السياسة وعلق على النص تعليقات متتابعة بارتلمي سانتهيلر، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979.
- آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ترجمة وتقديم: صبحي قنوص، منشورات جامعة قار يونس، ط1، بنغازي، 1989.
- ــ، تاريخ البشرية، ج1، نقله إلى العربية: نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1981.
- أسامة عبد الرحمن النور، محاضرات في منهج البحث التاريخي، منشورات ELGA، فاليتا–مالطا، 2001.
- ــــ وأبو بكر يوسف شلابي، الأنثروبولوجيا العامة، المركز القومي للبحوث والدراسات الإفريقية، ط1، طرابلس–ليبيا، 2001.
- ــــــ، تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات، ALGA ، فاليتا–مالطا، 1995.

- ألبان جريريجوري ويدجري، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972.
- ألزة زابيرت، رمز الراعي في بلاد الرافدين ونشوء فكرة السلطة الملكية، ترجمة: محمد وحيد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1988.
- أندريه إيمار وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام: الشرق واليونان القديم، إشراف: موريس كروزيه، نقله إلى العربية: فريد محمد باقر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، ط3، بيروت، باريس، 1993.
- انطوان مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب: توفيق سليمان وعلي أبو عساف وقاسم طوير، مطبعة الإنشاء بدمشق، 1967.
- تاو-تي-كنغ، كتاب الطريق والفضيلة، تأليف: لاوتسي، ترجمة وتقديم: عبد الغفار مكاوي، مراجعة: مصطفى ماهر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1967.
- ثروة عكاشة، تاريخ الفن، ج4، الفن العراقي القديم: سومر وبابل وآشور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مطبعة فينيقيا، بيروت، د. ت.
- جان كلود مارخرون، السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية، ترجمة: سالم سليمان العيسي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1999.
- جماعة من المؤرخين السوفيات، موجز تاريخ العالم، م1/ج1، إشراف: البروفسير مانفرد، ترجمة: محمد عيناتي، بيروت، 1989.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، مكتبة النهضة، ط2، بيروت، بغداد، 1976.
- جورج رو، العراق القديم، ترجمة وتعليق: حسين علوان، مراجعة: فاضل عبد الواحد علي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، بغداد، 1986.
- جورج كونتنو، المدنيات القديمة في الشرق الأدنى، ترجمة: متري شماس، presses universitaires de ”que saisje“ france ، المنشورات العربية، باريس، د.ت.

- جوردون إيسيت، الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة: جمال الدين الدناصورة، مراجعة: دولة أحمد صادق، دار الهلال، د.ت.
- جوردون تشايلد، ما ذا حدث في التاريخ، ترجمة: جورج حداد، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- جودة حسنين جودة، جغرافية آسيا الإقليمية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1985.
- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، القاهرة، دار المعارف، 1980.
- خزعل الماجدي، ميثولوجيا الخلود: دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، عمان-الأردن، 2002.
- ـــ، متون سومر، الكتاب الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، عمان-الأردن، 1998.
- دينيس أوين، البيئة وقضاياها، ترجمة: أحمد مستجير، مركز النشر لجامعة القاهرة، 1981.
- رايموند فيرث، الأنماط البشرية: مدخل لدراسة علم الإنسان الاجتماعي، ترجمة وتقديم: صبحي قنوص، منشورات جامعة قار يونس، ط1، بنغازي 1989.
- رشيد الناضوري ، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، الكتاب الأول والكتاب الثالث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976.
- رمضان عبده علي، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته غى مجيء حملة الإسكندر الأكبر، الكتاب الأول: إيران والعراق، دار نهضة الشرق، القاهرة، 1997.
- زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان: علاقات ومشكلات، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1981.

- سامي سعيد الأحمد، المدخل إلى تاريخ العالم القديم، القسم الأول: العراق القديم، الجزء الأول العراق حتى العصر الأكدي، مطبعة الجامعة، بغداد، 1978.
- ستيفاني دالي ، أساطير من بلاد ما بين النهرين (الخليقة، الطوفان، جلجامش، وغيرها)، نقلتها إلى العربية: نجوى نصر، دار جامعة أوكسفورد للنشر، نيويورك،1991.
- صلاح مصطفى الفوال، سوسيولوجية الحضارات القديمة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982.
- صمويل كريمر، أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد عبد الحليم يوسف، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.
- ـــ، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، تقديم: أحمد فخر، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الحاجي بالقاهرة، 1957.
- ضرار صالح ضرار، العرب من معين إلى الأمويين، منشورات دار مكتبة الحياة، ط1، بيروت، 1998.
- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1، منشورات دار البيان، بغداد، 1973.
- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1998.
- عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، مؤسسة شباب الجامعة، 1989.
- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج1: مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990.
- عبد الفتاح محمد وهيبة، جغرافية الإنسان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت، 1980.

- عبد الله الحلو، صراع الممالك في التاريخ السوري القديم: ما بين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية، بيسان للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1999.
- عبد الله عطوي، الجغرافيا البشرية: صراع الإنسان مع البيئة من الإنسان القرد إلى الإنسان العاقل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1996.
- عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب مع دراسة جغرافية كاملة، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- علي حسن موسى، جغرافية العالم الإقليمية، دار الفكر، ط1، دمشق، 1998.
- فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، الأهلي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1999.
- ف. دياكوف/ س. كوفاليوف، الحضارات القديمة، ج1، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، منشورات دار علاء الدين، ط1، دمشق، 2000.
- فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش، سومر للدراسات، نيقوسيا–قبرص، الطبعة السورية بإشراف العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 1987.
- فؤاد محمد الصقار، دراسات في الجغرافيا البشرية، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.
- الكتاب المقدس، العهد العتيق، م1، منشورات دار الشرق، بيروت، 1986.
- لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة: مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط2، بيروت، 1975.
- لويس ممفورد، المدينة على مر العصور: أصلها وتطورها ومستقبلها، ج1، أشرف على ترجمه وقدم له وعلق عليه: إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، 1964.
- مجموعة من الباحثين العراقيين، العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983.

- مجموعة مؤلفين، حول نمط الإنتاج الآسيوي، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1978.
- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981.
- محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990.
- محمد خريسات عصام ومصطفى هزايمة ومحمد عبد الكريم محافظة، تاريخ الحضارة الإنسانية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، ط1، أريد–الأردن، 1999.
- محمد خليفة حسن أحمد، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.
- محمد السيد غلاب، البيئة والمجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، القاهرة، 1981.
- محمد عبد الغني سعودي، الجغرافيا والعلاقات السياسية الدولي، دار الرائد للطباعة، القاهرة، 1985.
- محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985.
- محمد العزب موسى، حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، ط3، القاهرة، 2000.
- محمد الفتحي بكير محمد، الجغرافيا التاريخية: دراسة أصولية تطبيقية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، 1999.
- محمد مرسي أبو الليل، الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها، مؤسسة العرب، دار الاتحاد للطباعة، القاهرة، 1985.

▪ محمود أبو زيد، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
▪ محمود شاكر، جغرافية البيئات، المكتب الإسلامي، بيروت، 1978.
▪ مصطفى حجازي، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي فرع لبنان، ط2، بيروت، 1980.
▪ نبيلة محمد عبد الحليم، معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، منشأة المعارف الإسكندرية، د.ت.
▪ هاري ساكز عظمة بابل: موجز حضارات بلاد الرافدين، ترجمة: عامر سليمان، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، 1979.
▪ هربرت جورج ولز، معالم تاريخ الإنسانية، م1، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1967.
▪ هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة: ميخائيل خوري، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
▪ ول ديورانت، قصة الحضارة، م1/ الأجزاء: 1، 2، 3، 4، ترجمة: زكي نجيب محمود، جامعة الدول العربية، مطابع الدجوي، ط4، القاهرة، 1973.
▪ وليم هاولز، ما وراء التاريخ، ترجمة وتقديم: أحمد أبو زيد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1984.
▪ ويندل فيلبسون، كنوز مدينة بلقيس: قضية اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن، تعريب: عمر الديراوي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1961.
▪ يسري الجوهري، دراسة في جغرافية الإنسان: الجماعات البدائية، مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1997.
▪ يسري الجوهري وناريمان درويش، الجغرافيا الحضرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والتوزيع، الإسكندرية، 1987.

- يونغ شوون كيم، الفكر الشرقي: مقدمة في فكر آسيا الفلسفي والديني، ترجمة: طلعة مراد بدر وحميد على مفتاح، منشورات جامعة عمر المختار، البيضاء- ليبيا،1997.

المعاجم

- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1986.
- سهيل إدريس، المنهل قاموس فرنسي عربي، دار الآداب، بيروت، ط31، 2003.
- عبد الهادي الجوهري، قاموس علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، ط3، الإسكندرية، 1998.
- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، م1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- ابن منظور، لسان العرب المحيط، م 3، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.

الدوريات

- روبرت كارنيرو، "نظرية في نشأة الدولة"، **مجلة الفكر العربي**، العدد 22، السنة الثالثة، تصدر عن معهد الإنماء العربي، بيروت، سبتمبر-أكتوبر، 1981، ص: 7-21.
- سامي سعيد الأحمد، "المظاهر الدينية في العراق القديم"، **المجلة التاريخية**، الجمعية التاريخية العراقية، العدد 4، بغداد، 1975، ص: 126 - 240.
- سليم طه التكريتي، "اقتصاد الدولة في سومر"، **سومر**، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق لنشر نتائج أعمالها ودراساتها ومختلف الأبحاث الأثرية عن الوطن العربي، المجلد 29، بغداد، 1973، ص:267 - 287.
- عبد الكريم عبد الله، "ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكدية"، **سومر**، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق

لنشر نتائج أعمالها ودراساتها ومختلف الأبحاث الأثرية عن الوطن العربي ، المجلد 30، بغداد، 1974.

- عدنان مكي عبد الله، "نشأة وتطور القرية في العراق (6000 – 4000 ق.م)"، **سومر**، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق لنشر نتائج أعمالها ودراساتها ومختلف الأبحاث الأثرية عن الوطن العربي، ص: 49 . 61، المجلد 39، بغداد، 1983.
- فاضل عبد الواحد علي، "أقدم حرب للتحرير عرفها التاريخ"، **سومر**، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق لنشر نتائج أعمالها ودراساتها ومختلف الأبحاث الأثرية عن الوطن العربي، ص: 47 – 57، المجلد 30، بغداد، 1974.
- فايزة صقر، "إدارة القصر الملكي في الدولة الحديثة"، **المجلة التاريخية المصرية**، ص: 29 – 43، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مكتبة الدار المصرية للكتاب، المجلد 40 ، القاهرة، 1999.
- فرج مصمه جي، "الحقبة الزمنية بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية"، **سومر**، مجلة علمية تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في العراق لنشر نتائج أعمالها ودراساتها ومختلف الأبحاث الأثرية عن الوطن العربي، ص: 33 . 40، المجلد 44، بغداد، 1983.

الرسائل العلمية

- عمار عبد القادر مختار الجيلاني، بعض تأثيرات قوانين حمورابي على الذهنية العربية حتى ظهور الإسلام، رسالة ماجستير، شعبة الحضارات المقارنة بكلية العلوم الاجتماعية التطبيقية، جامعة الفاتح، طرابلس، 1999.
- مبروكة محمد سعيد الفاخري، تطور الفكر الديني في بلاد العرب قبل الإسلام، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، 2001.

المحاضرات

- أسامة عبد الرحمن النور، دراسة تحليلية لمواد تشريع حمورابي مؤشراً لإعادة تركيب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع البابلي، محضرة لطلاب الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامعي 2005/2004.
- ـــ، ملحمة جلجامش والفكر الديني الفلسفي الشرقي القديم، محضرة لطلاب الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامعي 20005/2004.
- ـــ، التاريخ الثقافي القديم للأمريكتين، محاضرة ألقيت على طلبة الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامع 20005/2004.
- ـــ، اللابيون نموذج لمجتمعات الصيد، محاضرة ألقيت على طلبة الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامع 20005/2004.
- ـــ، محاضرات في التاريخ الثقافي القديم للبشرية، مذكرة لطلاب الدراسات العليا، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، العام الجامعي 2004/2003.

المراجع باللغة الإنجليزية

- Charles Alexander Robinson, Ancient History from Prehistoric Times to the Death of Justinian, the Macmillan Company, Second Edition, London, 1969.
- Donald Kagan, Problems in Ancient History: the Ancient Near East and Greece, Vol. One, the Macmillan Company, London, 1970.
- H. R. Hall, the Ancient History of the Near East: from Earlest Times to the Battle of Salamis, London, 1963.
- James B. Pritchard, Ancient Near East, Vol. 2, a New Anthology of Texts and Pictures, Princeton University Press.
- J. M. Robert, the First Civilizations, an Illustrated World History 2.
- Michael Roaf, “UBAID Houses and Temples”, Sumer, A scientific Journal Issued by the State Organization of antiquities and Heritage in Iraq to publish the Results of Its Activities and other World Relating to Archaeology and History in the Arab World, vol. 43, no. 1 - 2, Baghdad, 1984.

- Paul J. Alexander, the Ancient World to a. d. 300, the University of Michigan, Second Edition.
- Robert Adams, Land Behind Baghdad: a History of Settlement on the Diyala Plains, the University of Chicago Press.
- Tom Jones, Paths to the Ancient Past: Applications of the Historical Method to Ancient History, the Free Press, New York, 1967.
- Trevor Watkins, "Sumerian Weapons", Sumer, A scientific Journal Issued by the State Organization of antiquities and Heritage in Iraq to publish the Results of Its Activities and other World Relating to Archaeology and History in the Arab World, vol. 43, no. 1-2, Baghdad, 1984.

ملخص الرسالة

الدراسة تنصب على موضوع النظام السياسي في الشرق القديم متخذة من العهد السومري القديم (3000 . 2340 ق.م) نموذجا والإشكالية الرئيسة التي تهدف الدراسة لمعالجتها تتمحور حول محاولة تفسير سيادة النظام الملكي ذي الصبغة الدينية الذي ظل النموذج المحتذى في مختلف الدول التي قامت في الشرق القديم، لهذا الهدف تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن سيادة النظام الملكي الثيوقراطي لا يمكن أن تكون كذلك إلا بتوافر عاملين رئيسيين هما: عمل التقبل وعامل العنف، وفي سبيل معالجة هذه الإشكالية الكبرى عمدت الدراسة إلى معالجة ثلاثة إشكاليات فرعية: – الأولى تتعلق بمحاولة إبراز التأثير الايكولوجي في ثنائية العنف والتقبل ، – الثانية معالجة الدور الذي يؤديه الدين في تكريس النظام الملكي في الشرق القديم بواسطة عقيدة التقبل التي يتركها في الضمير الجمعي الشرطي ، أما الإشكالية الثالثة فتتناول دور العنف البشري في تطور النظام السياسي في الشرق القديم .

لقد كانت الحضارات الشرقية القديمة حضارات نهرية وزراعية بالدرجة الأولى تطورت على أنقاض الثقافات النيوليثية التي انتشرت على نطاق واسع في مختلف أصقاع الشرق القديم من نهر النيل غربا إلى غاية النهر الأصفر شرقا . ومهما كانت

لكل من هذه المدنيات من مميزات ظلت تؤكد على ذاتية كل مدنية بخصوص نشأتها وتطورها التاريخيين فإنها لا تتناقض وفكرة التأثر والتأثير المتبادلين بين مختلف هذه المدنيات ، فقد كانت العلاقات قائمة بينها بفعل وسائل المواصلات سيما المائية منها ، والتي لا شك أنها أسهمت في الاتصال المبكر بينها عبر حركات التجارة والهجرة والحرب، ومن الطبيعي ان تساعد هذه العوامل في اشتراك هذه المدنيات في الكثير من السمات الثقافية ؛ المادية والروحية والسياسية ، فعلى المستوى السياسي يلاحظ أن الأسلوب الملكي الثيوقراطي ظل النموذج المتبع في كل الدول التي قامت في الشرق القديم .

واعتمادا على فرضية التقبل والعنف التي تحاول الدراسة من خلالها تفسير سيادة النظام السياسي الملكي الثيوقراطي الذي ظل النموذج المحتذى على مر التاريخ السياسي في الشرق القديم ، تم التعرض للأطر الجغرافية للنماذج الكبرى للمدنيات الشرقية القديمة ومدى التأثيرات التي تتركها تلك البيئات في الحياة السياسية تبعا لدرجة التعقد الثقافي لدى المجتمعات الشرقية القديمة ، وللأسس النظرية والعملية التي تحدد ملامح النظم السياسية الشرقية القديمة مع إبراز ما كان يقوم به الدين من دور في مجال التأطير النظري لنظام الملكية الثيوقراطية من جانب ومن جانب آخر دور العنف في العملية التطورية للنظم السياسية الشرقية القديمة وصولا إلى دراسة الحالة السومرية خلال عصر فجر السلالات السومرية .

وتخلص الدراسة إلى انه يمكن الربط بين البيئات الجغرافية التي ازدهرت فيها أولى النماذج الكبرى للدولة في الشرق القديم ، وبين المفاهيم الشرقية القديمة حول نظام الحكم المتمثلة في دينية النظام السياسي ، وعدم الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية . وإذا كان للدين الدور الأكبر في التأطير النظري للسلطة الملكية الثيوقراطية في الشرق القديم عن طريق التأسيس الإلهي لسلطة الملوك ، فانه لا يمكن إهمال الدور الكبير الذي يلعبه العنف . عمليا . في تطور النظم السياسية الشرقية القديمة .

Thesis Abstract

This study is concerned with the subject of politics in the old orient taking the old Sumerian Age (3000-2340 B.C) a pattern. The main problem which the study tempts to deal with is revolved around explanation of the rule of law in the hierarchy which is characterized by the religious feature and which continued to be the example used in the whole status of the old orient. For this purpose the study is launched from the assumption that the theocratic hierarchy rule of law can not be the same without the existence of two main factors: Acceptance factor and violence factor. In order to remedy this big problem , the study attempted to treating three sub-problems – the first is concerned with the attempt to show the ecological affect within the dualism of both the acceptance and violence.-the second is concerned with the treatment of the role of religion in dedication of the hierarchy rule in the old orient by way of the acceptance faith lift on the additive –conditional pronoun. While the third problem is concerned with the role of human violence in the development of the political system in the old orient.

The old oriental civilizations were in particular fluvial and agricultural civilizations, which were developed on the ruins of the (Neolithic) cultures which had a wide spread all over the old orient regions from the Nile River in the west to the Yellow River in the east.

No matter the advantages of these civilizations, in all, they kept emphasizing the identity of every city regarding its both of historical existence and development, and they do not contradict the idea of mutual influence or affect among these various civilizations. There have been outstanding relationships between them as a result of the communication means such as

water ways, which no doubt had greatly contributed in early contact between them via the trading activities, emigration and war.

Although it is a natural phenomena that these factors would help making these civilizations share many cultural aspects: materialistic, spiritual and political. On the level of the political, it is observed that the Theocratic hierarchical style remained the persisting pattern followed by all countries of the old orient.

Reliance on the acceptance and violence assumption which the study through the explanation of the theoretical hierarchical political system which remained the example pattern for the long history of old orient, attempts to consider the geographic regions of the big patterns of the old oriental civilizations and to understand the extent of the affects lift out by such patterns of political life depending on the cultural complexes shaped the old oriental societies and the theoretical and practical principles which determines the aspects of the old oriental politics plus showing the role of faith in the field of theoretical dispersal in the theocratic hierarchical domain from one aspect and from the other aspect the role of violence in the developmental process of the old oriental politics , arriving in the mean time into the study of the Samarian case during the dawn of the Samarian descent..

Conclusion:

The study concludes that there is a link between the geographic environments in which first big patterns of the old orient states were flourished and between the old orient conceptions regarding the governing system represented in the religiosity of the political system, lack of separation between the religious authority and secular authority. If however, there is a bigger role for the faith to play in the theoretical dispersal of the theocratic hierarchical authority of the old orient through the divine establishment of the monarch, then it is not possible to ignore the big role played by violence –practically- in the development of the political systems in the old orient.